سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد السابع

المجلد السابع



دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى


سلسلة
٣١
المولد النبوى الشريف
دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى
د. عبد الحميد مصطفى

المولد الشريف

الجناب

- مكة بعد هزيمة الفيل .
- أين ولد الرسول ؟ • متى ولد ؟
- إحساس الأم بعظمة ابنها .
- خوارق صاحبت المولد .
- التسمية والكنية .
- حكمة يُتم النبى - صلى الله عليه وسلم .
- احتفال المسلمين بالمولد .
- رضاعه - قصة حليمة .
- أحزان متواصلة ويُتم جديد .
- وفاة عبد المطلب وكفالة أبى طالب .
- كفاح فى سبيل الحياة .
- أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم الخِلقية .. والخُلقية .
- مشاركته فى المهام العظيمة .
- حلف الفضول .
- زواجه من خديجة رضى الله عنها .
- مشاركته فى بناء الكعبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

معطيات النسب الشريف وأبعاده الحضارية :

رأينا فى سلسلة النسب الزكية التى قدمناها ،كيف أن النبى ﷺ ينتسب إلى أعلى أرومة عربية عرفها التاريخ ، وقد اجتمعت فى أسرته خصائص أهمها :

* المجاورة لبيت الله الحرام والمحافظة على دين إبراهيم .
* التمسك بمكارم الأخلاق من نجدة ومروءة وإكرام ضيف ورحمة بالضعفاء وغير ذلك .
* شرف النفس والحفاظ على آداب الفروسية وما يقتضيه ذلك من تقاليد وعادات .

ولمزيد من البيان نقول :

ضمن الله لنبيه ﷺ أن تكون سلسلة نسبه بين الأجداد الذين ينحدرون من عدنان حتى جده عبد المطلب من الذين تشرفوا بالبقاء حول البيت . ولم يبتعدوا عنه . . ولنضرب لذلك مثلاً :

أعقب عدنان ولدين . . أحدهما اسمه عك ، والآخر اسمه معد . . أما عك فنزح إلى اليمن وفيها أقام . . ولكن معداً هو الذى بقى مجاوراً للبيت . . وإليه ينتسب النبى ﷺ

وولد معد عدة أولاد منهم نزار ، وقضاعة ، وقنص . .
والذى بقى مجاوراً للبيت من هؤلاء هو نزار ، وإليه ينتسب النبى ﷺ
وولد نزار : ربيعة وأنمار ، وإياد ، ومضر . .

تفرق هؤلاء الأولاد ولم يبق مجاوراً للبيت إلا مضر ، الذى أحبه الناس وقدروه ، وإلى مضر ينتسب النبى ﷺ

وأعقب مضر ولدين : هما : غيلان وإلياس

وظل إلياس مجاوراً للبيت محافظاً على تقاليد وآداب الدين حتى ورد فيه قول النبى ﷺ لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً .

وإلى إلياس ينتسب النبى ﷺ

واذا تتبعت بقية الأجداد رأيت أن الفرع الذى انحدر منه النبى ﷺ هو الفرع الملازم للبيت ، وهو الفرع النبيل المحافظ على الإرث الكريم والشرف القويم والمثل العليا الخالدة . .

فانظر مثلاً إلى أولاد إلياس تجدهم ثلاثة هم : عامر ولقبه مدركة وعمرو ولقبه طابخة ، وعمير ولقبه قمعة . . فإلى أى فرع ينتمى النبى ﷺ من بين هؤلاء ؟

إنه ينتمى الى مدركة . .

ومالقب بذلك إلا لأنه أدرك عدوه فاستنقذ ما كان قد سلبه من إبله . .

أما طابخة فلقب بذلك لأنه قعد يطبخ ، وأما قمعة فلقب بذلك لأنه انقمع عن العدو وتخاذل . .

لقد انتمى النبى ﷺ إلى فرع الفروسية والنجدة ومكارم الأخلاق . .

وأنجب مدركة خزيمة وهذيلاً .

فانتمى النبى ﷺ إلى خزيمة الذى اتسم بالشرف وحسن الخلق كما يحدث الرواة . . .

وأعقب خزيمة كنانة وغيره ..

وكنانة هو الذى ورد فى حقه الحديث الشريف : إن الله اصطفى من بنى اسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم ..

فإلى كنانة ينتمى النبى ﷺ دون غيره من بنى خزيمة ..
ولقب كنانة بذلك لأنه كان يكن الأسرار ويحفظها ..
وأنجب كنانة عدة أبناء منهم النضر ومالك وملكان ..
فكان نسب النبى ﷺ فى النضر من بينهم ..
وقد سمى النضر لنضرته وبهائه وجماله وحسن خلقه ..

وأعقب النضر من الأبناء مالك وغيره ..
ومالك هو جد النبى ﷺ وسمى بذلك لأنه كما يقول الرواة قد ملك أمر العرب ..
وأعقب مالك من الأبناء : فهراً وغيره ..
وفهر هو الذى يقال إنه قريش وسمى بذلك لأنه كان يقرش .. أى يفتش عن خلة لمحتاج ليسدها ويقيل عثرته ، وكان أبناؤه يقرشون أهل الموسم ويقضون لهم حوائجهم ..

وترك فهر من الأبناء : غالباً ومحارباً والحارث وأسداً ..
فكانت نسبة النبى ﷺ إلى غالب ..
وقد سمى بذلك لأنه كان يغالب من أجل الحق ، ويدفع الباطل ..
وأنجب غالب لؤياً وتميماً ..

وإلى لؤى ينتسب النبى ﷺ وكان سيداً شريفاً مطاعاً . .

ومن لؤى كان كلاب الذى جمع بين جدى النبى ﷺ ـ أبيه وأمه ـ ويقال إن كلاباً هذا كان اسمه حكيماً ـ كما سبق أن قدمنا ـ

وعلل بعضهم تسميته بهذا الاسم لأنه جمع كلاب الصيد . .

وإليه يرجع الفضل فى جمع قومه ليوم العروبة وهو يوم الجمعة . . وقيل إنه هو الذى سماه يوم الجمعة لجمع قومه فيه . .

وأنجب كلاب قصياً وزهرة . . وهما جدا النبى ﷺ لأبيه وأمه . .

أما قصى فإليه يرجع الفضل فى أنه جمع أمر قريش وانتزع لها الحجابة والسقاية والرفادة واللواء وأقام بيت الندوة وجمع مآثر عظيمة لقومه . .

ومن قصى كان أولاده عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى . .

وإلى عبد مناف المعروف بالشرف والرحمة بالضعفاء والمروءة والنجدة ينتسب النبى ﷺ

ومن عبد مناف جاء هاشم ومنه عبد المطلب . .

وهما معدن الكمال والنقاء والشهامة والنجدة . .

فانظر إلى هذا النسب كيف جمع الفضائل التى يتسابق إليها أفاضل الرجال وأماثلهم . . وكيف اجتمعت كلها فى هذه السلسلة الذهبية المباركة التى انتهت بأكمل الرجال وأعظم الخلق وأشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ

آثار هذا النسب العظيم :

لقد أثمرت هذه السلسلة ثمارها فى النبى ﷺ فما انتهى إليه إلا خلاصة كاملة من المثل العليا والقيم النبيلة التى تفرقت فى هؤلاء الأجداد العظام . .

فرفعة نسبه هذه جعلت له مكانة مرموقة فى قومه . . فاتسم بالعدالة فى حكمه ، وجلال الهيبة فى نفوس من يراه ، وجمال التواضع ، ورعاية الضعفاء والرحمة بالفقراء ، وحب المساكين ، فكان أهلاً للوحى والنبوة والرسالة الخاتمة التى أنعم الله عليه بها . . وقد أفاء الله عليه بحسن التوجيه وعظمة التأديب وسعة العلم وكمال التوفيق . . فمكنه كل ذلك من إقامة بنيان هذه الدولة العظيمة التى شيدت قواعدها على العدل والرحمة والكرم والأخلاق الكاملة الرفيعة ، حتى قال فى ذلك أحد المنصفين من غير المسلمين :

كان محمد بن عبدالله ﷺ أكمل زعماء العالم قاطبة ، لأنى أجد فيه خلالاً مختلفة وأخلاقاً جمة وخصالاً كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم لإنسان واحد فى آن واحد ، فهو حاكم وهو متواضع وهو قائد عظيم يقود الجند القليل فيغلب العدد الكثير وهو محب للسلام ، وهو البطل الشجاع وهو صاحب القلب الرقيق ، ونراه مشغولاً بجزيرة العرب بينما لا يفوته أمر من أمور بيته أو من أمور فقراء المسلمين ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم فيحرص على هدايتهم . . [1]

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

مكة بعد هزيمة الفيل :

شعرت مكة بالإرتياح الكامل عقب هزيمة الأحباش ، وتجاوبت أصداء فرحها فى كل مكان ، وأقبلت الوفود إليها من شتى أنحاء الجزيرة العربية

---

(١) راجع فى ذلك بحثا بعنوان بيت الرسول وقيمه الحضاريه د . رؤوف شلبى ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة ١٤٠٦ هـ

تؤدى حق الشكر لله على أنْ نجى بيته الحرام من هذه المؤامرة الدنيئة ، وتهنىء قريشاً وزعيمها عبد المطلب الذى أكرمه الله بهذه النعمة ، وأتم الانتصار فى عهده . .

وأصبح الحديث عن هزيمة الأفيال بهذه الصورة الخارقة حديث كل الناس فى كل مكان ، وهو حادث يثير العجب حقاً ، فمن كان يصدق أن طيوراً صغيرة أقل من العصافير حجماً تحمل فى مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة فى حجم الحمصة أو السمسمة تلقيها على الأفيال وجنودها فتبيدها وتقطع أوصالها وتجعل منها عبرة لمن يعتبر

لقد رفع هذا من مكانة البيت فى قلوب الناس . .

ورفع أيضاً من مكانة قريش التى تتولى أمر هذا البيت . .

ورفع كذلك من مكانة عبد المطلب الذى تسلح بالإيمان ، ولجأ إلى الله بالدعاء ، ولم ترهبه صولة أبرهة ، ولا رهبة جنوده وأفياله . . ولم يزد على أن حرك حلقة البيت فى سكينة وتضرع وابتهال وهو يقول :

لا هـم إن المـرء يمنع رحـ ـله فامنـع حـلالك

لا يغـلبن صـليبهم ومحـالهم أبـداً محـالك

فلئـن فعـلت فإنـه أمـر تتـم به فعـالك

جَـرُّوا جمـوع بلادهـم والفيـل كـى يسـبوا عيالك

عمـدوا حـماك بكيـدهـم جـهلاً ومـا رقـبوا جـلالك

وأرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه فى سكون إلى شعب الجبال المحيطة بمكة . . لقد كان دعاء صادراً من الأعماق ، وجد أمامه أبواب السماء مفتوحة فتلقفته بالإجابة . .

فسرعان ماجاءت الطيور كالخطاطيف تعرف وجهتها تماماً ، ويرقب كل طائر منها فريسته التى أعدت له ، فيلقى فوق رأسها مافى منقاره وبين رجليه من أحجار السجيل ، فتتحول هذه الفريسة سريعاً إلى ما يشبه العصف المأكول .

ومهما حاول الواصفون أن يصفوا جلال هذا المشهد وروعته ، فإنهم لن يستطيعوا الوصول إلى ما صوره القرآن الكريم فى لفظه الموجز المعجز الذى يتحدى أرباب الفصاحة والبلاغة قائلاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم . .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

لقد عرف الناس فضل عبد المطلب يومئذ ، وأدركوا رباطة جأشه وقوة شخصيته ، ومكانته الروحية التى تفتحت لها أبواب السماء . .

وهكذا عاشت مكة وأهلها أياماً سعيدة ، تتجاوب الأفراح فى أنحائها . .

ولم لا ؟ وقد نجاها الله من شر مستطير وخطر جسيم ؟

ألم يكن متوقعاً أن يسبى أبرهة من يسبى ويقتل من يقتل ، ويشرد من يشرد ؟

إن أبرهة لو غلب لحق له بقانون الغلبة أن يفعل ما يشاء ، وكان من الممكن لو تم له النصر أن يجعل من سادة قريش عبيداً أذلاء . .

---

(٢) سورة الفيل

ولكن الله برحمته الواسعة ، ونعمته السابغة نجى قريشاً ومكة من هذا المصير المشئوم . .

ولقد شعر عبد المطلب ـ عقب هزيمة أبرهة وجيشه بهذه الصورة الرائعة ـ أن عين العناية ترقبه وأدرك أن هناك سبباً قوياً يربطه بالسماء . . فمازاده ذلك الشعور إلا تواضعاً . .

ولم يمر على هذا الحادث خمسون يوماً حتى كانت هناك فرحة أكبر وأعظم ، وبشرى أجل وأكرم . .

مولد الرسول :

ولد صلى الله عله وسلم فى ليلة طاب هواؤها ، ورق نسيمها ، وأشرق ضوؤها ،وعظم نورها ، وغردت أطيارها ، وضحكت أزهارها ، وانسابت أنسام السكينة ، تملأ الأرض أنساً والنفوس أملاً ، والقلوب أمناً . .

كما سعدت السماء وابتهجت الملائكة بإشراق مولد نبى الله محمد بن عبدالله . .

متى وأين ولد ؟

فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول من عام الفيل الذى دحر الله فيه الباطل ونصر الحق ، وفى دار عبد الله بن عبد المطلب ـ تلك الدار التى وهبها النبى ﷺ فيما بعد لعقيل بن أبى طالب فظلت فى يده حتى توفى فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى ، فابتنى بها بيتاً ثم جاءت الخيزران أم الرشيد فيما بعد ، فأخذتها من ورثته وجعلتها مسجداً يعبد الله فيه [٣] فى تلك الدار ولد محمد بن عبد الله .

---

(٣) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٣٥

وأشهر الأقوال فى مولد النبى ﷺ أنه كان فى ليلة الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل [٤]

جاء فى هامش المنتخب من السنة :

أشهر الأقوال أن ولادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت بعد حادث الفيل بخمسين يوماً ، ويقرب منه قول : أبي جعفر الباقر : إن مولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بعد حادث الفيل بخمس وخمسين ليلة ، وذلك أن قدوم الفيل كان فى منتصف المحرم ، وكان بين هذا اليوم واليوم الثانى عشر من ربيع الأول ـ يوم مولده الشريف ـ خمس وخمسون ليلة .

وقد حدد بعض المحققين يوم الميلاد باليوم العشرين من نيسان وقيل : إنه كان فى العشرين من أغسطس سنة ٥٧١ ميلادية [٥]

وكان ملك الفرس إذ ذاك كسرى أنو شروان المشهور بالعدل ، وفى ذلك يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاكياً عن نفسه : « ولدت فى زمن الملك العادل » [٦]

وحكى الطبرى أن عبد الله أباه ولد لأربع وعشرين مضت من سلطان كسرى وأن رسول الله ﷺ ولد فى سنة اثنتين وأربعين من سلطانه . . [٧]

وكان ملك الروم عند مولد الرسول ﷺ هو : يوسطنا نياس ـ الذى ملك الروم أربعين سنة ، أو هو يوسطنيوس الأول [٨] الذى ملك تسعاً وعشرين سنة .

---

(٤) سيرة ابن هشام

(٥) المنتخب من السنة ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية جـ ١ ص ٦٩ ط التحرير

(٦) محمد قبل الوحى وبعده : على السيد سليمان ص ١٢

(٧) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٣٥

(٨) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٤٧

وهناك أخبار أخرى تؤكد أن مولد الرسول ﷺ كان عام الفيل . .

فقد ورد فى ترجمة قباث بن أشيم ـ فى أسد الغابة ـ أنه أى قباث رأى الفيل فى أثناء هجومه على مكة ـ وعاش قباث حتى زمن عبد الملك بن مروان ، فسأله عبد الملك ذات يوم قال له : أنت أكبر أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

فقال : بل رسول الله أكبر وأنا أسنُّ منه (٩)

يعنى أنه ولد قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنوات ذاك لأنه أدرك الفيل ورآه ، ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولد بعد الفيل ، وقد جاء ذلك صريحاً فى رواية الطبرى :

قال قباث : ولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الفيل . . (١٠)

ويروى ابن الأثير فى سبب إسلام قباث قصة طريفة نذكرها للاستدلال على شفافية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى عظم ما أعطاه الله من علم ونبوة .

قال لقباث بن أشيم رجال من قومه : إن محمداً قد خرج يدعو الناس إلى دين غير ديننا . فقام قباث حتى أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما دخل عليه ، قال له : اجلس ياقباث ، أنت الذى قلت : لو خرجت قريش بأكمتها ردت محمداً وأصحابه ؟ (١١)

---

(٩) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٧٩
(١٠) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ١٣٥
(١١) الأكمة : المكان الذى هو أشد ارتفاعاً من غيره

. قال قباث : والذى بعثك بالحق ما تحرك به لسانى ، ولا زمزمت به شفتاى ، ولا سمعته أذناى وماهو إلا شىء هجس فى نفسى ، أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأن ما جئت به لحق .

ومن الذين ولدوا عام الفيل مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحدثوا عن ذلك « قيس بن مخرمة » وقد روى فى ذلك قوله : كنت أنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدة ، ولدنا عام الفيل . .[١٢]

إحساس الأم بعظمة ابنها :

سبق أن ذكرنا أن آمنة بنت وهب كانت تحس بجلال ذلك المولود المرتقب الذى يضطرب فى أحشائها ، والذى تركه أبوه وديعة فى بطنها ومضى ضارباً فى الأرض فى سبيل الرزق مبتعداً عن عروسه الطاهرة ولم يمض على زفافها إليه بضعة أيام . .

والأمر يستدعى الحديث عن ذلك الزواج السعيد الذى أثمر هذه النعمة الطيبة المباركة التى أسعدت الكون . .

كان عبد الله أكمل أبناء أبيه وأحسن رجل فى قريش خَلْقاً وخُلُقاً ، وهدى الله والده عبد المطلب فسماه باسم من خير الأسماء وهو عبد الله . . وقد عرضنا أنه كان يلقب بالذبيح لأن أباه كان قد نذر : إن رزقه الله عشرة ذكور ذبح أحدهم قرباناً لله .

فرزق بعشرة ذكور ، فأقرع بينهم فأصابت القرعة عبد الله ، فهم بذبحه ، فحالت قريش بينه وبين ذلك ، واحتكموا إلى كاهنة أشارت

---

(١٢) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٤٥ ، وتاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٣٥

عليهم بالاقتراع بينه وبين الدية المقررة فيهم ونُحرت مائة من الإبل فداء لعبد الله . . فلقب بالذبيح . .

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : أنا ابن الذبيحين ـ يعنى عبدالله وإسماعيل ـ عليه السلام . .

وروى عن بعضهم قوله : كنا عند معاوية ـ رضى الله عنه ـ فتذاكر القوم الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ، فقال معاوية : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاه أعرابى يشكو جدب أرضه ـ فقال : يارسول الله ، خلفت البلاد يابسة ، هلك المال ، وضاع العيال ، فتصدق علىَّ مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين .

فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم ينكر عليه . .

فقال القوم : من الذبيحان ياأمير المؤمنين ؟

قال : عبدالله وإسماعيل . . (١٣)

ولا يمنع عدم تواتر هذا الخبر من الاستلال به على إثبات أن الذبيح الأول هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ أما عبد الله فلا يشك أحد اطلاقاً فى أن أباه أوشك أن يذبحه وفاء لنذره لولا أن منعته قريش من ذلك . . فافتداه بالنياق المائة . .

وقد سبق أن عرضنا فى قصة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ما يثبت أنه كان هو الذبيح . .

وكان نور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى فى جبين عبد الله كالكوكب الدرى . .

---

(١٣) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٥٩ ، قال الحلبى : قال الحافظ السيوطى : هذا حديث غريب وفى اسناده من لا يعرف حاله . .

وقد مر بنا كيف أن أم قتال بنت نوفل ، رغبت فى أن يكون زوجها حتى تظفر بأمومة المولود الذى يشرق نوره فى جبين عبد الله ، وقد عرفت ذلك بفراستها الصادقة وباخبار أخيها ورقة لها عن علامات نبى آخر الزمان . .

ولكن الله أراد أن تكون أمه هى آمنة بنت وهب سيدة نساء قريش فى ذلك الوقت . .

وكانت جدة لآمنة قد تنبأت قبل ذلك لها بمولود له شأن عظيم . . .

جاء فى كتاب « خير البشر بخير البشر » :

روى أن زهرة بن كلاب ولدت له بنت بيضاء ناصعة البياض بها شامة سوداء ، فكره أبوها بياض لونها ، وعاف الشامة التى بجسدها ، وأمر بها أن توأد ـ أى تدفن حية ـ فخرج بها الذى أمره بذلك ، حتى إذا دنا من الحجون حفر لها ، ودلاها فى الحفرة .

فسمع هاتفاً يقول : رب فارس ركّاد ، ومطعم جواد ، فى السنة الجماد ، من الجارية الملقاة بالواد . .

فلما سمع الرجل مقالة الهاتف استخرج الطفلة من الحفرة وانطلق بها إلى أبيها ، فأخبره بما سمع .

فقال زهرة : دعها فسيكون لها نبأ وشأن . .

فلما كبرت زوَّجها عمرو بن كعب بن تيم ، فولدت له ، ثم تزوجت غيره بعد وفاته وكثر بنوها وبناتها . .

وكانت لبيبـــة حازمة كاهنة ، ولما حضرتها الوفاة أمرت أن تؤتى بذكور ولدها .

فأتيت بعبد الله بن جدعان ، وهشام بن المغيرة ، وغيرهما من ذكور ولدها ، فوصفت كل واحد منهم بخصائصه ،وذكرت جملاً مما يكون من أموره . .

ثم أمرت أن تعرض عليها بناتها ، وقالت : إن فيهن لنذيرة أو من تلد نذيراً .

فعرضت عليها هالة بنت وهيب فقالت : ليست بها ، وستلد ، فولدت حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ

وعرضت عليها الشفاء ، فقالت : ليست بها ، وستلد ، فولدت عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ

وعرضت عليها آمنة بنت وهب ، أم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : واللات والعزى ، إن ابنتى لنذيرة أو والدة نذير ، له شأن كبير ، وبرهان منير .

ثم إن السوداء بنت زهرة ماتت فخرج فى جنازتها من بناتها وبنات بنيها وبنات بناتها مائة عذارى سوى الثيب [١٤]

فقد كانت آمنة بمقتضى هذا الخبر تحس بأنها ستكون أم النبى المنتظر . .

كيف تزوج عبد الله بآمنة ؟ :

عقب الإنتهاء من نحر الإبل التى افتدى بها عبدالله ، ذهب أبوه عبد المطلب بن هاشم إلى عم آمنة وهو وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهو

---

(١٤) خير البشر بخير البشر ص ٧٧

يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، وكانت آمنة فى حجره لوفاة أبيها وهب . .

وخطب إليه آمنة لابنه عبد الله ، وكانت آمنة فى ذلك الوقت أفضل فتاة فى قريش نسباً وموضعاً . .

ولم يرفض وهيب لمكانة عبد المطلب وشرفه . . وتم الزواج

وقيل : إن وهباً والد آمنة كان حياً وهو الذى زوج ابنته .

وبنى عبد الله بزوجته آمنة فى بيتها . . وشاء الله أن يكون الحمل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقيل ، بل بنى بها فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى . .

وأقام عندها ثلاثة أيام ، على حسب العادة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . . أى يبنى الزوج بزوجته فى بيت أهلها ، ثم ينطلق بها بعد ذلك إلى بيته أو بيت أهله . .

لقد حظيت آمنة بنت وهب بالسعادة العظمى التى لم تنلها امرأة قبل ذلك . .

لماذا اختار عبد المطلب بنى زهرة ؟ :

ويروى الرواة فى اختيار عبد المطلب بنى زهرة ليزوج منهم ابنه عبد الله . . أن عبد المطلب كان قد قدم اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من اليهود يقرأ الزبور .

فقال الحبر : ممن الرجل ؟

قال عبد المطلب : من قريش ؟

قال الحبر : من أيهم ؟

قال : من بنى هاشم ..

فنظر الحبر إلى عبد المطلب وتفرس فيه ثم قال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكاً وفى الأخرى نبوة ، وإنما نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟

قال عبد المطلب : لا أدرى

قال الحبر : فهل لك من زوجة منهم ؟

قال عبد المطلب : أما اليوم فلا ، أى لم تكن له زوجة من بنى زهرة فى ذلك الوقت .

فقال الحبر : فإذا تزوجت فتزوج منهم ..

فكان أن تزوج عبد المطلب من هالة بنت وهيب بن عبد مناف وزوج ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب بن عبد مناف .. فولدت هالة حمزة وولدت آمنة محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهما أخوان من الرضاع ..

وكانت قريش تقول : فلج عبد الله على أبيه .. أى فاز عبد الله على أبيه لأنه أنجب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير بنى البشر .. وفيه النبوة التى هى أعظم من الملك [١٥]

خوارق صاحبت المولد :

وليس عجيباً أن تحدث خوارق تصاحب مولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فالقادم ليس مولوداً عادياً ، ولكنه هدية الله إلى البشرية ، الذى أخذ الله له العهد من النبيين على أن يؤمنوا به وينصروه ، ويبشروا به .. فلا بد

---

(١٥) السيرة الحلبية ج ١ ص ٧١

أن كون مقدمه مصحوباً بما يليق به من احتفال واعلان . . لتعلم الدنيا كلها أن النبى المنتظر قد حضر . .

قال الطبرى : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق : أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تحدث أنها لما حملت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمعت هاتفاً يقول لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع بالأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً ، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام .

وروى الطبرى كذلك خبراً مسنداً إلى عثمان بن أبى العاص قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك ليلاً . . قالت : فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : لتقعن علىّ[١٦]

وفى رواية أخرى رواها أبو عثمان أيضاً عن أمه قالت : إنها شهدت آمنة لما ولدت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها نور أضاء له البيت الذى نحن فيه والجوار ، فما من شيء أنظر إليه إلا نور[١٧]

ليس غريباً أن تتواكب الدنيا كلها فى الاحتفال باستقبال سيد البشر الذى جاء لينقذهم من الظلمات الى النور ومن الضلالة إلى الهدى ويأخذ بيدهم من الشر إلى الخير ومن الشقاوة إلى السعادة ، ليس غريباً أن تدنو الكواكب وتتدلى النجوم ، وتشرق الكائنات وتنكس الأصنام وترجم الشياطين ،

---

(١٦) تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٣٣ ـ الاصابة لابن حجر جـ٨ ص٦٧

(١٧) أسد الغابة جـ٧ ص٢٢٨ ص٣٦٦

ويعم الكون كله البهجة والسرور فى استقبال من جعله الله رحمة للعالمين .

وإنا لنقرأ فى الأخبار المروية المتواترة مايؤيد ذلك .

روى ابن الأثير عن هانىء المخزومى : قال : لما كانت ليلة ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ارتج إيوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرفة وغاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادى سماوة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام - ورأى الموبذان - أحد حكام الفرس - إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلاد الفرس -[١٨]

وقد سبق أن أشرنا إلى أن كسرى قد ارتاع لسقوط الشرفات كما ارتاع الموبذان لرؤياه ، فاستدعى كسرى أحد الكهان واسمه عبد المسيح ، فلم يستطع تأويل ذلك إلا بالرجوع إلى خاله سطيح ، الذى وصل إليه وهو على وشك الموت .

فأخبره سطيح بأن ذلك إشارة إلى مولود ولد هو نبى الأمة المرتقب ، وسيكتسح دينه دين الفرس ، ويملك المسلمون أرضهم بعد هلاك أربعة عشر ملكاً من الفرس بعدد الشرفات التى سقطت وقد تم ذلك فعلاً . .

ويحسن أن نذكر هنا ماكتبته الدكتورة بنت الشاطىء حول هذا الموضوع ، قالت بعنوان « البشريات آيات اصطفاء »

« جماهير الشعوب الإسلامية تعرف بشريات المولد ومشاهده راسخة فى وعيها لتاريخها ووجودها فلست أذكّرها بما غفلت عنه ، ومتى نسينا العهد حتى نذكر ؟ هيهات هيهات . . وإنما أتجه بالحديث إلى بشريات المولد التى

---

(١٨) المرجع السابق جـ ٥ ص ٣٨٢

تتجلى فيها آيات الاصطفاء وإن بدت للغافلين من مباغتات الصدف العشواء أو من أفانين السمار ومنحولات الرواة يستجيبون بها لمواجد المحبين ووجدان الجماهير . .

فى « مكة » أم القرى كان مولده والجاهلية تؤذن بمغيب ، والتاريخ العام يرصد نذر الانهيار لعالم يريد أن ينقض . .

وضعته أمه بشراً سوياً فى دار أبيه عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى ، بجوار البيت العتيق أقدم بيت عبد فيه الله على الأرض .

ونور الفجر يبشر بصبح جديد والدنيا تتفتح لموكب الشروق وتستقبل مع أنفاس الصباح أنفاس ألوف من بنى البشر ، ولدتهم أمهاتهم من مختلف الأجناس وشتى البقاع فى تلك الليلة المقمرة من ربيع الأول .

منهم من ولدوا فى قصور مصر والشام وفارس والروم . .

ومن ولدوا فى مجاهل القفر ونجوع البوادى وأدغال الغابات وكهوف الجبال . .

تباعدت بهم الأصول والأنساب ، وتفاوتت الألوان والأجناس . .

وتناءت الأعراق والطبقات . .

وجمعتهم بنوتهم للبشرية كلهم لآدم وحواء . .

ولم تر فيهم الفطرة الإنسانية إلا تحقيقاً لإرادة البقاء وامتداداً للحياة ، على مابينهم من تفاوت بعيد . . من هؤلاء المواليد الذين لا يحصون عداً ـ عدد غير قليل ولدوا فى أم القرى لبنى هاشم وعشائر قريش صفوة العرب العدنانية من بنى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ولا يعرف تاريخ

مكة أنها استقبلت أى وليد منهم بمثل ما استقبلت به بشرى مولد اليتيم الهاشمى « محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب » الخالق عز وجل يصطفى من عباده من يشاء ، ولقد حفت بهذا الوليد الهاشمى ظروف فريدة ، جعلت مكة مرهفة الوعى لبشريات مولده تتجلى فيها آيات الاصطفاء ، ثم تحرص على متابعة سير الحياة بهذا الوليد الهاشمى إلى أن بلغ أشده ، واصطفاه الله خاتماً للنبيين ـ عليهم السلام ـ فأخذت البشريات موضعها الجليل فى السيرة النبوية وأعلام النبوة ، وتجرد علماء الطبقات الأولى من عصر الصحابة وكبار التابعين لتوثيق ما وعت ذاكرة مكة من بشريات المولد ، لم تكد تفلت منها شيئاً ذا بال .

الليلة من بدئها كانت مقمرة ، ينيرها قمر أوشك أن يكتمل بدراً ، وتؤنسها أطياف ورؤى للوالدة طوال حملها فتعينها على تجربة المخاض ، وبزغ نور الفجر وقد وضعته كما تضع كل والدة من البشر ، وفاض عالمها بالنور والأنس والغبطة ، وهى ترنو إلى وليدها الغالى وتذكر به أباه الحبيب الذى أودعها إياه ثم ودعها ورحل . .

وكانت مكة حين تلقت بشرى المولد تحتفل بنجاتها من أصحاب الفيل الذين أرادوا بها كيداً فجعل الله تعالى كيدهم فى تضليل .

ورأت مكة فى مولد اليتيم الهاشمى إبان الاحتفال بالخلاص من أصحاب الفيل ، آية تذكر بأخرى . . يوم هم عبد المطلب بن هاشم بنحر ولده عبد الله قرباناً لرب الكعبة وفاء بنذر له حين اهتدى إلى بئر زمزم بعد أن طمرتها رمال الزمن .

ثم كان فداء عبد الله بمائة من الإبل نحرت عنه هناك ، وأضيئت المشاعل فى أم القرى وسهرت مسامرها تسترجع ذكرى قصة الذبيح الأول إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ حين هم أبوه بذبحه طاعة وتعبداً ففداه الله بذبح عظيم بعد ذلك البلاء المبين .

إنه القصة التى وعتها ذاكرة مكة من عهد إسماعيل تتكرر فى حمى البيت العتيق الذى رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإسماعيل ـ عليه السلام ـ جد العرب العدنانية وعبد الله المفتدى من صريح ذرية إسماعيل ، صفوة الصفوة من قريش جيرة الحرم المكى .

غير مستبعد أن يربط المكيون بين الذبيحين وأن يحتفلوا بعرس عبد الله من آمنة بنت وهب القرشية الزهرية إثر الفداء فيتوقع له ذوو الحس المرهف منهم أمراً جليلاً كالذى كان لجده الأعلى إسماعيل بعد الفداء . .

وغير مستغرب كذلك فى مثل هذا المناخ الدينى للبلد العتيق ، أن تهفو قلوب نساء كريمات من قريش إلى عبدالله ، ثم ينصرفن عنه زاهدات فيه بعد زواجه بالسيدة آمنة بنت وهب ، زهرة قريش .

فى ليالى العرس رأت كأن شعاعاً من النور يشع من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا حولها وسمعت هاتفاً يبشرها بأنها حملت بسيد البشر .

وحين ودعها عبد الله بعد أشهر فى رحلة قريش صيفاً إلى الشام ، كان لها من رؤياها مايؤنس وحشة فراق لم يدر العروسان أنه فراق لا لقاء بعده فى

هذه الدنيا ، ولا خطر لها على بال أنها رحلة بغير مآب . .

فى طريق الإياب ألمت بعبد الله وعكة طارئة فتخلف عن قافلة قريش ، عند أخوال أبيه بنى النجار بيثرب ريثما يسترد صحته وعافيته فلم يلبث إلا قليلاً حتى غاله الموت ودفن هنالك فى ثرى يثرب ، لم يقبل القضاء فيه هذه المرة أى فداء .

ولبست مكة ثوب الحداد على زين الشباب الهاشمى الذى احتفلت قبل أشهر بفدائه وعرسه ، وترملت زهرة قريش وفى كفيها خضاب العرس ، وخيف عليها من وطأة الحزن حتى أحست خفقة جنين فى رحمها فأشرق وجهها بنور الإلهام وكأنها عرفت جواب ما طالما تساءلت عنه : عبد الله لم يفتد من الذبح عبثاً وفى المهلة ما بين فدائه وموته أودع عروسه هذا الجنين الطيب الذى يعطى حادث الفداء تفسيره ومنطقه ويجعل لحياتها بعد عبد الله قيمة ومعنى .

وآنستها الرؤى والهواتف حتى استكملت شهور حملها ووضعت وليدها فجر ليلة مقمرة من شهر ربيع الأنور عام الفيل ، فبوركت الليلة الغراء بمولده ، وخلدت على الأيام نشيداً فى وجدان الأمة وفى سمع الزمان . .

وفى ذلك قال شوقى أمير شعرائنا :

ولـد الهـدى فالكائنـات ضـيـاء
وفـم الزمـان تبسـم وثـنـاء

الـروح والمـلأ الملائـك حوله
للـدين والدنيـا بـه بشـراء[19]

---

(١٩) صحيفة الأهـــرام فى ١٩٨٩/١٠/١٢

قَــــابِلَتُه :

وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنها ـ هى قابلته فقد ورد عنها أنها قالت : لما ولدت آمنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقع على يدى فاستهل فسمعت قائلاً يقول : يرحمك الله تعالى وفى هذا يقول شوقى :

شـــمتته الأمـــلاك إذ وضـــعته وشـــفتنا بقولهـــا الشفاء [٢٠]

والتشميت أن يقال للعاطس : يرحمك الله . .

وروى الحلبى فى سيرته أن أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : رأيت ثلاثة أعلام مضروبات . . علما بالمشرق وعلما بالمغرب وعلما على ظهر الكعبة ـ أى عند ولادته . .

وكان من عادتهم أن المولود إذا ولد ليلاً ، كفأوا فوقه جفنة حتى يصبح الصباح ، ففعلوا ذلك مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أصبحوا وجدوا الجفنة قد انفلقت فلقتين وعيناه إلى السماء فتعجبوا من ذلك . .

وصرخ إبليس عند مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صرخة منكرة ، ذلك أنه حين رأى تساقط النجوم أنكر ذلك ، وقال لجنوده : لقد ولد الليلة مولود يغيِّر علينا أمرنا ـ فقال له جنوده : لو ذهبت إليه فخبلته ، فلما دنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث الله جبريل ـ عليه السلام ـ فركضه برجله ركضة أوقعته بعدن . .

---

(٢٠) الشفاء : إما بكسر الشين ، أو بفتحها مع تشديد الفاء

وقد نظم بعضهم الخوارق التي صاحبت مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أبيات منها :

لمولده إيوان كسرى تشققت	مبانيه وانحطت عليه شئونه
لمولده نيران فارس أخمدت	فنورهم اخماده كان حينه [٢١]

تسميته :

ولم تكن تسمية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اجتهاداً من أمه أو جده ، ولكن أمه أمرت في المنام بتسميته وهو مكتوب في الأزل بذلك الاسم « محمد » .. بدليل أن آدم حين رفع رأسه إلى العرش وجد مكتوباً على ساقه : لاإله إلا الله محمد رسول الله .. واستشفع كما أخبر بعض الرواة ، بصاحب هذا الاسم إلى الله ليغفر ذنبه .. فقبل الله توبته ..

وقد ذكر القرآن الكريم أن عيسى ـ عليه السلام ـ أخبر أمته باسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال فيما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [٢٢]

وواضح أن اسم محمد مشتق من الحمد ، فهو على وزن مُفَعَّل ـ بتشديد العين المفتوحة فمحمد وأحمد بمعنى واحد واشتقاقهما من مصدر واحد .

والذي ينسب هذه التسمية إلى عبد المطلب يذكر لذلك سبباً ، فقد قال القرشيون لعبد المطلب : ما سميت ابنك ؟ قال : سميته محمداً ..

قالوا : ما هذا في أسماء آبائك ..

قال : أردت أن يحمد في السموات والأرض ..

---

(٢١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٩

(٢٢) الصف ٦

وهذه فراسة صادقة من الجد تفرسها فى حفيده الذى احتفى به وأحبه وقدمه على سائر ولده .. فقد رأى فيه صورة أبيه الذى كان أثيراً لديه، وافتقده فى غيبة عنه وهو قريب عهد بعرسه، التى ما كادت تفرح بزواجه منها حتى أتاها نعيه، وفى أحشائها جنين منه كان يرتقب رؤية والده ..

ولم يكن هذا الاسم رائجاً فى الجاهلية، وإن تسمى به بعضهم لرجاء أن يكون هو النبى المنتظر لأنه قد ورد فى أخبار أهل الكتاب التى راجت على ألسنة الأحبار والكهان أن نبى آخر الزمان سوف يكون اسمه محمداً ..

فطمع أصحاب الطموح أن يكون ابن كل منهم الذى سماه بهذا الاسم هو ذلك النبى ..

وما دروا أن النبوة لا تمنح بالتسمية، ولكنها هبة تعرف موضعها، والله أعلم حيث يجعل رسالته .. وللنبى - صلى الله عليه وسلم - أسماء أخرى وردت بها الأخبار ..

فقد روى أحمد فى مسنده عن حذيفة - رضى الله عنه - قال : بينما أنا أمشى فى طريق المدينة إذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى، فسمعته يقول : أنا محمد، وأنا أحمد، ونبى الرحمة ونبى التوبة، ونبى الملاحم ..

وروى كذلك مالك والترمذى والنسائى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : إن لى أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر وأنا الماحى الذى يمحى بى الكفر وأنا العاقب ..

ومعنى العاقب الذى لا يعقبه نبى ..

والعَلَمُ من هذه الأسماء هو محمد وأحمد ، أما بقية الأسماء الواردة فى هذا الخبر فهى صفات له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا غلبت الصفة أصبحت علماً . . كما غلبت عليه صفة الصادق والأمين والمصطفى وغيرها من الصفات التى إذا أطلقت كان هو المعنىُ الوحيد المقصود بها .

ومحمد وأحمد أيضاً منقولان عن صفة الحمد ، ولكن سمى بهما ابتداء وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسماء أخرى . . منها طه ، ويس وتبرك الناس بها فسموا أبناءهم بها كما سموا محمداً وأحمد ومصطفى . .
ورد فى تفسير القرطبى ، قال سعيد بن جبير : إن يس اسم من أسماء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودليله ، قوله ـ تعالى ـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ ﴾ (٢٣)

واستشهد على ذلك بقول السيد الحميرى :

يانفس لا تمحضى بالنفس جاهدة   على المودة إلا آل يس (٢٤)

وأورد القرطبى أيضاً فى تفسير سورة طه : طه اسم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماه الله ـ تعالى ـ به كما سماه محمداً . .

وروى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : لى عند ربى عشرة أسماء . . فذكر أن فيها طه ويس
وقال أيضاً : ذكر الماوردى عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت

---

(٢٣) يس من ١ ـ ٣
(٢٤) تفسير القرطبى ـ سورة يس ـ

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الله تعالى أسمانى فى القرآن سبعة أسماء : محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله . .

كـــنيته :

أما كنيته فهى أبو القاسم . .

وقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجمع الانسان بين اسمه وكنيته ، فقال فيما رواه ابن سعد فى طبقاته ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : سَمُّوا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى . .

وكثير من الصحابة سموا أبناءهم باسم محمد ، بل إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمى بعض أبناء أصحابه باسمه . .

روى ابن الأثير فى ترجمة محمد بن أنس بن فضالة الأنصارى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة ـ ومحمد ابن أسبوعين ـ فأتى به إليه فمسح رأسه ودعا له بالبركة وقال : سموه باسمى ولا تكنوه بكنيتى [٢٥]

وذكر برهان الدين الحلبى فى السيرة الحلبية : لا يخفى أن جميع أسمائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشتقة من صفات توجب له المدح والكمال .

وذكر تعليلاً لاختيار عبد المطلب اسم محمد لحفيده ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

عن أبى نعيم قال : قال عبدالمطلب : بينما أنا نائم فى الحجر إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديداً فأتيت كاهنة قريش ، فلما نظرت إلىَّ عرفت فى وجهى التغير .

---

(٢٥) أسد الغابة جـ ٥ ص ٨٠

فقالت : ما بال سيدهم قد أتى متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء ؟

فقلت لها : بلى ، إنى رأيت الليلة وأنا نائم فى الحِجْر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نوراً أزهر منها ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها ، وهى تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ، ويقلع عيونهم .

فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً فلم أنله ، فانتبهت مذعوراً فزعاً .

قال عبد المطلب : فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك من يملك المشرق والمغرب ، وتدين له الناس .

وعند ذلك قال عبد المطلب لأبى طالب ابنه : لعلك أن تكون هذا المولود .

فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعدما ولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول كانت الشجرة هى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أجل لقد كانت الشجرة محمداً ، وأبو طالب هو الذى كان فى حياته يذب الناس عنها حين أرادوا التخلص منها ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما نالت منى قريش مانالت حتى مات أبو طالب .

لقد كان عبد المطلب موفقاً فى اختيار الاسم الذى سمى الله به نبيه منذ الأزل ، وهو من سوابق الإلهام التى لا تتاح إلا لمن وفقه الله ومنحه الفراسة والذكاء ونقاء الفطرة .

وكانت الحكمة فى التسمية مطابقة لما قاله الشاعر الحكيم :

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

حكمة يُتْمِ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ومن المعروف أن عبد الله والد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات بالمدينة قبل أن يولد ابنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يقدر له أن يرى هذه الدرة اليتيمة التى أشرق الكون بطلعتها وسعدت الإنسانية بغرتها . .

ولم تلبث أمه أن ماتت بعد وضعه بقليل . . ثم مات بعدها جده عبد المطلب . .

وفى يُتْمِ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكمة بالغة ، فقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة ، لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى ادخال الريبة فى القلوب أو إيهام الناس بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بها بعد ذلك بإرشاد وتوجيه من أبيه أو جده ولم لا ؟ وقد كان جده عبد المطلب صدراً فى قومه ، فلقد كانت له الرفادة والسقاية .

ومن الطبيعي أن يربي الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه . ذا الميراث . .

فشاءت حكمة الله - عز وجل - أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى مثل هذه الريبة أو ذلك الادعاء .

فنشأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده ، وحتى فترة طفولته الأولى أراد الله أن يقضيها في بادية بني سعد بعيداً عن أسرته كلها ، ولما توفى جده وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذى امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً ، كان من نور الحكمة أن عمه لم يعلن إسلامه حتى لا يتوهم متوهم أن لعمه دخلاً في دعوته وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب .

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاه عناية الله وحدها بعيداً عن الذراع التى تمعن فى تدليله ، والمال الذى يزيد فى تنعيمه ، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة ،فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا [٢٦]

لقد رباه الله على عينه ، وقد أخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه قائلاً : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾ [٢٧]

---

(٢٦) فقه السيرة محمد رمضان البوطى ص ٥٠

(٢٧) الضحى ٦

وقد جاءت هذه الآية فى معرض المنة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ورد فى نهاية تلك السورة :

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ (٢٨)

وأى نعمة أجل من أن يكون الانسان قد رباه ربه وأدبه ؟

ولقد قال الله لحبيبه :

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ ﴾ (٢٩)

ولم تكن تلك العناية الربانية مصاحبة لولادته ، بل سبقتها قبل ذلك بكثير ، سبقتها عبر الأجيال والعصور وعلى تعاقب الأيام والدهور . . وقد أخبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝٢١٩ ﴾ (٣٠)

احتفال المسلمين بالمولد الشريف :

وقد جرت عادة المسلمين بالاحتفال بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شهر ربيع الأول من كل عام ، واختلف العلماء حول مشروعية هذا الاحتفال .

ولا ينبغى الاختلاف حول ذلك فإنه ليس من القضايا التى يجب أن يهتم بها المسلمون فى حاضرهم ومستقبلهم ، وأمامهم من الأحداث الجسام مايجب أن يشغلوا أنفسهم به ، وهؤلاء هم الأعداء يتربصون بهم من

---

(٢٨) الضحى ١١

(٢٩) الطور ٤٨

(٣٠) الشعراء ٢١٨ ، ٢١٩

حولهم ، ويحاولون تعويقهم عن قصدهم والحيلولة بينهم وبين النهوض حتى لا ينطلقوا فى طريق التقدم والنهضة التى جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقيم معالمها ويؤسس بنيانها ويأخذ بيد المسلمين اليها ، ولم يتركهم إلا بعد أن أوضح لهم الطريق ووضع لهم المنهج وهيأ لهم السبل الكفيلة بعزتهم وكرامتهم .

ولا يستطيع أحد أن يقول : إن الاحتفال بالمولد سنة فى ليلة مخصوصة : ولكن الاحتفال به يجب أن يكون قائماً فى كل نفس فى كل وقت ويكون ذلك بتذكره والصلاة عليه واحياء سنته والسير على منهجه .. هكذا يكون تكريمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاحتفال به .. وهذا ما كان عليه السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ

إلا أن العادة جرت فى بعض الأقطار الإسلامية باستقبال شهر ربيع الأول الذى ولد فيه المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالابتهاج والفرح ، ويزداد فرح المسلمين بهذه المناسبة الكريمة فى تلك الليلة التى ذكر أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ولد فيها وحق للمسلمين أن يفرحوا بذكرى ميلاد نبيهم ، على أن يكون فرحهم على المستوى اللائق بتلك الذكرى الكريمة العزيزة .. وذلك بأن يكثروا من الصلاة على نبيهم وأن يقيموا سنته وأن يتعاهدوا على السير على منهجه وأن يدعو بعضهم بعضاً إلى اتباع النهج الصحيح للدين القويم والابتعاد عن البدع والخرافات ..

فإذا اجتمع قوم يتذاكرون سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستمعون إلى قصة مولده الشريف ، ويتذاكرون سنته الحسنة ، ويطعمون

الطعام ويدخلون السرور على قلوب الفقراء فلا بأس فى ذلك ، لما فى هذه الاجتماعات من فرصة طيبة يلتمسها الدعاة والعلماء للتذكير بأخلاق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفاته وآدابه وأحواله وعبادته ومعاملته ، ليثيروا أذهان الناس إليها ويذكّروهم بها علهم يقتدون بها ويسيرون على نهجها .

وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يذكر يوم مولده ، ويكثر من شكر الله ـ تعالى ـ فيه على نعمته الكبرى عليه وتفضله عليه بالوجود لهذا الوجود . . إذ سعد به كل موجود ، وكان يعبر عن ذلك الفضل بالصيام .

روى أبو قتادة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن صوم يوم الإثنين فقال : « فيه ولدت وفيه أنزل علىَّ »[31]

الفرح بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطلوب بأمر القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[32]

فالله ـ تعالى ـ أمرنا أن نفرح بالرحمة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم الرحمة قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[33]

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التى مضت وانقضت ، فإذا جاء الزمان الذى وقعت فيه كان

---

(٣١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه باب الصيام

(٣٢) يونس ٥٨

(٣٣) الأنبياء ١٠٧

فرصة لتذكرها وتعظيم يومها لأجلها ، وقد أقر ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القاعدة بنفسه ، وذلك أنه حين وصل إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسأل عن ذلك فقيل له : إنهم يصومونه لأن الله نجى فيه موسى عليه السلام وأغرق عدوهم فهم يصومونه شكراً لله على هذه النعمة فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه (٣٤)

إن إحياء الذكرى يبعث على الإكثار من الصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا أمر مطلوب شرعاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٥)

وقد روى فى البخارى أنه يخفف عن أبى لهب العذاب كل يوم اثنين ، بسبب عتقه لجاريته لما بشرته بولادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٣٦)

وقد قال الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقى فى هذا المعنى :

اذا كان هذا كافراً جاء ذمه ... بتبت يداه فى الجحيم مخلداً
أتى أنه فى يوم الاثنين دائماً ... يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذى كان عمره ... بأحمد مسروراً ومات موحداً

قال تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٣٨)

---

(٣٤) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود ـ أحاديث الصيام د . الحسينى هاشم ص ٦٥

(٣٥) الأحزاب ٥٦

(٣٦) البخارى كتاب النكاح ، ونقلها الحافظ ابن حجر فى الفتح

(٣٧) المولد النبوى الشريف لمحمد بن علوى المالكى ص ٨ ورواها عبد الرازق فى المصنف جـ ٧ ص ٤٧٨ وابن كثير فى سيرته من البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٢٤ وغيرهما . .

(٣٨) هود ١٢٠

تشير هذه الآية الى الحكمة من قص قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، والمسلمون أولى بذلك فى الاستماع إلى قصة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وما قام به من جهاد وكفاح فى سبيل دعوة الاسلام التى أرسله الله بها ، لعلهم بها يهتدون وعلى نهجها يسيرون حتى يعود لهم مجدهم القديم وشأنهم القويم .

إن من واجبنا أن نقتدى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وبالسلف الصالح من أصحابه وتابعيه .. فما فعلوه وتواصوا به فهو مشروع ، وما أنكروه فهو مذموم ..

أما ما يستجد من أمور وأحداث لم تكن فى عصرهم ، وليس لهم فيها حكم سابق فيجب أن يعرض كل أمر من ذلك على أدلة الشرع ، فما اشتمل على مصلحة فهو واجب أو على محرم فهو محرم ، أو على مكروه فهو مكروه ، أو على مباح فهو مباح ، أو على مندوب فهو مندوب .

قال الامام الشافعى - رضى اله عنه - : ماأحدث وخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعة الضالة ، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو المحمود ..

وقال عليه الصلاة والسلام : من سن سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء [٣٩]

---

(٣٩) أورده الطبرانى فى الكبير عن واثلة ورجاله موثقون ، ولفظه : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر ما عمل بها حياته وبعد مماته حتى يترك ، ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها حتى تترك ، ومن مات مرابطاً فى سبيل الله جرى له أجر المرابط حتى يبعث يوم القيامة .

وروى عن أبى هريرة ورجاله رجال الصحيح بلفظ : من سن خيراً فاستن به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استن به غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن استن شراً فاستن به كان عليه وزره كاملاً ومن أوزار الذين استنوا به لاينقص من أوزارهم شيء - الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور للحافظ المناوى جـ٣ ص ٩

وقد ورد فى بعض الآثار عن ابن مسعود : مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، ومارآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح [٤٠]

ومما يدل على أنه ليست كل بدعة سيئة قول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى اجتماع الناس لصلاة التراويح : نعمت البدعة .

وهذا لا ينافى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياكم ومحدثات الأمور . . لأن هذا القول عام أريد به خاص . . أى مما خالف الكتاب والسنة . . وعلى ذلك فإن إحياء ذكرى ميلاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالطريقة الحسنة التى ذكرناها والتى تتفق وجلال تلك الذكرى عمل حسن لا يخالف الكتاب ولا السنة . قال تعالى : « **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** » .

رضاعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال ابن الأثير : ثويبة جارية أبى لهب ـ وهى التى أعتقها فرحاً بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرضعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد اختلف فى إسلامها . . . وكان رضاعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها أمراً عارضاً . .

وبمناسبة إعتاق أبى لهب لثويبة نذكر هذا الحديث الذى رواه العباس ـ رضى الله عنه ـ مكثت حولاً بعد موت أبى لهب لا أراه فى نوم ، ثم رأيته فى شر حال ، فقلت له : ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم أذق بعدكم رخاء . . غير أنى سقيت فى هذه ـ وأشار إلى النقرة التى بين السبابة والإبهام ـ بإعتاقى ثويبة . .

---

(٤٠) أخرجه الإمام أحمد

وفى رواية : رؤى أبو لهب بعد موته فى النوم : فقيل له : ماحالك ؟ فقال : : فى النار إلا أنه يخفف عنى كل ليلة اثنين ، وأمص من بين أصبعىّ هاتين مساء ، وأشار برأس إصبعيه ، وأن ذلك بإعتاقى لثويبة عندما بشرتنى بولادة النبى - صلى الله عليه وسلم - وبإرضاعها له [٤١]

وأرضعت ثويبة كذلك حمزة بن عبد المطلب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهما أخوان من الرضاع .

وأرضعته كذلك ثلاث نسوة من بنى سليم ، وهؤلاء النسوة كل واحدة منهن اسمها عاتكة ، ولذلك قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : أنا ابن العواتك من سليم . .

قصـــة حليمة :

والتُمِسَت له المراضع . . فأرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد بن بكر ، وكان زوجها هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة من سعد بن بكر بن هوازن .

وكان لها أولاد هم . . عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وخذامة بنت الحارث التى يقال لها الشيماء . . وهم إخوة النبى - صلى الله عليه وسلم - من الرضاع . . وكانت الشيماء تكبره ولذلك كانت حاضنة له مع أمها . .

---

(٤١) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٣٨

ويقص ابن هشام قصة حليمة قائلاً :

كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي أرضعته تُحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً .

قالت : فخرجت على أتان لي قمراء [٤٢] ، معنا شارف لنا [٤٣] والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا وذلك من بكائه من الجوع ، مافي ثديي ما يغنيه ومافي شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك ، وقد أدمت بالركب [٤٤] حتى شق عليهم ذلك ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فمامنا إمرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ، وماعسى أن تصنع أمه وجده فكنا نعرض عنه لذلك .

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . .

قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . .

قالت : فذهبت إليه وأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره . .

---

(٤٢) قمراء : بيضاء فيها كدرة

(٤٣) ناقة مسنة

(٤٤) أدمت بالركب أي حبستهم ، ويروى أذمت ـ بالذال المعجمة ـ من الذم أي كأن الأتان جاءت بما تذم عليه .

ويذكر ابن سعد روايا عن محمد بن عمر أن آمنة بنت وهب لما خرجت حليمة بابنها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت :

أعيذه بالله ذي الجلال ... من شر ما مر على الجبال
حتى أراه حامل الحلال ... ويفعل العرف إلى الموالى
وغيرهم من حشوة الرجال [٤٥]

وقد صدقت فراسة آمنة فى ابنها ، فما أخذ أحد بيد الموالى كما أخذ وما أسدى أحد إليهم معروفاً كما أسدى إليهم ، فقد انتشلهم من وهدة الاستضعاف والاسترقاق حتى وضعهم بين صفوف السادة والعظماء .

هذا إذا كان الموالى بمعنى الأرقاء ، أما إذا كان بمعنى الموالين فقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً أعلى فى الوفاء والإحسان وإسداء المعروف للقريب والغريب على السواء . .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما فيهما من لبن فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما . .

وقام زوجى إلى شارفنا [٤٦] تلك فإذا ضرعها حافل ، فحلب ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعاً فبتنا بخير . .

قالت : يقول زوجى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

---

(٤٥) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧٠
(٤٦) أى ناقتنا المسنة

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معى ، فوالله لقد أسرعت بالركب ، مايقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يابنة أبي ذؤيب ، ويحك ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهى هى .

فيقلن لى : والله إن لها لشأنا . .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً حفلاً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ماتبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً حفلاً ، فلم نزل نرى من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه ، وفصلْتُه ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً .

قالت حليمة : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنَيَّ عندى حتى يغلظ فإنى أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا . .

وفى هذه القصة أمور ينبغى الوقوف عندها . .

أما أولها فهو الاسترضاع والدافع إليه . .

وأهم هذه الدوافع عند العرب ـ أن ينشأ الطفل ـ نشأة بدوية تصحيحاً لجسمه وتقوية لبنيته وتقويماً للسانه وتعويده الفصاحة والبلاغة . .

قال السهيلى : وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل فى الأعراب ، فيكون ذلك أفصح للسانه وأجلد لجسمه وأجدر ألا يفارق الهيئة المعدية ـ نسبة إلى

معد بن عدنان ـ كما قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : اشتدوا ـ واخشوشنوا ـ وقد قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مارأيت أفصح منك يا رسول الله ، فقال : وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت فى بنى سعد ؟

قال : وذكر أن عبد الله بن مروان كان يقول : أضرَّ بنا حب الوليد ، لأن الوليد كان لحاناً ، وكان سليمان فصيحاً وسبب ذلك أن الوليد أقام مع أمه ، أما سليمان وغيره من إخوته فنشأوا فى البادية فتعربوا ، ثم أدبوا فتأدبوا ، وكان من قريش أعراب ومنهم حضر ، فالأعراب منهم بنو الأدرم وبنو محارب ، وأحسب بنى عامر بن لؤى كذلك لأنهم من أهل الظواهر وليسوا من أهل البطاح (٤٧)

ثانياً : تشير القصة إلى ما أفاء الله على حليمة من خصب ببركة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول البوطى : يدل مااتفق عليه رواة السيرة النبوية من أن الدر أصبح حافلاً فى ضرع ناقتها الكبيرة المسنة بعد أن كانت يابساً لا تتندى بقطرة لبن ـ يدل ذلك على علو شأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورفعة مرتبته عند ربه حتى عندما كان طفلاً صغيراً كغيره من الأطفال ، فقد كان من أبرز مظاهر إكرام الله له أن أكرم بسببه حليمة السعدية التى تشرفت بإرضاعه ،وليس فى ذلك غرابة ولا عجب ، فقد

---

(٤٧) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٨

علمتنا شريعتنا الإسلامية أن نستقى عند انحباس المطر ، ونصلى صلاة الاستسقاء ، وأن يدعو الصالحون من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجاء استجابة الله لدعائنا . وقد أجمع على ذلك جمهور الأئمة الفقهاء [٤٨]

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يستجيب لدعاء الصالحين من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يغاث الناس بسبب أطفال رضع وبهائم رتع ـ فأجدر برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون فى مقدمة أسباب البركة والإكرام الإلهى ذلك أنه رحمة الله إلى الناس بصريح تبيانه ـ سبحانه وتعالى - « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [٤٩]

العودة إلى مكة :

ثم حدث حادث شق الصدر المشهور الذى حدا بحليمة وزوجها أن يسرعا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العودة إلى مكة ليسلماه إلى أمه . . وكان ذلك بعد أن عادت به إلى بادية بنى سعد بفترة ليست بالطويلة .

قالت حليمة : فحملناه فقدمنا به مكة على أمه . .

وعجبت آمنة لعودة حليمة بابنها هكذا سريعاً . . فقالت لها :

لماذا عدت سريعاً وكنت حريصة على بقاء ابنى معك ؟

فقالت حليمة : لقد أديت ما علىّ وخفت عليه الأحداث فأتيت به إليك كما تحبين.ولكن آمنة لم تقتنع بكلام حليمة ، فمازالت بها حتى أخبرتها حليمة بما حدث . .

---

(٤٨) انظر فى ذلك فتح البارى جـ ٢ ص ٣٣٩ ، وسبل السلام جـ ٢ ص ١٣٤ والمغنى لابن قدامة جـ ٢ ص ٢٦٥

(٤٩) فقه السيرة ـ محمد سعيد رمضان البوطى ص ٥١

فقالت آمنة لحليمة : أفتخوفت عليه الشيطان ؟

قالت : نعم

فقالت آمنة : كلا والله ماللشيطان عليه من سبيل ، وإن لابنى هذا شأناً . .

أفلا أخبرك خبره ؟

قالت حليمة : بلى

قالت آمنة : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما شعرت بتعب فى حمله قط ، ووقع حين ولدته وانه لواضع يديه بالأرض ورافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك وانطلقى راشدة . (٥٠)

وقد ذكر الرواة أن حليمة حين قدمت إلى مكة هذه المرة لتردِ محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أمه . كانت سنه إذ ذاك أربع سنين . .

هل أدركت حليمة الإسلام ؟ :

واذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فلنشر إلى ماجاء حول إدراك حليمة الإسلام ، وقد اختلف العلماء فى ذلك .

فقد ذكرها ابن الأثير فى أسد الغابة وترجم لها ترجمة ضافية ، ومعنى ذلك أنها صحابية ومما قاله فى ترجمتها .

حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه : عبدالله بن الحارث بن شجنة بن جابر . . ينتهى نسبه إلى سعد بن بكر بن هوازن .

---

(٥٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨٧ ـ السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٥٤ ـ أسد الغابة جـ ٧

ونقله أبو عمر فى الاستيعاب هكذا ووافقه ابن أبى خيثمة ..

ثم تحدث عن قصة إرضاعها للنبى - صلى الله عليه وسلم - التى ذكرناها آنفاً .

وأضاف الخبر التالى :

أخبرنا أبو الفضل بن أبى الحسن الفقيه باسناده - وذكر سلسلة سند إلى عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان بالجِعِرَّانة [٥١] يقسم لحماً ، وأنا يومئذ غلام أحمل على البعير ، فأقبلت امرأة بدوية ، فلما دنت من النبى - صلى الله عليه وسلم - بسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته ..

وأخبر ابن الأثير أن زوجها الذى أرضعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى معه .. هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة ..

وترجم له أيضاً ابن الأثير فى كتابه ، ومما أورده فى ترجمته قوله :

قدم الحارث بن عبد العزى - أبو رسول الله - - صلى الله عليه وسلم - من الرضاعة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة ، فقالت قريش : ألا تسمع ما يقول ابنك ؟ هذا ؟

قال : مايقول ؟

قالوا : يزعم أن الله يبعث الناس بعد الموت وأن هناك داراً آخرة يعذب الله فيها من عصاه ويكرم من أطاعه ..

وقد شتت أمرنا ، وفرق جماعتنا ..

---

(٥١) الجعرانة - بكسر الجيم وتشديد الراء المفتوحة : منزل بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب

فأتاه ، فقال : أي بنى ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول : إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة أو نار؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم ، أنا أقول ذلك ، وإنه لحق ، ولسوف آخذ بيدك ياأبت وأعرفك حديثك اليوم . .

فأسلم الحارث بعد ذلك ، فحسن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم : لو قد أخذ ابنى بيدى فعرفنى ماقال لم يرسلنى حتى يدخلنى الجنة [٥٢]

وكانت حليمة قد وفدت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعثة ، وقد تزوج خديجة ـ رضى الله عنها ـ فشكت إليه حالها ، فكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خديجة فى شأنها فأعطتها أربعين شاة وبعيراً ، وانصرفت إلى أهلها [٥٣]

ونستطرد إلى ذكر قصة أخرى لعلنا لا نسبق بها الأحداث ، وهى قصة وفود أسرة حليمة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين ، لندرك كيف كان بر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأهله من الرضاعة

قال ابن سعد فى طبقاته :

بعد هزيمة هوازن يوم حنين وغنيمة المسلمين أموالهم ، جاء وفد هوازن الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسلم بالجعرانة وكان قد قسم الغنائم . .

وفى الوفد أبو ثروان عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة . .

قال :

---

(٥٢) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٠٤ ترجمة رقم ٩٢٠ وجـ ٧ ص ٦٧ ترجمة رقم ٦٨٤٨

(٥٣) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧١

يارسول الله ، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك وقد حضناك فى جوارنا ، وأرضعناك بثُديِّنا ،ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك فامنن علينا مَنَّ الله عليك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، وقد قسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغنائم ولكنه أعطاهم مما كان له وأرضاهم . .

وقدم عليه أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين ،وتحدثوا عن إسلام من وراءهم وكان رأس القوم والمتكلم فيهم أبو صرد ، فقال : يارسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالايخفى عليك ـ يارسول الله انما فى هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، وانت خير المكفولين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب من غنائمكم فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ،فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله وإنى أرد لكم ما كان لى ولبنى عبد المطلب وسأطلب لكم إلى الناس . .

فلما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الظهر قاموا فتكلموا بالذى قال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فرد عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماكان له ولبنى عبد المطلب ، ورد المهاجرون ورد الأنصار ، وسأل لهم قبائل العرب ، فاتفقوا على قول واحد بتسليمهم ماكان فى أيديهم من السبى ، إلا قوماً تمسكوا بما فى أيديهم من الغنائم فأعطاهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبلاً عوضاً عن ذلك [٥٤]

فانظر إلى رحمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبره ، وتأمل كيف كانت حروبه لا تهدف إلا إلى نشر الدين وبث اليقين ، أما عرض الدنيا ومغانمها فكانت أبعد الأشياء عن نظره ونظر المسلمين . .

وفاة أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكفالة جده له :

حين بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العمر ست سنين ، خرجت آمنة وفى صحبتها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاضنته أم أيمن ، إلى المدينة ، لهدفين ـ أحدهما : زيارة قبر زوجها والد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والآخر زيارة أخوال عبد المطلب بنى عدى بن النجار ، وتأكيد الصلة الوثيقة بين الأسرتين . .

ووصل الركب المدينة ونزل فى دار التابعة [٥٥] وأقاموا فى المدينة شهراً . . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكر ذلك ويحدث به . . فبعد الهجرة أثر عنه أنه لما نظر إلى أطم بني عدى بن النجار عرفه [٥٦] ، وقال : كنت ألعب على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى نطير طائراً كان يقع عليه ، ونظر إلى الدار وقال : ههنا نزلت أمى ، وفى هذه

---

(٥٤) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧٢

(٥٥) التابعة هو رجل من بنى عدى بن النجار ـ السيرة الحلبية جـ ١ ص ٨١

(٥٦) الأطم حصن مبنى بحجارة

الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار .

قال ابن سعد : وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون اليه ، فقالت أم أيمن :

فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامه (٥٧) وعند عودة الركب من المدينة وفي مكان اسمه « الأبواء » مرضت آمنة ، واشتد بها المرض فتوفيت ، ودفنت بهذا المكان .

فعادت به أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ حزينة كاسفة البال إلى جده عبد المطلب بعد خمسة أيام من وفاة أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وذكر السهيلي أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زار قبر أمه بالأبواء .. فبكى وأبكى

ونقل حديثاً عن القرطبي في تذكرته عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : حج بنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع فمر على المكان الذي دفنت فيه أمه وهو باك حزين فبكيت لبكائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥٨)

وفي عمرة الحديبية مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأبواء فوقف عنده وبكى المسلمون لبكائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل له في ذلك ، فقال : أدركتني رحمتها فبكيت ..

---

(٥٧) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧٣

(٥٨) الروض الأنف جـ ١ ص ١٩٤

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشراً تكاملت فيه الرحمة ، وبكاؤه على أمه ليس جزعاً ، وإنما هو من غلبة الرحمة التى امتلأ بها قلبه فشملت العالمين جميعاً . . وقد ورد عنه ، حين فاضت عيناه بالدموع على ابنه إبراهيم أنه قال : إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول مايغضب الرب . .

أما الأحاديث الواردة فى شأن سؤاله ربه أن يستغفر لأمه وأبيه أو أن الله أحيا له أبويه فأسلما . . فقد تكلم فيها من تكلم . . ونحن نترك ذلك إلى علم الله سبحانه وتعالى ومشيئته فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

وأجمل القول فى ذلك أن والديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل الفترة ، وأهل الفترة متجاوز عنهم بنص قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٥٩)

وحكمهما حكم عبد المطلب وهاشم وغيرهما ممن أثرت عنهم أفعال صالحة بالطبيعة والفطرة وحسن توجيه الله إياهم وحمايته لهم من الرجس الذى ارتكس فيه أهل الجاهلية . . وفيما سبق من حديث عن جلال هذه الأسرة المطهرة غناء عن الاستطراد فى ذلك . .

وبقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كفالة جده عامين بعد وفاة أمه . .

وآثره عبد المطلب بالحب كله والحنان . . . لقد كان يتوسم فيه خيراً ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك فيما مضى من أخبار . .

---

(٥٩) الاسراء ١٥

وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته ولا أحد من أشراف قريش إجلالاً له ، فكان بنوه وسادات قريش يحدقون به ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجىء وهو غلام جَفْر [٦٠] حتى يجلس عليه ، فيحاول أعمامه تأخيره عن الفراش ، فيقول عبد المطلب اذا رأى منهم ذلك : دعوا ابنى فوالله إن له شأناً . .

ثم يجلسه على الفراش معه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع . .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان عبد المطلب يقول : دعوا ابنى يجلس فإنه يحس من نفسه بشىء ـ أى بشرف ـ وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولا بعده . .

وحدث بعضهم أن قوماً من بنى مدلج ـ وهم من القافة الذى يعرفون الآثار والعلامات ، رأوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا لعبد المطلب احتفظ به ـ أى حافظ عليه ـ فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم التى فى المقام منه . . يعنون قدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ

وحدث بعضهم أيضاً قال : بينما عبد المطلب يوماً فى الحِجْر وعنده أسقف نجران ، يحادثه ويقول له : إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل ، وهذا البلد مولده ، ومن صفته كذا وكذا ، فأتى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر إليه الأسقف . . . إلى عينيه وإلى ظهره وإلى

---

(٦٠) جفر : قوى

قدمه ، وقال : هو هذا . . ثم سأل عبد المطلب ماهذا منك ؟ أي ما علاقة هذا بك ؟

قال عبد المطلب : هذا ابني . قال الأسقف : ما نجد أباه حياً . .
قال : هو ابن ابني ، وقد مات أبوه وأمه حامل به
قال : صدقت . .
فقال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا بابن أخيكم ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟

وقالت أم أيمن : كنت أحضن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغفلت عنه يوماً ، فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسي ، يقول : يابركة ، قلت : لبيك
قال : أتدرين أين وجدت ابني ؟
قلت : لا أدري

قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، لا تغفلي عن ابني فإن أهل الكتاب ومنهم سيف بن ذي يزن يزعمون أنه نبي هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم .
فقد كان عبد المطلب إذن يرقب في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالا يرقبه غيره ويرى أن هناك أمراً عظيماً ينتظره ولذلك اشتد تعلقه به وحبه له ، وإيثاره إياه . .
فكان لا يؤتى عبد المطلب بطعام إلا أجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنبه ، وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب طعامه . .

وفاة عبد المطلب وانتقال كفالة محمد إلى عمه أبي طالب :

ولكن هذا العطف الأبوى الكريم من عبد المطلب لم يستمر طويلاً فلم تمض سنتان على كفالة عبد المطلب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاة أمه ، حتى مات عبد المطلب

وكان عبد المطلب قد ناهز التسعين حين توفى ، بل قال بعضهم إنه أوفى على مائة وعشرين عاماً وبكى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جده حين مات . .

لقد تواصلت أحزانه . . فما تكاد تجف دموعه على غال حتى تتجدد على غال غيره . .

وهى حكمة عالية ، لأن الله أراد أن يضرب به المثل الأعلى فى الصبر ليكون قدوة لأمته . .

فما من محنة تعرض لها أحد من الناس إلا وكان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تعرض لها ، واليُتْم أقسى ما يتعرض له الصغير ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنا وكافل اليتيم فى الجنة ـ وأوصاه ربه باليتيم قائلاً له :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾ (٦١)

بعد أن ذكره بحاله ونعمته عليه فقال له :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ (٦٢)

---

(٦١) الضحى ٩

(٦٢) الضحى ٦

قالت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبكى خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنين ، ودفن بالحجون . .

ولكن عبد المطلب لم يفارق الدنيا حتى أوصى أبا طالب بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأحب أبو طالب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حباً شديداً وأحبه النبى كذلك ، وتعلق به حتى ما يكاد يفارقه . .

وحصلت بركة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى طالب حين ضمه إليه . . فقد كان أبو طالب مقلاً من المال كثير العيال . . فكانوا إذا اجتمعوا على طعام ومعهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسوا بالشبع وبقى من الطعام الكثير . .

فإذا لم يكن معهم نفد الطعام قبل أن يشبعوا ولو كان كثيراً . . ولذلك كان لا يجعلهم يقتربون من طعام حتى يأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأكل معهم فإن كان لبناً ناول أبو طالب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإناء ليشرب أولاً ، ثم يتناوله أهله بعده فيرتوون جميعاً ، ويبقى فى الإناء بقية ، ولذلك كان أبو طالب يقول للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك لمبارك .

سفره مع أبى طالب للتجارة :

وازداد تعلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأبى طالب حتى إذا هم أبو طالب بالخروج إلى الشام فى تجارة تعلق به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وبكى .. فرحمه أبو طالب واصطحبه معه وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى أبداً ..

ومن هنا بدأ بصر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتجارة ..
ومن قبلها كان يرعى الغنم ، ولأمر ما كان الله يوجه أنبياءه لرعى الغنم ..

وقد ورد فى ذلك أثر : ما من نبى إلا ورعى الغنم ..
وفى ذلك تعليم لهم وتدريب على سياسة النفوس وكيفية معاملة الناس ، والتمرين على تحمل المشاق وتعود الصبر والشفقة والحلم واليقظة .
وربما كان فى حال الناس وجهلهم وغفلتهم عن الحق وتفرقهم فى الباطل وجه شبه بينهم وبين البهم التى دأبها التفرق والنفور والاستعصاء على الجماعة ، والتأبى على الانقياد والاستجابة ..

فالراعى الحكيم هو الذى يستطيع بحكمته وصبره وحسن حيلته وسياسته التحكم فى أمرها وجمع شتاتها وتعهد ضعيفها حتى يقوى ، ومشاكسها حتى يألف ، وعاصيها حتى ينقاد ، ومريضها حتى يشفى وحمايتها من الذئب إن اعتدى ومن الوحش إذا افترس ، ومن النفور إذا نفرت ..

حدث الإمام أحمد فى كتابه الفتح الربانى عن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلنا له : أكنت ترعى الغنم يارسول الله ؟ قال : نعم ، وهل من نبى إلا وقد رعاها ؟

وأخرج عن أبي سعيد الخدرى ـ رضي الله عنه ـ قال : افتخر أهل الإبل والغنم عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفخر والخيلاء فى أهل الإبل والسكينة والوقار فى أهل الغنم

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بعث موسى ـ عليه السلام ـ وهو يرعى غنماً على أهله ، وبعثت أنا وأنا أرعى غنماً لأهلى . .

وقد مر بنا أنه كان يرعى الغنم مبكراً . .

فقد رعاها فى بادية بنى سعد وهو يرضع عند حليمة . . وشب هناك ، وكان يرعى مع أخيه من الرضاع . .

فلما كبر . . اتجه إلى التجارة ، وأول رحلة تجارية اشترك فيها كانت مع عمه أبي طالب . .

وفى هذه الرحلة رآه بحيرى ـ راهب الشام ـ اطلع من صومعته حين بلغ الركب بصرى فرأى غمامة تظل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستضاف الركب وصنع لهم طعاماً ، وسأل أبا طالب عن الغلام الذى كانت الغمامة تظله ، وعرف منه أنه ابن أخيه ، فقرب بحيرى الغلام إليه وسأله عن أشياء أدرك من إجابته عليها أنه هو النبى المنتظر ، وازداد تثبتاً من ذلك حين رأى خاتم النبوة على ظهره بين كتفيه . .

عند ذلك نصح بحيرى أبا طالب قائلاً له : عد بابن أخيك واحذر عليه يهود فإنهم قوم حسد لو رأوه لقتلوه . .

وقد ذكر الرواة هذه القصة مفصلة ، وقد سبق أن أشرنا إليها فى دلائل النبوة . .

ويروى ابن الأثير أن بحيرى آمن بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر له ترجمة فى كتابه : أسد الغابة . .

ولكنه يذكر ـ راوياً عن ابن عباس ـ أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ صحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبى ابن عشرين ، وهما يريدان الشام فى تجارة حتى إذا نزلوا منزلاً فيه سدرة ، قعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب اسمه بحيرى يسأله عن شيء ، فقال له : من الرجل الذى فى ظل السدرة ؟

فقال له : ذلك محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، فقال بحيرى : هذا والله لنبى ، ما استظل تحت هذه الشجرة بعد عيسي بن مريم إلا محمد [٦٣]

فوقع فى قلب أبى بكر الصديق اليقين والتصديق ، فلما نبىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أول من اتبعه . .

ولعل هذه رحلة أخرى غير الرحلة السابقة كما أشار الى ذلك الحافظ ابن حجر ـ [٦٤]

فقد كانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الرحلة الأولى اثنتى عشرة سنة . .

وبعدها رحلة أخرى وكان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها ميسرة غلام خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج متاجراً لخديجة فى مال لها حين وصفت لها أمانته وعفته . .

فعاد وقد ربح وأضعف . .

وفى رحلة التجارة لخديجة ، التى كان معه فيها ميسرة رآه الراهب نسطورا الذى تفرس فيه كما تفرس فيه بحيرى قبل ذلك . . وأدرك من

---

(٦٣) أسد الغابة جـ ١ ص ١٩٩

(٦٤) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٩٨

العلامات التى رآها تصاحبه وتلازمه أنه نبى هذه الأمة المنتظر . .

وقد رأى ميسرة من أخلاق النبى - صلى الله عليه وسلم - الشريفة ومعاملته الحسنة ما جعله يدرك أنه نسيج وحده وأنه مفطور على غير ما تعود عليه الناس من أخلاق ومعاملات وزاده ارتفاعاً فى نظره واكباراً فى قلبه مالحظه من خوارق صاحبته كتظليل الغمام له وإيراق الأشجار اليابسة فوقه وشفاء العليل على يديه وتيسير الأمور أمامه . . فعرف أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ملحوظ بعناية الله وممدود بقوة إلهية ، لاتتاح لغيره من البشر . .

فلما اقترب الركب من مكة ، تقدم النبى - صلى الله عليه وسلم - ليخبر خديجة بما حقق من ربح فى سفرته . .

وكانت خديجة مع نساء لها فى غرفة عالية تتطلع منها ، فرأت محمداً - صلى الله عليه وسلم - راكباً بعيره وفوقه غمامة تظلله من وقدة الشمس ، فلفتت أنظار من معها من النساء إلى ذلك فعجبن معها مما رأين وجاء ميسرة بعده فأخبرها بما رآه فى رحلته مع هذا الأمين من أخلاق طاهرة ومعاملة كريمة وخوارق وآيات باهرة . . ولم ينس أن يخبرها بما قاله الراهب نسطورا فى شأنه وكان كل ذلك يرفع من شأن محمد - صلى الله عليه وسلم - فى نظر خديجة - رضى الله عنها - ويزيد من رغبتها فى الزواج منه . .

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يكدح فى سبيل الرزق ، وبخاصة بعد أن أدرك أن عمه أبا طالب رقيق الحال كثير العيال ، فلم يشأ أن يصبح عالة عليه ، بل قرر أن يكون عوناً له .

ولعله بعمله بالتجارة قد أراد أن يضرب المثل الكامل للتجارة التى جعل

الله فيها تسعة أعشار الرزق ، وأراد أن يعلمهم كيف يكون التاجر الصدوق الأمين الذى قال عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة . .

إن كثيراً من المآسى والمظالم التى تحدث الآن سببها عدم الإلتزام بآداب التجارة ، فقد أصبحت أهداف التجارة اقتناص المغانم والمكاسب من أقصر طريق ، وبأى وسيلة كانت ، ولو كان الغش من بينها ، بل لقد أصبح الغش أمراً مشروعاً بل مفروضاً ، وهو أقصر الطرق إلى الثراء السريع . .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجارته كان الصادق الأمين الوفى الذى لا يلتمس الربح من أقصر طريق ، أو يحصل عليه بوسائل التدليس أو الخداع . .

وقد أثنى عليه السائب المخزومى ـ وكان شريكه فى التجارة قبل البعثة ، فقال وقد وفد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكك فنعم الشريك أنت لا تدارى ولا تمارى (٦٥)

وقد ذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أثنى على السائب ووصفه بتلك الصفة . . فقال له مرحباً بأخى وشريكى كان لا يدارى ولا يمارى (٦٦)

لقد وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبادىء للتجارة لو سار عليها التجار لسعدوا وأسعدوا ، وطيبوا أموالهم وتجارتهم من الحرام الذى يدخلها بتصرفاتهم المشبوهة وأيمانهم الكاذبة وتحاسدهم وحقدهم وأثرتهم وظلمهم . .

---

(٦٥) أسد الغابة جـ٢ ص ٢٦١

(٦٦) السيرة الحلبية جـ١ ص ٢٢٢

محمد مثل أعلى

أوصاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أولاً : الأوصاف الخِلْقية :

تنم فى كثير من الأحيان الأوصاف الجسدية عن الأوصاف الخُلُقِيَّة ، وكثيراً ما يحكم على الانسان من مظهره الخارجى على ما تبطنه نفسه من أخلاق وطباع ، وقديماً قال أحد الشعراء :

تبين لى أن القماءة ذلة وأن أعزاء الرجال طوالها

ولكن ذلك ليس حكماً قاطعاً ـ على أى حال ـ فقد يكون القصر من علامات الحكمة ، كما يكون الطول مصاحباً للطيش . .

والتوسط بينهما خير . .

وقد جمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين جمال المنظر وجمال المخبر . . كانت أوصافه الخلقية غاية فى الحسن ، كما كانت أخلاقه على ما وصفها القرآن الكريم وهو أبلغ وصف وأغناه

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٦٧)

ودعانا الى الإقتداء به فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٦٨)

---

(٦٧) القلم ٤

(٦٨) الأحزاب ٢١

ولنستعرض أولاً الأوصاف الخِلْقية التى استقرأها الرواة من مصادرها الأصلية وهى أخبار من شاهده ورآه .. وهذه خلاصتها :

« لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالطويل البائن (٦٩) ، ولا بالقصير المتردد (٧٠) ، بل كان ينسب إلى الربعة (٧١) ، إذا مشى وحده ، ومع ذلك لم يكن يماشيه أحد ممن ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : جُعِل الخير كله فى الرَّبعة .

« وأما لونه فقد كان أزهر اللون ، ولم يكن بالآدم (٧٢) »

« وأما شعره فقد كان رَجِل الشعر (٧٣) وليس بالسَّبْط ولا بالْجَعْد القطَطَ (٧٤) »

وكان إذا مشط بالمشط يأتى كأنه حُبك الرمل (٧٥) .. وأكثر الرواة أنه كان يبلغ شحمة أذنيه وربما فرق عقيقته (٧٦) فرقتين ، وكان شيبه فى الرأس واللحية سبع عشرة شعرة مازاد على ذلك .

---

(٦٩) الطول البائن : الطول المفرط

(٧٠) المتردد : المتناهى فى القصر

(٧١) الربعة : المتوسط بين الطول والقصر

(٧٢) الآدم : الأحمر ، والأزهر هو الأبيض الناصع الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة

(٧٣) رجل الشعر : ليس شديد الجعودة أو الاسترسال ـ والسبط : المسترسل بدون تجعيد والمجعد : الملتوى

(٧٤) القطط : شعر الزنج

(٧٥) أى كأنه الرمل إذا مرت به الريح تظهر فيه تعاريج

(٧٦) العقيقة : شعر الرأس

« كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن الناس وجهاً وأنورهم ، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر ، وكان يرى غضبه ورضاه فى وجهه لصفاء بشرته ، كان كما وصفه ابوبكر ـ رضى الله عنه ـ

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر رايله الظلام

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ واسع الجبهة ، أزج الحاجبين سابغهما [٧٧]

وكان أبلج [٧٨] مابين الحاجبين ، عيناه نجلاوان [٧٩]

وكان أدعج العينين أشكلهما ـ ، أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها [٨٠]

وكان أقنى العرنين ـ أى مستوى الأنف ـ وكان مفلج الأسنان ـ أى متفرقها ـ

وكان إذا افتر ـ أى ضحك ـ افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ

وكان من أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدَّين صلبهما ، ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم [٨١] ، كث اللحية [٨٢] ، يعفى لحيته ويأخذ من شاربه

---

(٧٧) أزج الحاجب : مقوسه ، والسابغ الكامل

(٧٨) أبلج : بين حاجبيه فاصل لطيف

(٧٩) نجلاوان : واسعتان

(٨٠) أدعج ، شديد سواد العين ـ أشكل : فى عينيه حمرة خفيفة وهى من علامات النبوة وأهدب الأشفار : طويلها والأشفار : الأجفان والمقصود شعر الأجفان .

(٨١) المكلثم : المدور

(٨٢) كث اللحية : كثيفها

وكان أحسن عباد الله عنقاً ، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، وما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشربٌ ذهباً - يتلألأ فى بياض الفضة وفى حمرة الذهب .

وكان - صلى الله عليه وسلم - أجود الصدر [٨٣] ، عريضه ، لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً ، كالمرآة فى استوائها ، وكالقمر فى بياضه . . .

وكان عظيم المنكبين أشعرهما ، ضخم الكراديس أى رءوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين

وكان واسع الظهر ، مابين كتفيه خاتم النبوة ، وهو مما يلى منكبه الأيمن ، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس . .

وكان عَبْل - [٨٤] الذراعين والعضدين ، طويل الزندين [٨٥] ، رَحْبَ الراحتين ، سائل [٨٦] الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار ، مسها بطيب أم لم يمسها . .

وكان معتدل الخلق فى السمن . . .

وأما مشيه - صلى الله عليه وسلم - فكان يرفع رجله من الأرض بهمة وقوة ويمشى فى تثبت وأناة ، ويميل إلى سَنَن المشى وقصده ، اى إلى قدام

---

(٨٣) أجود الصدر من الجودة : كناية عن خلوه من الحقد والغل

(٨٤) عبل : غليظ

(٨٥) الزندين : الذراعين

(٨٦) سائل الأطراف : طويل الأصابع

كالسفينة فى جريها ، ويمشي الهوينى بغير تبختر ـ والهوينى ـ تقارب الخطا ـ

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « أنا أشبه الناس بآدم ـ عليه السلام ـ وكان أبي إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشبه الناس بي خلقاً وخلقاً » (٨٧)

إن عناية صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوصفه دليل حب وإعجاب ، فقد ملك عليهم قلوبهم ، حتى إن خواطرهم تتمثله فى غياب شخصه عنه ، ولقد رُوِى أن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ وكان مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ونحل جسمه وبدا فى وجهه الحزن .

فقال له رسول الله : ياثوبان ما غيَّرَ لونك ؟

فقال : يارسول الله ، مابى ضر ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة ألا أراك هناك لأنك ستكون فى أرفع مكان أما أنا إن دخلت الجنة فسوف أكون فى منزلة أدنى من منزلتك ، وان لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً ، فأنزل الله ـ تعالى ـ قوله :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٨٨)

---

(٨٧) هذه الأوصاف من كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) ص ٢٢

(٨٨) النساء ٦٩ ، ٧٠

وقيل : إن الذى نزلت بشأنه هاتان الآيتان هو عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى الذى قال : يارسول الله ، إذا مت ومتنا كنت فى عليين لا نراك ولا نجتمع بك ، وذكر حزنه . . . فنزلتا . .

لقد أحبه أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ أكثر من أنفسهم ، وذلك ما يدعو اليه الايمان . .

« لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ونفسه التى بين جنبيه »

ومن شدة حبه كانوا يتمثلونه فى خواطرهم دائماً ، ولا تفوتهم من منظره وصفاته صغيرة ولاكبيرة ، حتى لقد وصفوه أدق وصف ـ وقد مرت بنا بعض هذه الأوصاف التى أثرت عنهم فى وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويذكر فضيلة الشيخ الشعراوى ـ عن الامام على ـ كرم الله وجهه ـ أن أحد أحبار اليهود سأله عن وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان الحبر فى يده كتاب ينظر فيه ، وكلما تحدث على ـ رضى الله عنه ـ قلّب اليهودى صفحات الكتاب ، كأنه يراجع الأوصاف التى ينطق بها . .

فقال على ـ رضى الله عنه ـ إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس بالقصير ولا بالطويل البائن ، وليس بالجعد ولا بالسبط الشعر ، أى أنه وسط بين النعومة والتجعد ، وكان أبيض الوجه مشرباً لونه بحمرة أهدب الأشفار واسع الجبين ، وكان عظيم الكفين والقدمين ، بعيد ما بين المنكبين ، أى أن كفيه وقدميه كانت ضخمة وأصابعه قوية ، وكان اذا مشى لا يسرع ولا يبطىء ، وكأنه ينزل من صبب لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله . .

أى ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يسير كانت الأرض تنحدر أمامه خشوعاً فيميل فى سيره ،

وسكت على ـ رضى الله عنه ـ فأكمل الحبر اليهودى الوصف من كتابه الذى كان معه فقال :

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عينيه حمرة ، وهو حسن اللحية ، حسن الفم ، تام الأذنين ، يقبل جميعا ويدبر جميعا .

فرد الامام على ـ رضى الله عنه ـ قائلاً : هذه والله صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الحبر : وفيه جناء ـ أى ميل للأمام .

فقال على ـ رضى الله عنه ـ : هو الذى قلت كأنه ينزل من صبب

فقال الحبر اليهودى : إن هذه الصفات فى سفر آبائى هذا ، وأشار إلى الكتاب الذى بيده . . ثم قال : ومكتوب فيه أيضاً : ونجده يبعث من حرم الله وأمنه ، وموضع بيته ، ثم يهاجر إلى حرم يحرمه هو ـ يقصد الحرم النبوى فى المدينة المنورة ـ ويكون لهذا الحرم حرمة كحرمة حرم الله.

ويستمر الحوار بين على ـ رضى الله عنه ـ والحبر اليهودى ، حتى يعلن اليهودى إسلامه [٨٩]

وقد اشتهر من بين الصحابة من أجاد وصف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بين هؤلاء هند بن أبى هالة وقد أُثر عنه فى وصفه أنه قال : كان رسول الله خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء يبدأ

---

(٨٩) انظر محمد رسول الله ـ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٢٩

من يلقاه بالسلام ، دائم الفكر ، طيب الرائحة ، لا يتكلم فى غير حاجة . .

وقد وصفته أم معبد فأبدعت فى وصفه . . قالت وهى تصفه لزوجها : « مر بنا رجل مبارك ، فقال لها : صِفيه . . قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، مُتَبَلج الوجه [٩٠] ، فى أشفاره وَطَف [٩١] ، وفى عينيه دَعَج [٩٢] ، وفى صوته صَحَل [٩٣] ، غصن بين الغصنين ، لا تشنؤه [٩٤] من طول ، ولا تقتحمه [٩٥] من قصر ، لم تعبه ثجلة [٩٦] ، ولم تزر به صعلة [٩٧] ، كأن عنقه إبريق فضة ، إذا نطق فعليه البهاء ، وإذا صمت فعليه الوقار له كلام كخرزات النظم ، أزين الناس منظراً ، وأحسنهم وجهاً . .

إن هذه الأوصاف الحسية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنبىء عن تكامل الأعضاء فيه وجمالها .

وتشعر بأن أول ما يقع بصر الإنسان عليه يدرك أنه أمام جمال مذهش لا مثيل له ، ومظهر يوحى بثقة مطلقة لاحد لها ، وهذا ما انعقد عليه اجماع من شاهدوه . .

---

(٩٠) منبلج الوجه : مشرقه
(٩١) الأشفار : الأجفان والمقصود شعرها ، والوطف : الطول
(٩٢) الدعج شدة سواد العين
(٩٣) الصحل : البحة فى الصوت
(٩٤) لاتشنؤه : لا تبغضه
(٩٥) تقتحمه : تزدريه
(٩٦) الثجلة : عظم البطن وكبرها
(٩٧) الصعلة : صغر الرأس

وقد صدق أصحابه فى مدحه ووصفه بالجمال الحسى والمعنوى . . وقد أدركوا أن جماله الحسى ينبىء عن جماله المعنوى كما قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ :

لو لم تكن فيه آيات مبينة — لكان منظره ينبيك بالخبر

أخرج الدرامى والبيهقى عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ليلة أضحيان ـ أى مقمرة مسفرة ـ فجَعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان أحسن فى عينى من القمر[98]

الأوصاف الخُلُقِية :

أما الأوصاف الخلقية فهى أعظم من أن يحاط بها ، ويكفى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال فى حقه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[99]

ومهما أكثر الواصفون فى فضله فلن يبلغوا عشر معشار هذا الوصف الربانى المعجز . .

وكل ما تحدث به كتاب السيرة والمتحدثون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو قطرة من بحر . .

ورحم الله البوصيرى فى همزيته التى كتب فى مطلعها تقريراً صادقاً عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال :

---

(٩٨) الرسول لسعيد حوًا جـ ١ ص ١٧
(٩٩) القلم ٤

كيف ترقى رقيك الأنبياء ؟ ياسماء ماطاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حال سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للناس، كما مثَّل النجوم الماء

وكان البوصيرى بارعاً فى الوصف ، اشتق براعته من حبه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتح باباً للمدائح النبوية لا يغلق أبداً ، على حد تعبير فضيلة الشيخ سيد حسن قرون ـ فى احدى مقالاته الأسبوعية الممتعة (١٠٠)

وبهذه الأخلاق العظيمة التى منحها الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ استطاع أن يؤدى رسالته التى بعث بها أجمل أداء وأكمله وأتمه . .

لقد كانت أخلاقه من مدد النبوة وفيضها ، إنها من معين الأدب الإلهى الذى أدبه ربه به ،وطبعه عليه ، فلا ترى منه إلا كل كمال . .

إنها أخلاق لم تأت نتيجة تلقين وتعليم من بشر ، فهو قد نشأ يتيم الأبوين ، وابتعد فترة طويلة من الزمن ، تقرب من ست سنوات عن محيط أسرته التى ولد فيها ، حيث كان يقيم فى بادية بنى سعد ، وهى بيئة أعرابية صرفة ، لا حظ لها من التعليم أو التثقيف .

ولكنه مع ذلك فطر منذ صغره على مكارم الأخلاق . .

لقد تربى تربية إلهية كما ربى الله موسى ـ عليه السلام ـ وقال له :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩ ﴾ (١٠١)

---

(١٠٠) صحيفة الأخبار ١٩٨٩/١٠/٦
(١٠١) طه ٣٩

وقال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٠٢)

وربما استطعت إدراك الفرق بين قوله « على عينى » وقوله « بأعيننا » إنه فرق دقيق يدل على شدة العناية بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستمع إلى الدكتور مصطفى محمود وهو يقول :

كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التى تسعى على الأرض ، وإنْ تبلغ ذاتك الكمال فى صفة واحدة فتبز فيها وتتفوق على أقرانك فهذه هى العبقرية .

قد يصل إنسان إلى غاية بعيدة فى الخطابة ..
وقد يصل إنسان إلى غاية بعيدة فى الزعامة ..
وقد يصل إنسان إلى غاية عظيمة فى الحكمة ..
وقد يصل إنسان إلى غاية عظيمة فى فنون الحرب ..
وقد يصل إنسان إلى مكانة كبرى فى القيم والمبادىء ومعرفة القوانين والتشريعات ...

أما أن يوجد بشر هو كل هؤلاء ، وأن يمنح كل صفة فيبلغ فيها المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجازبعينه ،وإذا حدث فإنه لا يفسر إلا بأنه نبوة ومدد وعون من الله الوهاب وحده .. هذا هو محمد بن عبدالله ...
وهذا هو البرهان على نبوته ..

---

(١٠٢) الطور ٤٨

فها أنت ذا أمام رجل إذا تحدث كان أبلغ البلغاء . .

وإذا نطق كان أفصح الفصحاء ، لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن حفيظة ، وإنما عن حكمة الحكيم وبصر البصير الملهم ، وهذه أحاديثه المجموعة تشهد لنا بأنها من جوامع الكلم . .

فإذا ذهب هذا المحدث الهادىء ليحارب رأينا فيه مقاتلاً فذاً ومخططاً عسكرياً من الطراز الأول . .

وإذا اختبر بالهزيمة لا يضعف ولا يتزعزع بل إنه يحول الهزيمة إلى نصر بثباته وشجاعته كما حدث فى غزوة حنين . .

وإذا غنم كان أزهد الناس فى الغنيمة . .

لقد اجتمعت فيه كمالات بلغ فى كل منها الذروة . . فهو العابد المبتهل الذى يذوب خشوعاً ويفنى حبا ، وهو المقاتل الصنديد الذى يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم ، وألوف الأبطال والفرسان يفرون أمامه كالجرذان،.وهو المخطط العبقرى الذى يرسم الخطط فيتفوق على أهل الحرفة ، وهو السياسى الحاذق الذى يحرك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر

بمهارة . . وهو المحدث الذى ينطق بجوامع الكلم ، وهو الأب والزوج والصديق ، وهو صاحب الدعوة الذى يقيم نظاماً وينشىء دولة من عدم ، من قبائل وشراذم متطرفة كانت فى معظمها لا تعرف إلا قطع الطريق والثأر والتفاخر بالأحساب والأنساب ، وهو برزخ الأسرار المكاشف بالملكوت الذى يستمع إلى الله وملائكته كما نستمع نحن بعضنا إلى بعض ، وقد بلغ بذلك القمة فى علوم الظاهر والباطن ، وهو الكريم الحليم الودود الرءوف

الصبور الباسم الهادىء القوى لا تمنعه الأعباء الجسام عن ملاطفة الطفل الوليد ، فيحمله على كتفه راكعاً وساجداً وقائماً ، ولا من ملاطفة زوجه فى حنان .. لا ينضب لعواطفه معين ، وكأنه يستمد من بحر ..

هذه الذات هى المعجزة ، واجتماع هذه الكمالات فى ذات واحدة معجزة وليست عبقرية ..

فالعبقرية هى أن تتفوق فى صفة واحدة فحسب ، أما أن تكون الذات مجمع كمالات فهنا نبوة (١٠٣)

مشاركته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما ينفع وبعده عما يضر موقفه من حرب الفجار :

الفجار ـ بكسر الفاء والجيم المفتوحة مصدر فاجر ، وهى بمعنى المفاجرة ، مثل قتال ومقاتلة من قاتل .

سميت بذلك لأنها كانت قتالاً وحرباً فى الأشهر الحرام ..

قال الجوهرى فى الصحاح : الفجار يوم من أيام العرب ، وهى أربعة أفجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان فى الجاهلية ، وكانت الدَّبَرة أى المزيمة على قيس ، وإنما سمت قريش هذه الحرب فجاراً لأنها كانت فى الأشهر الحرام ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فجرنا فسميت فجاراً ..

---

(١٠٣) محمد . د . مصطفى محمود من الفصل الأول بتصرف

والفجارات الأربعة هى : فجار بدر بن معشر ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض ..

ووقت المسعودى زمنه فقال : بين الفجار الرابع الذى اشتد فيه القتال وبين بنيان الكعبة خمس عشرة سنة .. وقد نأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه عن المشاركة فى مثل تلك الحروب التى لا جدوى منها إلا الخراب والقتل والدمار ، فلم تكن تلك الحروب دفاعاً عن مبدأ أو عقيدة ، وإنما اشتعلت لأسباب تافهة غذتها العصبية القبلية .. وكانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند حرب الفجار الأول ، على ما ذكر الرواة .. عشر سنين ، ولم يشترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القتال فى أى من هذه الحروب ، ولما ألح عليه أعمامه على أن يخرج معهم فى حرب الفجار الرابع ، وأصروا على ذلك وكانت سنه إذا ذاك تقارب العشرين ، لم يجد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدا من الخروج تحت ضغط أعمامه وإلحاحهم عليه ، وبالرغم من خروجه معهم إلا أنه لم يشترك فى القتال ، ولكنه وقف يرد النبل عن أعمامه ، أى يدفع عن أعمامه نبل خصومهم .

وقد ذكر ابن هشام سبب حرب الفجار الرابع فقال :

كان الذى هاجها أن عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب من بنى عامر بن صعصعة .

كان قد أجار لطيمة[١٠٤] للنعمان بن المنذر ..

---

(١٠٤) اللطيمة : قافلة تحمل تجارة من الثياب والعطور

فقال له البراض بن قيس من بنى كنانة [١٠٥] أتجيرها على كنانة ؟ قال عروة : نعم ، وعلى الخلق .

فخرج فيها عروة ، وخرج البرّاض يطلب غفلته ، حتى إذا كان بذى طَلَّال بالعالية غفل عروة ، فوثب عليه البراض ، فقتله فى الشهر الحرام ، وقال البراض فى ذلك :

وداهية تهم الناس قبلى ... شددت لها - بنى بكر - ضلوعى
هدمت بها بيوت بنى كلاب ... وأرضعت الموالى بالضروع
رفعت له بذى طلال كفى ... فخر يميد كالجذع الصريع

فأتى آت قريشاً ، فقال : إن البراض قد قتل عروة ، وهم فى الشهر الحرام بعكاظ ، وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم ، فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون ، على كل قبيل من الفريقين ، رئيس .

وشهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعض هذه الأيام - ولكنه لم يشترك فى القتال كما ذكرنا - أخرجه أعمامه معهم ، وقال رسول الله ﷺ : كنت أنبل على أعمامى ، أى أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها [١٠٦]

وقد ذكر السهيلى أسماء هذه الأيام فقال : يوم شمطة ، ويوم العيلاء ، وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب وهو أعظمها يوماً ، وفيه قيد حرب بن أمية

---

(١٠٥) البراض : بفتح الباء وتشديد الراء

(١٠٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٩

وسفيان وأبو سفيان أبناء أمية أنفسهم كيلا يفروا ، فسموا العنابس - ويوم الحريرة عند نخلة .. والعنابس جمع عنبسة وهو الأسد -

والسبب الذى من أجله لم يقاتل رسول الله ﷺ وإنما اكتفى بأن كان يرد النبل عن أعمامه أنها كانت حرب فجار وقد عصمه الله من القتال فيها لأنه ليس لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العليا (١٠٧)

كيف انتهت هذه الحرب :

وكان من الممكن أن تستمر هذه الحرب بين الحيين سنين طويلة كما جرت بذلك عادة الحروب فى الجاهلية ، ولكن الله قد فيض ببركة رسول الله ﷺ من يحول بينها وبين استمرارها - ذلك أن الحيين كانا قد تواعد على اللقاء فى العام المقبل ، وجاء الحيان للموعد وكان أمر قريش إلى عبدالله بن جدعان وقيل إلى حرب بن أمية ، وكان عتبة ابن أخيه ربيعة قد تربى فى كفالته بعد وفاة والده ..

وخرج عتبة سراً بدون إذن عمه ، ولما أوشك الجمعان أن يلتقيا بالسيوف .. إذا بعتبة فوق بعير بين الصفين ينادى : يامعشر مضر علام تقتتلون ؟

قالت هوازن : وماالذى تدعو اليه ؟

قال : الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفُوا عن دمائنا .

قالوا : وكيف ؟

---

(١٠٧) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٠٩

قال : ندفع لكم رهناً منا إلى أن نوفى لكم ذلك .

فقالوا : ومن لنا بذلك ؟

قال : أنا ـ وكان عمه حرب بن أمية لا يعلم بذلك كله بل فوجىء به ـ

فقالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . .

فرضيت بذلك هوازن وكنانة وقريش . .

وانتهت الحرب عند ذلك . . وحقنت الدماء . .

لقد أراد الله ألا يكون مبعث رسوله الأمين فى جو مشحون بالكره والعداء والدماء . .

فهيأ للمتحاربين من ألف بينهم وأصلح ذات بينهم . .

لقد كان خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الحرب تلبية لمؤازرته أعمامه ودفاعاً عنهم .

وكان دوره فيها قاصراً على رد السهام عنهم ، مع أنه كان فى مقدوره أن يكون له دور أكبر من ذلك ، ولكنه اكتفى بدور المدافع لأنه لم يكن راضياً عن أمثال تلك الحروب التى لا هدف من ورائها ولا جدوى منها إلا الخراب والقتل . .

وقد حفظه الله من جريرتها . .

حلف الفضول :

وكان حلف الفضول منصرف قريش من حرب الفجار ، وكانت سن النبى ﷺ اذ ذاك عشرين سنة . .

كان الفجار فى شوال ، وهذا الحلف فى ذى القعدة وكان أشرف حلف جرى فى الجاهلية . .

وأول من دعا إلى هذا الحلف الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وشقيق أبيه .

واجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى .

وتم عقده فى دار عبد الله بن جدعان . .

وكان سببه فيما رواه السهيلى أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، ولكنه حبس الحق عن صاحبه ولم يؤد له ثمن بضاعته فاستعدى الزبيدى عليه الأحلاف من بنى عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدى بن كعب ، ولكنهم أبوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، وانتهروه . .

فلما رأى الزبيدى ذلك صعد أبا قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته قائلاً :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك .

فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبدالله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام وهم قيام وتعاقدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه مابل بحر

صوفة ، وما رسا حراء وثبير مكانهما [١٠٨] ، وعلى التآسى فى المعاش .

فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه [١٠٩]

وقد سمى هذا الحلف بهذا الاسم لأسباب منها :

مايؤخذ من قول النبى ﷺ وقد شهد هذا الحلف : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا على أن ترد الفضول على أهلها وألا يعز ـ أى لا يغلب ـ ظالم مظلوماً . .

فقوله : أن ترد الفضول على أهلها . . يشير إلى سبب التسمية . . وكانوا قد تعاهدوا أن يجمعوا فضول أموالهم فينصروا منها المظلوم ويواسوا منها الضعيف . .

وهناك سبب آخر هو ما ذكره ابن قتيبة قال : كان قد سبق قريشاً إلى مثل هذا الحلف ـ جرهم ـ فى الزمن الأول ، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم ، أحدهم الفضل بن فضالة ، والثانى الفضل بن وداعة ، والثالث فضيل بن الحارث . . فلما أشبه حلف قريش هذا الحلف السابق سموه حلف الفضول ، والفضول جمع فضل وهو اسم أولئك الذين تقدم ذكرهم . .

ولهذا الحلف آثار طيبة فقد ذكر السهيلى أن رجلاً من خثعم قدم معتمراً أو حاجاً ، ومعه بنت له يقال لها القتول ، وكانت من أجمل النساء ،

---

(١٠٨) هذان التعبيران كناية عن طول الدهر

(١٠٩) الروض الانف للسهيلى جـ ٢ ص ١٥٦

فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه .

فقال الخثعمى : من ينصرنى على هذا الرجل ؟

فقيل له : عليك بحلف الفضول . .

فوقف عند الكعبة ونادى : ياالحلف الفضول . .

فإذا بهم يجيئون إليه من كل جانب ، وقد انتضوا سيوفهم وهم يقولون : جاءك الغوث ، فمالك ؟

فقص قصته ، وقال : إن نبيها ظلمنى فى ابنتى ، وانتزعها منى قسراً وغيبها عنى ، فساروا معه حتى وقفوا على باب الدار فخرج إليهم .

فقالوا له : أخرج الجارية ، ويحك ، فقد علمت من نحن . . وما تعاقدنا عليه . .

فقال : أفعل . . فأخرجها إليهم وهو يقول :

راح صحبى ولم أحى القتولا ... لم أودعهم وداعاً جميلاً

إذ أجد الفضول أن يمنعوها ... قد أرانى ، ولا أخاف الفضولا

لاتخالى أنى عشية راح الركـ ... ـب هنتم على ألا أقولا

ويمر الزمن ، وتنطوى بعض صفحاته ، فإذا بالحسين بن على - رضى الله عنه - يتعرض لظلم من الوليد بن عتبة بن أبى سفيان - والوليد يومئذ أمير المدينة .

فقال له الحسين : أحلف بالله إن لم أنصف وأعطى حقى - لآخذن سيفى ، ثم لأقومن فى مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول . .

فقال عبدالله بن الزبير : وكان عند الوليد حين قال الحسين له ذلك : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفى ثم لأقومن معه حتى يأخذ حقه أو نموت جميعاً .

فبلغت هذه المقالة المسور بن مخرمة الزهرى فقال مثل قولهما ، وبلغت عبدالرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة لم يجد بدا من إنصاف الحسين بن على وإعطائه حقه حتى رضى (١١٠)

إن اشتراك النبى ﷺ قبل بعثته فى هذا الحلف وتأييده له دليل على حبه لمكارم الأخلاق وتأييده كل عمل فيه خير للناس وانصاف للمظلوم ونصرة للحق منذ نشأته .

زواجه من خديجة :

تلك هى صفات محمد بن عبدالله رسول الانسانية ـ وسوف نفصل بعد قليل كمال صفات النبوة وتوافرها فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكننا قبل ذلك يجب أن نشير إلى أن شهرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين قومه بتلك الصفات النبيلة إلى جانب ما رأته السيدة خديجة بنت خويلد من أمانته التى لا حدود لها حين ولى لها أمر تجارتها بالإضافة إلى ماحدثها به خادمها ميسرة من أمور عظيمة رآها وشاهدها فى رحلته مع الرسول ﷺ . . كل ذلك كان الدافع لرغبة السيدة خديجة رضى الله عنها فى الزواج من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى التى رفضت كل من تقدم لها من كبار القوم وأثريائهم وذوى النفوذ والسلطان فيهم . .

---

(١١٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٥

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها كما يحدث ابن هشام عنها ـ امرأة حازمة شريفة لبيبة ، وكانت ذا مال وفير وجاه عريض . .

وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . .

تجتمع مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نسبها عند قصى بن كلاب . .

واتفق الرواة على أن خديجة بنت خويلد كانت إمرأة حازمة جلدة شريفة وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالا وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة .

وفى رواية كان يقال لها سيدة قريش وكل كبار قومها كان حريصاً على أن يتزوجها فقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل . . وعن نفيسة بنت منية قالت : أرسلتنى خديجة خفية إلى محمد ﷺ بعد أن رجع فى عيرها من الشام . .

فقلت : يامحمد ، مايمنعك أن تتزوج ؟

فقال : مابيدى ما أتزوج به .

قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟

قال : فمن هى ؟

قلت : خديجة . .

قال : وكيف لى بذلك ؟

قلت : قل بلى وأنا أفعل .

فذهبت وأخبرتها ، فأرسلت إليه أن إئت لساعة كذا وكذا . .

فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، لأن أباها كان قد توفى . .

وأخبر النبى ﷺ أعمامه برغبته فى الزواج من خديجة ، فذهب معه عمه حمزة وفى رواية ـ ولعلها أصح ـ ذهب معه عمه أبو طالب ، ولا يبعد أن يكون الاثنان قد ذهبا معه . . وخطب أبو طالب خطبة النكاح قال فيها :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، ومعدن معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته والقائمين على حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس . .

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجحه محمد شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً . . وإن كان فى المال أقل من غيره ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق اثنتى عشرة أوقية ونشاً ـ عاجله وآجله (١١١) .

وأجاب ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة ـ رضى الله عنها ـ قائلاً :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا فى الاتصال بحبكم وشرفكم ، فاشهدوا معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله وذكر المهر . .

---

(١١١) الأوقية : أربعون درهماً ، والنش : عشرون درهماً ، وقال بعضهم : كان الأواقى والنش من الذهب فيكون قيمة الصداق خمسمائة درهم ـ السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٢٦

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها . .

فقال عمها : اشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد . .

وأولم النبى ﷺ فنحر جزوراً وقيل جزورين وأطعم الناس . .

وفرحت خديجة فرحاً شديداً وأمرت جواريها أن يضربن بالدفوف ويرقصن ويغنين . ..

وليس فى رغبة خديجة فى الزواج من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنها هى التى بدأت بالعرض عن طريق نفيسة بنت منية ، أو عن طريق أُختها ـ فى رواية أخرى . . ليس فى ذلك غض من شأنها . . بل هو العقل الكامل الذى يبحث عن السعادة العاجلة والآجلة .

لقد رأت خديجة فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ علامات النبوة فحرصت على ألا يفوتها هذا الشرف ولقد عاينت بنفسها المعجزة الخارقة حين رأت الغمامة تظله من الشمس الحارقة وهو متقدم فوق بعيره صوب مكة ، فأدركت أن ذلك الشخص مرموق من السماء ، فلماذا لا تحرص على أن تكون أولى بشرف رعايته وخدمته من غيرها ؟

وذكر ابن اسحاق ـ فيما يرويه الحلبى ـ قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فىّ المسجد فاجتمعن يوماً فيه ، فجاء يهودى وقال : يا معشر نساء قريش إنه يوشك أن يظهر فى قريش نبى قرب وجوده ، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له[١١٢] فلتفعل .

---

(١١٢) تكون فراشا له : كناية عن أن تكون زوجة له .

فحصبته النساء وقبحنه وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله ، ووقع ذلك فى نفسها .

فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ، وبما قاله الراهب نسطورا ، وما رأته هى من العلامات الباهرات والأخلاق المطهرة ، والعفة والأمانة والبركة ، وماقاله لها ورقة حين حدثته بما رآه ميسرة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رحلته ـ من أنه سيكون نبى هذه الأمة . . وما سمعته من اليهودى فى ذلك العيد الذى اجتمعت فيه النساء .

تيقنت خديجة عند ذلك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو النبى المنتظر فحرصت على الزواج منه ، وفعلت ما فعلت فى سبيل الفوز بهذا الشرف ، وما أعظمه من شرف .

وإلى هذا المعنى أشار البوصيرى فى همزيته حين قال :

ورأته خديجة والتقى والزهد فيه سجية والحياء .

وأتاها أن الغمامة والسرح أظلته منها أفياء .

وأحاديث أن وعد رسول الله بالبعث حان منه الوفاء .

فدعته إلى الزواج ، وماأحسن ما يبلغ المنى الأذكياء .

كانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين تزوج من خديجة خمساً وعشرين سنة ، أما سنها هى فقد كانت أربعين سنة .

وكانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وزير صدق للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته . . آزرته ونصرته . . وضحت بمالها فى سبيل الدعوة

الإسلامية . . وكان للنبى ﷺ منها أولاده كلهم ماعدا إبراهيم الذى مات طفلاً . . وسيأتى حديث مفصل إن شاء الله عن أمهات المؤمنين .

اشتراكه فى بناء الكعبة :

كانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند بناء قريش للكعبة خمساً وثلاثين سنة . .

وكان السبب فى بنائها ـ أو بالأحرى تجديدها ـ أن سيلاً اجتاح الردم الذى وضعوه فى طريقه إليها فخرب الجدران وصدع البنيان ، وكانت الكعبة قبل ذلك قد تعرضت لحريق بسبب امرأة أوقدت بخوراً فطارت شرارة منها أمسكت بأستار الكعبة فأحرقتها . .

ففكر القرشيون فى إعادة بنائها وتجديدها . . ولكنهم ترددوا فى ذلك هيبة لها وخوفاً من نقض بناء أقامه خليل الله إبراهيم عليه السلام

وضاعف من خوفهم أن حية كانت تسكن بئراً تودع بها أموال الكعبة وهى على يمين الداخل من بابها . . ويذكر الرواة قصة وجود هذه الحية فيقولون :

لم يكن للكعبة سقف وكان الناس يلقون الحلى والمتاع كالطيب وغيره مما يهدى للكعبة فى تلك البئر فجاء رجل من جرهم وأراد أن يسرق من ذلك شيئاً فوقع على رأسه وانهارت البئر عليه فهلك . وقيل إنه سقط عليه حجر فحبسه حتى استنقذوه وأخذوا المال منه .

فبعث الله حية بيضاء ذات رأس سوداء سكنت هذه البئر ، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو أخذ شيء مما أودع فيها .. فما من أحد تحدثه نفسه بذلك إلا هجمت عليه وفتحت فاها .. فيولى الأدبار ..

ولكن حين أذن الله أن تجدد الكعبة وكانت قريش قد باتت تدبر أمرها وكيف تتم هذا الأمر الذى انتهى اليه تفكيرها وهو تجديد البناء ـ سهل الله عليهم ذلك بأن أرسل عقاباً فاختطف هذه الحية واحتملها بين مخالبه إلى حيث يعلم الله ..

فأدركت قريش أن ما عزمت عليه من أمر بناء الكعبة مؤيد من الله ، ومأذون له منه ، لأن علامة الإذن التيسير .. وأول علامات التيسير التخلص من هذه الحية المتوحشة ..

واتفقوا على أن تكون نفقات البناء من مال حلال ، ليس فيه إثم أو قطيعة رحم أو شبهة ربا أو مظلمة أحد ..

كما اتفقوا على أن يكون لكل بطن من بطون قريش ركن تقوم ببنائه .. وقد اشترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أعمامه فى تشييد الركن الذى عهد إليهم وهو ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر وهو وجه البيت ..

وجدّت قريش فى البناء حتى بلغوا موضع الركن الذى يوضع فيه الحجر الأسود . وتنازعوا فيما بينهم أيهم يكون له شرف وضع الحجر فى مكانه ..

النبى يحسم النزاع :

لقد اشتد نزاعهم حتى أوشك أن يتحول الأمر إلى صراع دموى ..

وأحضر بنو عبد الدار جفنة مملؤة بالدم وتحالفوا عليها ومعهم بنو عدى ، ومعنى ذلك أنهم تحالفوا على الموت دون وضع الحجر مكانه . . وقد سماهم العرب لذلك : لعقة الدم . .

واستمر الخلاف على أشده أياماً . .

حتى هدى الله أبا أمية بن المغيرة وهو يومئذ أسنُّ قريش ، واسمه حذيفة وهو والد أم سلمة زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بعد وهو احد أجواد قريش ، كان يلقب بزاد الراكب ـ لأنه كان يكفى من يسافر معه طعامه وشرابه ، فلا يتزود معه أحد بزاد . .

هدى الله هذا الرجل إلى أن يقول لقريش : اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب بنى شيبة . .

وارتضت قريش هذا الرأى . .

وتعلقت عيون الناس بالباب . . واحتبست أنفاسهم يرقبون مَنْ ذلك الداخل الأول الذى يكون على يديه انهاء هذا الصراع ؟

وكان أول داخل هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهلل الجميع فرحين به وهتفوا من أعماقهم قائلين : هذا الأمين وكلنا نرضاه . .

وعرض الأمر فى سرعة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يستغرق التفكير فى حل هذه المشكلة العويصة التى تحيرت فيها ألباب القوم ، وكادت الحرب تنشب بين القبائل بسببها ـ لم يستغرق تفكير محمد

الأمين فيها لحظات ..

فسرعان ما قال على الفور :

هلم ثوبا .. فأتى به ..

فبسطه ، وتناول الحجر بيده الشريفة ووضعه على الثوب ، وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء .. وهى أربعة أطراف ، وهم أربعة بطون ، فاختار كل بطن منهم شخصاً ..

كان فى ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ..

وكان فى الربع الثانى زمعة بن الأسود ..

وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ..

وكان فى الربع الرابع قيس بن عدى ..

وساروا بالرداء والحجر فوقه ، حتى حاذوا الركن ، فأخذه الرسول ﷺ بيده الشريفة ووضعه فى مكانه ، وسواه وشدد عليه .. وتنازع القبائل على هذا الحجر دليل على أهميته الخاصة ومكانته من البيت الحرام ..

وكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضعه بيده .. فيه تكريم لكليهما ـ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللحجر الأسود ..

لقد أراد الله ألا يكون لأحد شرف وضعه إلا لمصطفاه ومجتباه من خلقه .. وبذلك يكون البيت المكرم قد بنى أولاً وأخيراً بأيد طاهرة مطهرة .. بيد آدم أولاً .. فإبراهيم ثانياً ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثالثاً ..

وقد ذكر بعض الرواة أن الشيطان تمثل فى صورة رجل ، ووقف بجوار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناوله حجراً يشد به الركن ، فنحاه العباس بن عبد المطلب ، وقال : إنه ليس يلى معنا فى البيت إلا من هو منا . . وناول العباس النبى الحجر . .

فغضب الرجل وقال : ياعجباً لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سنا وأقلهم مالاً فجعلوه رئيساً عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقاً وليقسمَنَّ بينهم حظوظاً وجدوداً .

وفى ذلك الحادث أنشد أبو طالب :

إن لــنا أولــه وآخــــره   فى الحكم والعدل الذى لا ننكــره
وقـد جـــهدنا جـــهدنا لنعمــره   وقد عمرنا خيره وأكبره[113]

وقد تحدثنا فى العدد الخاص عن الكعبة المشرفة عما يتعلق ببنائها وتجديدها وكسوتها وما تعرضت له من عدوان عبر العصور ، وماجد فيها الآن من تعمير وتوسعة وتزيين وتحسين على يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وفقه الله لخدمة بيته ورعاية حرمه . .

---

(١١٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ١ ص ٩٤

نبوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم

- مقدمات النبوة
- دعوة النبي ﷺ ليست حركة إصلاحية
- أمية الرسول ﷺ وحكمتها
- الله يتولى رعاية نبيه
- محمد ﷺ المثل الأعلى
- تكامل شرائط النبوة فيه ..
- أمثلة من صدقه وأمانته والتزامه بالتبليغ
- فطانته ومستلزماتها من :
  الفصاحة والعلم والذكاء وقوة العارضة
- أمثلة من صبره وكفاحه وجهاده



نبوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

مقدمات النبـــوة :

كان لحسن تصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حل نزاع القرشيين حول الكعبة أثر كبير فى نفوسهم .. وقد ازداد رفعة فى نظرهم .. وكانوا قبلها يحبونه ويعظمونه .. حتى انه كان يلقب عندهم بالصادق الأمين ..

لقد فطر النبى ﷺ على صفات الخير جميعاً ، فما ذكر عنه أنه رؤى عابثاً أو لاهياً أو حانثاً ، أو ناكثاً لعهد ، أو خارجاً على مبدأ من المبادىء الكريمة التى اتفق الناس جميعاً على إقرارها والاقتناع بها والرغبة فى اعتناقها والتخلق بها .

كانت الخمر مباحة فى الجاهلية ، ولكنه لم يشرب ولم يجلس فى مكان فيه شراب ..

وكان اللهو رائجاً ، ولكنه لم يله قط ، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه هم أن يسمر كما كان شباب مكة يسمرون ، فضرب الله على أذنه فنام حتى أيقظه حر الشمس ، وعصمه الله من ذلك اللهو وإن كان بريئاً

وهم مرة أخرى فحدث له ماحدث فى المرة السابقة .. فعلم أنه ملحوظ بعناية الله التى تصرفه عن سفاسف الأمور وتشغله بعظائمها ..

كانت حياته جداً كلها .. يصرفها فى كدح فى سبيل الرزق بوسائله ، التى أشرنا إليها وهى رعيه الغنم صغيراً ، وتجارته كبيراً ..

ويصرفها فى التفكر والتأمل فى هذا الكون الذى لابد أن يكون له خالق عظيم أبدعه على غير مثال .. وليس الخالق هو تلك الأوثان البلهاء التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعى ولا تعقل ولا تنفع ، ولا تضر ، والتى ضل بها

الناس ضلالاً مبيناً ، وخروا أمامها ركعاً وسجوداً يستشفعون إليها ويتوسلون بها وينحرون لها ويدعون عندها ، وهى غافلة عنهم تماماً . . لاتحس بهم ولا تعرف عنهم شيئاً . .

وقد فطن لهذا المعنى مستشرق غربى فقال :

إن العرب المعاصرين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبدوا أرباباً كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها المعابد ، وقدموا لها الذبائح والقرابين ومع تقدم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السن كان اعتقاده يزداد بفساد هذه الأرباب وبطلان تلك الآلهة وأن ديانة قومه ديانة كاذبة ، وأن هناك إلها واحداً حقيقياً هو خالق هذا الكون كله (١١٤)

لقد انشغل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما انشغل به قومه . . وانصرف إلى فكره وتأمله يستلهمه الهدى والبصيرة عسى الله أن يهديه إلى الطريق المستقيم . . وهذا مافهمه بعض المفسرين من قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ (١١٥)

وقد سبقت الإشارة إلى أحد وجوه التفسير فى هذه الآية . .

وهذا وجه آخر ذكره القرطبى أيضاً بقوله :

أى وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك أى أرشدك .

وقال بعضهم : إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيهتدى بها إلى الطريق ، فقال الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ

---

(١١٤) من هو محمد ؟ للفيلسوف تولستوى ص ٥

(١١٥) الضحى ٧

« ووجدك ضالا » أى لا أحد على دينك وأنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق لى [116]

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينشد الحق ، لأنه لم يقتنع بديانات العرب السابقة وقد هداه الله إلى الفطرة السليمة ، فبغض إليه الأصنام ونفره من عبادتها ، حتى إنه لم يشارك قومه فى الاحتفال بها .

وقد جهد به عمه وعماته مرة أن يشاركهم فى الاحتفال بعيد لهم حول صنم لهم يخرجون إليه كل عام . . ومازالوا به حتى خرج معهم ، ولكنه رأى ما صده عن ذلك فعاد دون أن يحتفل معهم .

وكان يسيئه ما يراه من أصنام حول الكعبة يطوف الناس بها . . وكانوا حينما يطوفون يمسون الأصنام تبركاً بها . فكان إذا طاف لا يمس الأصنام وقد نهى غلامه زيداً عن ذلك حين رآه يمس الأصنام فى طوافه . .

وكان لذلك ينأى عن الناس ويختلى وحده بعيداً ، وقد حُبب إليه الخلاء ، وكان يذهب إلى غار حراء يتسلقه وهو ممعن فى العلو والارتفاع حيث يعكف الأيام والليالى ذوات العدد متعبداً على دين إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وقد جاء فى ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ قول الله تعالى :

﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ

---

(١١٦) تفسير القرطبى ـ سورة الضحى

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١١٧)

لقد هُدِىَ الى ملة أبيه إبراهيم فطرة وجِبِلَّةً ، فهجر الأصنام والأوثان ، وقال فى ذلك ما أبغضت شيئاً بغضى هذه الأصنام .

واذا كان بعض القرشيين كورقة وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم قد تنبهوا إلى ضلال قومهم ، وخرجوا يطلبون الهدى بعيداً عن هؤلاء الوثنيين عبدة الأصنام .

فلا غرابة أن يتنبه لذلك من هيأه الله لأداء هذه الرسالة والقيام بتلك المهمة الجليلة . . وأيده فيما بعد بما يعينه على آداء هذه الرسالة النبيلة من معجزات حسية ومعنوية . .

دعوة النبى نبوة وليست حركة إصلاحية

يزعم بعض الجهلة من المستشرقين أن النبى ﷺ لم يقم بما قام به إلا بدافع من الاحساس بالعظمة أو الرغبة فى اصلاح قومه . . كما يقوم المصلحون بذلك . . فرسالته بدافع من نفسه كما يندفع الثوار وطلاب المغانم والشهرة والمصالح . .

وقد رد على هذا الوهم كثير من العلماء والكتاب المسلمين . . يقول الدكتور مصطفى محمود : سوف نمضى نتصفح كتب السيرة ، وسوف نرى دونما حاجة إلى التدليل بالخوارق أننا أمام رجل كان أكثر من مجرد رجل عظيم . .

---

(١١٧) الحج ٧٨

هذا الرجل الفطرى البدوى الأمى البسيط الذى يسعى بين الناس بلا تكلف ، يتكلم فى تلقائية لا يتصنع علماً ولا يتلو من كتاب ولا يتدارس مذهباً ولا يأخذ بأى سبب من أسباب العظمة الدنيوية . .

أى خلط نقع فيه حينما نخلط بين مثل هذا الرجل وبين المفكرين أصحاب المذاهب والدارسين والمتكلفين والعاكفين على الكتب والمتخصصين والسياسيين أصحاب الأغراض والماكرين العظام الذين قلبوا الدنيا وخطفوا أضواء التاريخ لفترة من زمان . .

هاهنا شيء مختلف تماماً . .

ومن حكمة التدبير الإلهى أن يختار الله لرسالته هذه الفطرة البسيطة .... ليلقى إليها بكلماته حتى لا تتهم بأنها كانت تأتى بتلك الكلمات اجتهاداً . .

ولقد هيأه الله ليتحمل أضعاف ما يتحمله الرجل العادى من أعباء وعلى الإتيان بأضعاف ما يستطيعه الرجل العادى من أعمال ، وكأنه أمة فى رجل . .

وإننا إذ نمضى فى كتب السيرة نتتبع هذه الذات المحمدية فى فعلها وانفعالها وفى أثرها البعيد المستمر فى هذا الواقع البدوى من حولها ، نراها تؤثر تأثيراً لا حدود له فيمن حولها ، فأيها لمست من انسان أحالته إلى طبيعة أخرى غير التى كان عليها وأيقظت فيه نوازع الخير وفجرت فيه ينابيع المحبة .

وقد أعطى الله نبيه تلك القدرة المذهلة على تغيير الرجال وصهر معادن النفوس واعادة سبكها فى أحلى الصور . .

ولذلك أحبه أصحابه وافتدوه بالمهج والأرواح ، فقد رأوا أنفسهم تولد من جديد بين يديه وكأنهم كانوا عدما فأحياهم .

نحن إذن أمام نبوة مؤيدة بسند من الغيب وأمام ورجل انعقد له لواء التمكين الإلهى . . ولسنا أمام مصلح اجتماعى أو صاحب ثورة أو عظيم من عظماء الدنيا يعمل بالاجتهاد والعلم الكسبى .

رأينا شواهد ذلك من أثر هذه النفس المحمدية المشعة فى النفوس ثم أثر تلك النفوس فى غيرها حيث يجرى التبديل والتغيير باسلوب عظيم مذهل (١١٨)

أمية الرسول ﷺ

وفى تعليل أمية الرسول يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ أمد الله فى عمره ونفع المسلمين بعلمه ـ :

« الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل أن ينزل الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبعد عنه كل شبهة بأنَّ ما سيتلقاه من وحى السماء ممكن أن يكون من العلم البشرى ، سواء كان ذلك من حضارة الأمم السابقة ، أو مما يمكن أن يقرأه من الكتب وغير ذلك .

ولذلك اختار الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمية . . ومعنى أمى أى كما ولدته أمه لم يتلق علماً من بشر ،وكانت هذه الأمية

---

(١١٨) محمد ﷺ د . مصطفى محمود ٢٥ وما بعدها . دار المعارف

شرفاً له صلى الله عليه وسلم

ذلك لأن الله الذى اختاره خاتم المرسلين أراد أن يعلمه بنفسه ، وأراد له ألا يتلقى إلا علم السماء فلو أنه كان يقرأ أو يكتب لقالوا أخذ العلم مما قرأه ، أو أخذ العلم من كتب الأولين أو من حضارات الأمم المعاصرة ،

ورغم هذا الاختيار وهذه الحكمة فقد غفلت عنها عقول الكفار ، وادعوا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمه بشر ، وادعوا أنه جاء بهذا العلم من أساطير الأولين . .

ورد الله ـ تبارك وتعالى ـ عليهم يذكرهم بمعجزة الأمية لرسوله فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١١٩)

إذن فقد لفت الله أنظار البشرية كلها إلى أنه اختار أن يكون رسوله أمياً ، حتى يرد على ما يدعيه أنصار الباطل وأعداء الإيمان من أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى بالقرآن من عنده ، وحجة من قال بذلك باطلة يردها قوله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١٢٠)

---

(١١٩) العنكبوت ٤٨

(١٢٠) يونس ١٦

لقد عاش النبى ﷺ معهم قبل البعثة أربعين سنة ، ولم يقل إنه أوحى إليه ، ولو أنهم فكروا بعقولهم فى هذا العمر الذى قضاه بينهم لكان ذلك كافياً لأن يصدقوه . .

ولو قال واحد منهم إنه نوع من العبقرية التى ربما تظهر على عبد من عباد الله ،فأى عبقرية تلك التى لم تظهر إلا فى سن الأربعين ؟

إن العبقرية والنبوغ يظهران عادة فى سن مبكرة ولا ينتظران بلوغ هذه السن .

فإن قيل : ربما تكون قد ظهرت وكتمها حتى سن الأربعين . . يرد على ذلك : ومن أدرى محمداً بأنه سيعيش حتى سن الأربعين ، وهو يرى أباه قد توفى قبل أن يولد ، وأمه تموت وهو طفل ، فينشأ يتيم الأب والأم ، فكل توقعات حياته أن الموت يخطف الناس فى سن مبكرة ، فهل يُتَوَقَّعُ ممن يؤمن بذلك أن يكتم عبقريته حتى سن الأربعين ؟

ولقد شاءت إرادة الله أن ينشأ محمد ﷺ يتيماً حتى لا يقال إنه استخدم نفوذ أبيه أو أنه استند إلى سلطان غير سلطان الله فى نشر دعوته [١٢١]

كمال فى كل صفة : توافر شروط النبوة فيه :

وإذا نظرنا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدناه قد بلغ القمة فى كل صفة من الصفات الحسنة .

والمعروف أن كل رسول لابد أن يتصف بأوصاف ضرورية . . خلاصتها الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة . .

---

(١٢١) محمد رسول الله ﷺ الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٥٠

ولنستعرض هذه الصفات فى حياة محمد ﷺ لنجد كيف كان مثلاً كاملاً فيها ، ونستعين فى ذلك بما كتبه الرواة والمؤلفون فى بحوثهم .. ولا سيما كتاب الرسول للأستاذ سعيد حوا ..

صفة الصدق :

لقد شهد بصدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصومه قبل أتباعه ، وصدّق ذلك الواقع ..

فمن شهادة الخصوم ما أخرجه البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال : بينما كنت أمشى أنا وأبو جهل فى بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ وذلك بعد أن بعث ..

فقال رسول الله ﷺ : لأبى جهل : ياأبا الحكم هلم إلى الله ورسوله ، أدعوك إلى الله ..

فقال أبو جهل : يامحمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقوله هو الحق لاتبعتك .

فانصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأقبل علىّ أبو جهل يقول : والله إنى لأعلم أن ما يقوله هو الحق ولكن يمنعنى شىء : إن بنى هاشم قالوا : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم , ثم قالوا : فينا الندوة . فقلنا نعم . ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم . ثم أطعموا فأطعمنا ، حتى إذا تحاكّت الركب قالوا : منا نبى ..

والله لاأفعل ـ أى لا أتبع دينه أبدا . .[١٢٢]

وجاء فى أسباب النزول : فى قوله تعالى :

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » مايلى :

التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام : فقال الأخنس لأبى جهل : ياأبا الحكم ، أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا من يسمع كلامك غيرى .

فقال أبوجهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو عبد المطلب باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١٢٣]

وذكر أبو ميسرة : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بأبى جهل وأصحابه ـ فقالوا : يا محمد ، إنا والله ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به فنزلت .

وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف . . كان يكذب النبى ﷺ فى العلانية ، فإذا خلا مع أهل بيته قال : مامحمد من أهل الكذب ، ولا أحسبه إلا صادقاً[١٢٤]

ولقد كان ملقباً عندهم قبل البعثة بالصادق الأمين . .

---

(١٢٢) الرسول لسعيد حوا جـ١ ص ٢٢

(١٢٣) الانعام ٣٣

(١٢٤) أسباب النزول للواحدى ص ١٦١

فكيف به بعد البعثة ؟ ولكن مكابرة الكفار وعنادهم هو الذى جعلهم يكذبون . . إلا أن تكذيبهم هذا لم يستمر . . فكثير منهم دخل الاسلام بعد فترة من الزمان طالت أو قصرت من أمثال ـ خالد وأبي سفيان وعكرمة وعمرو بن العاص وغيرهم . .

ولم يكتف هؤلاء بالإسلام بل تفانوا فيه ، وجاهدوا فى سبيل نشره . . هذه بعض شهادات الأعداء . . أما شهادة الأتباع فظاهرة واضحة . .

وكلامهم عنه ووصفهم له وحبهم إياه وإيثارهم له على أنفسهم وأهليهم يشهد بأنه كان المثل الأعلى فى حياتهم . .

وإيمانهم بصدقه كان مضرب الأمثال حتى ان أحدهم ليقول له : أصدقك على خبر السماء أفلا أصدقك على خبر الأرض ؟

وهذا هو خزيمة بن ثابت الذى يقول فيه النبى ﷺ من شهد له خزيمة فحسبه ، يعنى أن شهادته بشهادة رجلين . .

ولذلك قصة يحسن أن نذكرها كما قصها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى . .

قال : ابتاع الرسول ﷺ فرساً من أعرابي ثم طلب النبى ﷺ من الأعرابي أن يتبعه ليعطيه ثمن فرسه . .

فأسرع رسول الله ﷺ فى مشيته ، وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي ليساوموه فى الفرس ، ولا يعرفون أن النبى ﷺ قد ابتاعه فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ قائلاً : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته . .

يعنى : هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبى ﷺ : أو ليس قد ابتعته منك ؟

فقال الأعرابى : لا والله مابعتكه ـ أى مابعته لك ـ

فقال النبى ﷺ : بلى قد ابتعته منك . .

فقال الأعرابى : هلم شهيداً . . أى ائتنى بشاهد

فقال خزيمة بن ثابت : إنى أشهد أنك قد بعته لرسول الله . .

وبعد أن انصرف الناس أقبل النبى ﷺ على خزيمة وقال له : بم تشهد ولم تكن موجوداً ؟

فقال خزيمة : بتصديقك يارسول الله ، هل نصدقك فى كل ماتأتينا به من خبر السماء ونكذبك فى هذه ؟ فعرف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سعة العقل وحسن الاستنباط فقال : من شهد له خزيمة فحسبه . .

فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهادة خزيمة بشهادة رجلين وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجاز شهادته بشهادة رجلين . .

ولما بدأت كتابة القرآن الكريم وكتبت الآية الكريمة :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٢٥)

ولم توجد هذه الآية محفوظة إلا فى صدر خزيمة بن ثابت . . فأخذت شهادته بشهادة رجلين ، وتم تدوين الآية (١٢٦)

---

(١٢٥) الأحزاب ٢٣

(١٢٦) محمد رسول الله ﷺ للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ١٢١

وكانوا لا يكتبون إلا ماوجد محفوظاً فى صدر رجلين على الأقل . .
فكانت كلمة النبى ﷺ معجزة تم بها حفظ آية من آيات القرآن الكريم ، إذ لولا شهادة النبى ﷺ لخزيمة بأن شهادته بشهادة رجلين ماقبل كُتّاب الوحى منه هذه الآية إلا بشهادة رجل آخر معه .

وقد تعرض المسلمون لكثير من المتاعب والمصاعب من أجل تصديقهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أداهم ذلك إلى التضحية بنفوسهم فى سبيل ما جاء به ، وربما استدعى ذلك المواجهة الدامية بين الابن وأبيه والأب وابنه . .

فقد كان تصديق أبى عبيدة بن الجراح للنبى ﷺ سبباً فى أن يواجه أباه فى بدر ، ويحرص الأب على قتل ابنه الذى اتبع محمداً ﷺ وتضييق الخناق عليه حتى لا يفلت منه مما اضطر أبا عبيدة إلى الدفاع عن نفسه دفاعاً كان من نتيجته مصرع والده .

وأخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور ، فقال : ياأبا بكر إنا قليل ، فلم يزل أبو بكر يلح ، حتى ظهر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم - وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد ، كل رجل فى عشيرته ، وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس . .

فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين واعتدوا عليهم وآذوهم إيذاء شديداً ، وهجموا على

أبي بكر وأخذوا يضربونه ضرباً شديداً حتى سقط على الأرض ، وكان عتبة بن ربيعة هو أكثر الكفار اعتداء على أبي بكر فى ذلك اليوم (١٢٧)

وجاء بنو تيم يهرولون فدفعوا عن أبي بكر وهم يظنون أنه قد مات ، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن به عتبة بن ربيعة .. ولم ينج عتبة من القتل إلا برد أبي بكر بعد أن كان لا يرد ..

وكانت أول كلمة نطق بها أبو بكر بعد إفاقته أن سأل عن النبى ﷺ وكان يخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

ولم يهدأ له بال حتى علم أنه بخير ..

وهناك أخبار كثيرة تشهد بذلك ، بل إن أخبار أصحابه كلها ، وبسالتهم النادرة وتضحيتهم البالغة وتسابقهم إلى الجهاد فى سبيل الدعوة التى جاء بها ، وإيثارهم الموت على الحياة فى ذلك .. لهو شهادة قاطعة بصدق رسول الله ﷺ فيما جاء به ..

فإذا ماجئنا إلى شهادة الواقع أدركنا عظم صدقه ﷺ وإن أعظم شهادة لهى شهادة التاريخ ..

وانظر إلى أى خبر ذكر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو أى كلمة قالها ، أو إلى أى حديث أخبر به عن المستقبل تجده صادقاً كل الصدق .. حتى فى مزاحه العادى ومداعباته ، كان آية فى الصدق ، وقد كان النبى ﷺ مع أصحابه بشراً يباسطهم ويداعبهم ..

انظر إلى قوله لعجوز قالت له : ادع الله أن يدخلنى الجنة .. فقال لها .. لايدخل الجنة عجوز

---

(١٢٧) الرسول لسعيد حوا جـ ١ ص ٢٥

وظاهر هذه العبارة التى داعب بها الرسول هذه المرأة العجوز يقضى بحرمانها من الجنة ، فولت المرأة وهى تبكى . .

ولكنه أمر بردها فقال لها : لم تبكين ، أوماعلمت أنك عند دخولك الجنة سترجعين شابة كما يقول ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (١٢٨)

وجاءه رجل فقال له : احملنى يارسول الله ؛ فقال : إنا حاملوك على ولد ناقة . .

فقال الرجل : يارسول الله ما أصنع بولد ناقة ؟

فقال له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ (١٢٩)

لقد داعبه النبى ﷺ ولم تكن مداعبته إلا حقاً ، كما كانت مداعبته لتلك العجوز هى عين الحق . .

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله إنك تداعبنا . .

قال : نعم ولكنى لا أقول إلا حقاً . .

أجل ، إنها النبوة ومن دلائلها الصدق الكامل فى كل شىء ، حتى لو كان فى مزاح أو مداعبة . .

ولم يحدث أن أخل النبى ﷺ بوعد أو نكث فى عهد . . وكيف يخلف الصادق وعداً أو ينكث فى عهد ؟

---

(١٢٨) الواقعة ٣٥ : ٣٧

(١٢٩) رواه الترمذى وأبو داود

روى ابن الأثير فى ترجمة عبد الله بن الحمساء قال : بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث ، فوعدت أن آتيه فى مكانه ذلك ، فنسيت يومى هذا والغد فأتيته فى اليوم الثالث ، وهو فى مكانه ، فقال لى : يافتى ، لقد شققت علىّ ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك (١٣٠)

وأخرج ابن حبان والحاكم : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لى عندك موعداً يارسول الله ، قال صدقت ، فاحتكم ما شئت ، قال أحتكم ثمانين ضائنة . .

قال : هى لك ، وقال : احتكمت يسيراً (١٣١)

شهادة من مفكرى المحدثين :

لقد كتب توماس كارليل كتابه ـ الأبطال ـ الذى جاء فيه حديث عن النبى ﷺ بعنوان الرسول البطل . .

وكان مما كتبه فى ذلك :

لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يدعيه بعض الجهال الحاقدين من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمداً ليس بنبى . . . إن علينا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس (١٣٢)

أفكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها الملايين

---

(١٣٠) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٥ ص ٣١٧

(١٣١) الرسول لسعيد حوا جـ ١ ص ٣٣

(١٣٢) كلن ذلك وقت كتابة بحثه أما الآن فقد مضى أربعة عشر قرناً ، وعدد المسلمين يزيد على الألف مليون مسلم .

الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج - فما الناس إلا بله ومجانين ، ومالحياة إلا سخف وعبث . .

وهل رأيتم قط أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد دينا عجيباً ؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب . . وليس هذا البيت جديراً بأن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم وكأنه لم يكن . .

أما الرجل الكبير فإنى أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإنى أرى الصدق أساسه وأساس كل ماجاء به من فضل ومحمدة . .

والاخلاص هو أول خواص الرجل العظيم ، ولا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه ، كلا ، فإن هذا حقير جداً ، وإخلاصه إخلاص سطحى وقح ، وهو فى الغالب غرور وفتنة . .

وإنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، ولا يشعر بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بالتقصير . . إن إخلاصه كامن فيه فهو مخلص بطبيعته التى أودعها الله فيه . . هو يرى الوجود كله حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وَخَلْقُ ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . .

وعلى هذا فلسنا نعد محمداً ﷺ قط كاذباً متصنعاً يتذرع بالوسائل والحيل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر . . ومالرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صدق صادر من العالم المجهول ، كلا . . ما محمد بالكاذب ولا المخادع ،

وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الأرض فإذا هو شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدفع كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين (١٣٣)

إن شهادة هذا المستشرق الفرنسى بعد اثنى عشر قرناً من تاريخ الدعوة الاسلامية شهادة لها وزنها فى عالم الغرب الذى يملؤه الغرور ، ويحاول أن يشوه صورة الاسلام ورسوله فى نفوس الناس .

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، فتجىء الشهادات تلو الشهادات من الخصوم قبل الأنصار تعلن نصاعة هذا الدين وصدق رسوله بما لا يدع مجالاً لشبهة أو مكاناً لشك ، ويتوج ذلك إعلان بعض هؤلاء إسلامهم عن اقتناع كامل وتفكير عميق ودراسة متأنية وبحث طويل ، ويجرد هؤلاء المسلمون الجدد أقلامهم فى نصرة هذا الدين الغالب الذى جعله الله خاتم الأديان وارتضاه للناس جميعاً ديناً لا يقبل منهم سواه

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٣٤)

وما ينطق عن الهوى :

ويمر الزمان على أقوال الرسول ﷺ التى قالها منذ أربعة عشر قرناً فلا تجد إلا أنها ازدادت صدقاً وثبوتاً وتأكيداً .

ومنها ما أثبت العلم الحديث أصالته وصدقه واهتدى به فيما يقوم به من تجارب يصل بنتائجها إلى مقررات . .

---

(١٣٣) من بحوث العدد التذكارى للسيرة النبوية ص ٥٦١ الأزهر الشريف

(١٣٤) آل عمران ٨٥

لنستشهد على ذلك بحديث طالما تحدث عنه العلماء ودارت حوله معارك قلمية وعلمية . . . ذاك هو حديث الذبابة : « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء »[(١٣٥)]

ولنبدأ فى مناقشة مادار حول الحديث بقول الحافظ ابن حجر ـ قال : قال الخطابى : تكلم على هذا الحديث من لا خلاق له فقال : كيف يجتمع الشفاء والداء فى جناحى الذباب ؟ وكيف يعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناحاً ويؤخر جناحاً . .

نقول : هذا سؤال جاهل أو متجاهل ، فإن كثيراً من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة ، وقد ألف الله بينها وقهرها على الاجتماع ، وجعل منها قُوَى الحيوان ، وإن الذى ألهم النحلة اتخاذ البيت العجيب الصنعة للتعسيل فيه ، وألهم النملة أن تدخر قوتها إلى أوان حاجتها ، وأن تكسر الحبة نصفين لئلا تستنبت-لقادر على إلهام الذبابة أن تقدم جناحا وتؤخر آخر .

وقال ابن الجوزى : ما ذكر عن هذا ليس بعجيب ، فإن النحلة تعسل من أعلاها وتلسع من أسفلها ، والحية القاتل سمها يدخل بعضه فى الترياق الذى يعالج به السم ، والذبابة تسحق مع الإثمد لجلاء البصر ، وذكر بعض حذاق الأطباء أن فى الذباب قوة سُمِّية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه ، وهى بمنزلة السلاح له ، فإذا سقط الذباب فيما يؤذيه تلقاه بسلاحه ، فأمرنا أن نقابل تلك القوة السمية بما أودعه الله تعالى فى الجناح الآخر من الشفاء ، فتتقابل المادتان فيزول الضرر بإذن الله تعالى[(١٣٦)]

---

(١٣٥) أخرجه البخارى عن أبى هريرة بلفظة : ثم ليطرحه ـ باب الطب ورقمه ٥٧٨٢ وأخرجه البزار عن أنس ورجاله الصحيح ـ الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور جـ ١ ص ٤٨ وشرح الحديث الحافظ ابن حجر فى فتح البارى جـ ١٠ ص ٢٦٠

(١٣٦) فتح البارى لابن حجر جـ ١٠ ص ٢٦٣

هذا ما قاله العلماء الأقدمون ..

فماذا قال العلماء المحدثون فى ذلك ؟

وبغض النظر عن استعمال الطعام والشراب الواقع فيهما الذباب فإن الحديث لم يدع إلى استعمالهما أو تركهما ، ولكنه يتعرض لقضايا علمية يجب التنبيه لها ..

قال الأستاذ سعيد حوا :

إن هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهما لم تكن معروفة قديماً ..

أولاهما أن الذباب ناقل داء ، وهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع من أن الذباب ناقل جراثيم ممتاز .

والثانية وهى التى يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك ..

وهناك تحقيق كتبه « الدكتور عز الدين جوالة » حول هذا الموضوع ننقل منه ما يلزمنا :

١ ـ من المعروف منذ القدم أن بعض المؤذيات يكون فى سمها نفع وداء ، فقد يجتمع الضدان فى حيوان واحد ، فالعقرب فى إبرتها سم ناقع ، وقد يداوى سمها بجزء منها ، وفى ذلك يقول العلماء : « وقد وجدنا لكون أحد جناحى الذباب داء ، والآخر شفاء فيها أقامه الله من عجائب خلقه ، وبدائع فطرته شواهد ونظائر . . . منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ، ويكمن فى إبرتها السم الناقع » ـ وقد أشار ابن حجر الى ذلك فيما نقلناه آنفا ..

٢ ـ وفى الطب يحضر لقاح من ذبيب الأفاعى والحشرات السامة ، يحقن به

لدفع سم العقرب ولدفع سم الأفعى بل وينفع فى تخفيف آلام السرطان أيضاً .

٣ ـ إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأساً على عقب ، فالبنسلين استخرج من العفن والستربتومايسين من تراب المقابر ، وبمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر .

أماَ والحالة كذلك فهل يمتنع عقلياً ونظرياً أن يكون فى الذباب ـ تلك الحشرة القذرة والتى تنقل القذر ـ طفيل أو جُرثوم يُخْرِج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذى تحمله ؟

٤ ـ من المعروف فى فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفان (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان إذا دخل بدن الحيوان كون البدن أجساماً ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم ـ تسمى بمبيدات الجراثيم .

فهل يستبعد القول بأن الذباب يلتهم الجراثيم فيما يلتهم ، فيكون فى جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم ، والتى مر ذكرها ؟ ولها القدرة على الفتك بالجراثيم المرضة التى ينقلها الذباب إلى الطعام أو الشراب ؟ فإذا وقعت فى الطعام ذبابة فما علينا إلا أن نغمس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التى تنقلها وتقضى على الأمراض التى تحملها .

وهناك تحقيق للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين ـ فى إثبات ما فى الحديث . . ننقل منه مايلى :

فى ١٨٧١ م وجد الأستاذ الألمانى « بريفلد » من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيل من جنس الفطريات سماها « امبوزاموسكى » وهو طفيل يعايش الذبابة على الدوام .

وبالتدقيق فيه وجده من نوع الفطور التى تسمى « انتوموفترالى » تنتمى إلى أهم فصيلة فى الفطور الأشنية وهى المسماة بالفطور الأشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثانى للفطر المسمى الفطور الأشنية الطفيلية . .

وهذا الطفيل يقضى حياته فى الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتى ذكرها ، ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة .

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلى لهذا الفطر ، وفى هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلى للخلية من جراء ذلك ، حتى إذا وصل الضغط الى قوة معينة لا تتحملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور إلى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور الى مسافة ٢ سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوب بالسائل الخلوى ، وعلى هذا إذ أمعنا النظر فى ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج نشاهد :

أ ـ مجالاً من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

ب ـ ونشاهد على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة والتى أخرجت معها البذور ، وقد برز منها رءوس الخلايا المستطيلة التى مر ذكرها

وقد جاءت اكتشافات العلماء الحديثة مؤيدة لما ذهب إليه « بريفلد » ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذى يعيش فى بطن الذبابة .

والخلاصة أنه يستدل من كل ما سبق على مايلى :

١ ـ يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة فيحمل بأرجله أو يمج من جسمه كثيراً من الجراثيم المرضية الخطيرة .

٢ ـ يقع الذباب على الطعام فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام أو الشراب فيلوثه بما يحمل من سم ناقع ، ويلقى فيه الجراثيم الدقيقة الممرضة .

٣ ـ فإذا أخرجت الذبابة من الطعام وألقيت خارجاً دون غمس بقيت هذه الجراثيم فى مكان سقوط الذباب فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعاً ، دخلت الجراثيم فيه ، فإذا وجدت أسباباً مساعدة تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى طريح الفراش .

٤ ـ أما اذا غمست الذبابة كلها فى الطعام أو الشراب فماذا يحدث ؟ تحدث حركة الغمس ضغطاً داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة ويؤدى ازدياد توتر البروز والسائل داخلها إلى انفجار الخلايا وخروج الأنزيمات الحاملة لمضادات المرض القاتلة له ، فتقع على الجراثيم التى تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويصبح الطعام طاهراً من الجراثيم المرضية .

٥ ـ وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوى الشريف المؤكد لضرورة غمس الذبابة كلها فى السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذى يكافح الداء .

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ أربعة عشر قرناً (١٣٧) ، ويؤكد أن كلام النبى ﷺ لم يطلق على عواهنه ، ولكنه كلام مؤيد باليقين العلمى الدقيق ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (١٣٨)

حديث السواك :

ومن الأحاديث النبوية الشريفة المتصلة بالناحية العلمية ـ والتى استطاع العلم الحديث أن يدرك قيمتها وأهميتها بعد قرون عديدة قوله : ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » . . .

لقد أثبتت الأيام عبقرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكد العلم الحديث أن استعمال السواك والمداومة عليه فيه منجاة من كثير من الأمراض التى تعترى الجسم عن طريق تسوس الأسنان أو فساد اللثة بسبب عدم المواظبة على نظافة الفم .

ربما كان الناس ينظرون إلى هذا الحديث قديماً على أنه من الأوامر المستحبة التى يمكن التجاوز عنها دون أن يكون هناك خطر كبير ، ولكن بعد التقدم العلمى واكتشاف أسباب العلل والأمراض وإمكان رؤية الجراثيم والميكروبات بواسطة المناظير المكبرة أمكن معرفة ما يعترى الإنسان من خلل ، وأمكن فى ضوء ذلك اكتشاف مافى شجر الأراك الذى يؤخذ منه

---

(١٣٧) راجع كتاب الرسول لسعيد حوا ص ٣٦ : ٤٠

(١٣٨) النجم ٣ : ٤

السواك من مواد طاردة لهذه الجراثيم وقاضية عليها . .

إن اكتشاف الآثار الضارة المترتبة على مرض الأسنان كان وراء إنشاء هذه المعامل وتلك الشركات التى أنتجت وتنتج مئات الأنواع من معجون الأسنان ووسائل التنظيف والعلاج ، ومازالت هذه الأنواع وتلك الوسائل عاجزة عن اللحاق بما فى هذا العود الصغير البدائى المأخوذ من شجر الأراك .

وربما ظن بعض الناس أن قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأن السواك ليس من قبيل الإعجاز ولكنه كلام يدعو إلى النظافة . . فليكن كذلك ـ ولكن لابد أن يلاحظ ذلك الظان تلك البيئة التى كان يعيش فيها الرسول ﷺ وكيف أن هذا السواك الذى دعا إلى استعماله فيها لم يفقد فعاليته بعد مرور أربعة عشر قروناً من الزمان ، عرف الإنسان فى خلالها تلك الأدوية والمطهرات والوسائل الحديثة والمعقمة .

ولكن ماقول هذا الظان وغيره حين يسمع قول النبى ﷺ يتحدث عن أحدث التخصصات العلمية فى الحديث التالى :

عن عائشة رضى الله الله عنها ـ أن فاطمة بنت أبى حبيش سألت النبى ﷺ ـ فقالت ؛ إنى أستحيض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ (١٣٩)

فقال : لا ، إن ذلك دم عرق ، ولكن دعى الصلاة قدر الأيام التى كنت تحيضين فيها ثم اغتسل وصلى . .

وقد علق الأستاذ سعيد حوا على هذا الحديث بقوله :

المسألة هنا كمايلى : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الأنثى بماء الذكر ، والدم الذى يخرج منها فى

---

(١٣٩) الاستحاضة أن يستمر بالمرأة خروج الدم بعد أيام حيضها المعتاد

هذه الحالة يسمى دم حيض .

وهذه امرأة يخرج منها الدم دائماً ، وكانت تتصور أن هذا الدم كله دم حيض ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفهمها أن هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق . .

فماذا يقول العلماء المتخصصون المعاصرون الآن فى هذه الظاهرة ؟

يقولون : إن الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس . .

أما الدم الآخر الذى يكون فى غير هذا فمرجعه إلى نزيف يحدث فى بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم أو بدم الحيض الذى يخرج منه .

فهل كان حديث أهل الاختصاص فى عصرنا إلا مصدقاً لما قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من عصور لم يكن هذا معروفاً فيها ؟

إن مطابقة ما يقوله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما توصل إليه العلم الحديث من كشوفات ـ دليل صدق على أن الله سبحانه وتعالى كشف لنبيه ﷺ عن حقائق المعلومات ، مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (١٤٠)

وصدق البوصيرى ـ رحمه الله ـ فى قوله :

لك ذات العلوم من عالم الغيب قديماً وآدم له الأسماء

وضرب الأستاذ سعيد حوا أمثلة متعددة خلص منها إلى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق مادلت عليه الأحاديث التى مثل بها .

---

(١٤٠) النساء ١١٣

وقرر فى ضوئها أنه مامن كلمة قالها رسول الله ﷺ إلا وكان الحق والصدق يملؤها ..

وكلام الرسول ﷺ ينقسم إلى قسمين : ماله علاقة بالغيب ، وماله علاقة بالمشاهد المحسوس ..

والنوع الثانى هو الذى يستطيع الإنسان أن يختبره ، فإذا ما ثبت صدقه فيه .. كان ذلك آية صدقه فى النوع الأول ، مع أن الله قد جعل له علامات أخرى تكون دليل صدق له فى أمر الغيب وهى المعجزات الحسية والمعنوية ..

فرسول الله ﷺ ثبت صدقه فى كل شىء مع هذه المؤيدات فلا يبقى هناك مجال أمام الانسان إلا التسليم له ..

لقد كان النبى ﷺ محباً للصدق داعياً إليه ، ولم تُكَذِّبْ الأيام طول القرون الكثيرة الماضية كلمة واحدة قالها ،مرشداً أو موجهاً أو مخبراً أو مشرعاً أو محدثاً أو متنبئاً .

وصدق الله اذ يقول عنه « وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »

وإذا كنا قد ذكرنا أمثلة لما صدقه الواقع ، فلنذكر مثالاً من تنبؤ الرسول ﷺ بالغيب وتصديق الزمن لذلك ..

النبى وسـراقة :

حين هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة تبعه سراقة بن مالك طمعاً فى المكافأة التى رصدها المشركون لمن يأتى بمحمد وصاحبه .

قال سراقة ـ فيما ذكره ابن هشام ـ : فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ماهذا ؟

ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره

قال : فأبيت إلا أن أتبعه ..

فركبت فى إثره ، فبينما فرسى يشتد عثر بى فسقطت عنه ..

قال : فأبيت إلا أن أتبعه

فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه ..

ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالإعصار ..

قال : فعرفت ـ حين رأيت ذلك ـ أنه قد منع منى وانه ظاهر ..

فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لاأريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ..

قال : فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : قل له وماتبغى منا ؟

قال : فقال لى أبو بكر ذلك ، فقلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك ..

قال : اكتب له ياأبا بكر .

فكتب لى أبو بكر كتاباً فى عَظْم أو فى رقعة ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى وفى بعض الروايات أن النبى ﷺ وعده سوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، ثم تدور الأيام ويسلم سراقة عام الفتح ويحسن إسلامه ، ويشترك فى فتوح فارس ، فلما أُتِىَ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بتاج كسرى وسواريه ومنطقته دعا بسراقة ، وكان أزب الذراعين ـ أى كثير الشعر فيهما ـ

فحلاه حلية كسرى ، وقال له ارفع يديك وقل : الحمد لله الذى سلب هذا كسرى - الملك الذى كان يزعم أنه رب الناس - وكساها أعرابيا من بنى مدلج ، فقال ذلك سراقة ، وإنما فعلها عمر لأن رسول الله ﷺ كان قد بشر بها سراقة حين أسلم ، وأخبر أن الله سيفتح عليه بلاد فارس ، ويغنمه ملك كسرى ، فاستبعد ذلك سراقة فى نفسه ، وقال : أكسرى ملك الملوك ؟

فأخبره النبى - صلى الله عليه وسلم - أن حليته ستجعل عليه تحقيقاً للوعد - وإن كان أعرابياً بدوياً ، - لأن الله يعز بالإسلام أهله ، ويسبغ على محمد ﷺ وأمته نعمه وفضله (١٤١)

لقد تحققت نبوءة محمد - صلى الله عليه وسلم -

وهناك قصص كثيرة تشهد بذلك ، وكلها تنبىء عن الصدق المعجز الذى تتحقق نبوءته ، وليس هذا من قبيل الحدس أو التخمين الذى يقيس فيه صاحبه النتائج على المقدمات ، فإن ذلك إن حدث لبعض أصحاب الفطنة والذكاء وبعد النظر والتأمل ، فإنه يتخلف فى كثير من الأحيان . .

والفراسة على أية حال ضرب من الالهام ولاسيما إذا كان صاحبها مؤمناً ويقول ﷺ فى ذلك : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله . . ولكن ذلك بالنسبة للنبى ﷺ أمر أعظم من ذلك وأجل ، إنه الوحى الإلهى والتلقين الربانى والتعليم الأسمى والتوعية العليا التى تعصم صاحبها من أن تذهب ألفاظه أدراج الرياح ، أو أن تغير الأيام من أنبائه التى استشفها من مسطور

---

(١٤١) الروض الانف جـ ٢ ص ٢٣٣

الغيب وأخبر بها . لتضيف إلى جلال العظمة النبوية أرصدة أخرى من الصدق والجلال .

تبليغ الدعوة :

ولكى يكون الداعى إلى أمر من الأمور ناجحاً فى دعوته لابد أن يكون قدوة عملية فيه . . فإنه بذلك يكون خليقاً بالاستجابة إلى دعوته موفقاً فى مهمته . .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دعا إلى ربه كان ملتزماً بكل كلمة يقولها ويدعو إليها . . فليس هناك انفصال فى سلوكه بين قوله وفعله أو بين منهجه وتطبيقه ، واذا دققنا النظر فى دعوات الداعين عبر العصور ممن جاءوا بدعوات أو نظريات ليس بينها وبين السماء اتصال . وجدناها تبرق قليلاً ثم لا تلبث أن تنطفىء وتذهب مبادئها أدراج الرياح ، لأن أصحابها لا يلتزمون بما يدعون إليه من مبادىء . . وكم فشلت لذلك ثورات ونظريات ودعوات وفى التاريخ أمثلة كثيرة لذلك . .

ولكن النبى ﷺ جاء بدعوته التى أوحى الله إليه بها ، وكان قدوة عملية فى تطبيقها قبل أن يدعو غيره إلى ذلك . .

ومنذ أن صدر إليه الأمر بتبليغ دعوته لم يقصر ولم يستكن ولم يهدأ له بال فى ذلك . .

ولنضرب أمثلة لبعض الأوامر التى جاءت بها هذه الدعوة الكريمة وكان النبى ﷺ قدوة عليا فى تنفيذها أولاً . .

قال الله له :

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١٤٢)

فكان مثالاً فريداً فى العبادة ، لقد عرف ربه وعرف حقه عليه ، فألزم نفسه عبادته ، واشتد قربه منه فاشتدت خشيته له ، وأدرك قدره عند ربه الذى غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر فأجهد نفسه فى عبادته شكراً له وعرفاناً بفضله ، وعرف أن الله أرسله ليقيم دعائم دين جعله الله خاتم الديانات ، وجعل سلوكه وسيرته تشريعاً لأمته وأخلاقه منهاجاً يتبع وسنة يقتدى بها فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الكامل فى العبادة الخالصة المخلصة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الهدف من خلق الانسان ، فقال

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١٤٣)

فالهدف هو العبادة والعبادة المخلصة . كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (١٤٤)

---

(١٤٢) الحجر ٩٩

(١٤٣) الذاريات ٥٦ : ٥٧

(١٤٤) البينة ٥

فالتزم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الهدف ، وأداه كما يجب ، لأنه رآه كما جاء ـ هدفاً عاماً للجميع وقد خوطب به هو بصفة خاصة فى موضع آخر حيث يقول القرآن الكريم :

« قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت أن أكون أول المسلمين ، قل أنى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له دينى »

وللعبادة هدف يظهر فى ترقية نفس الإنسان وتنويرها ، وتخليصها بالطاعة يعلق بها من آثام وماتزال تصفو بذلك وترتفع حتى تصل إلى درجة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فإذا جاز هذا فى حق الإنسان العادى فما بالك بالنبى ﷺ الذى قربه الله واصطفاه وغفر له ما تقدم من ذنبه وماتأخر ؟

لقد كان النبى ﷺ قدوة لأمته فى العبادة حتى انه كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، وسألته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ يوماً عن ذلك ، ومما قالت له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وماتأخر . .
فقال لها : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

أجل ، كان النبى ﷺ قدوة المتعبدين قبل البعثة وبعدها . .
فقد كان قبل البعثة يدرك أن هناك من يستحق التفرد بالعبادة غير هذه الأصنام التى كان يصنعها قومه ويسجدون لها من دون الله ، فنأى عنها ، وأخذ يتحرى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعبد الله فى ظله . .

جاء فى سيرة ابن هشام : كان ـ عليه السلام ـ يجاور فى حراء كل سنة شهراً . . يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره أن يطوف بالكعبة سبعاً أو بما شاء الله من ذلك . .

وبعد أن مَنَّ الله عليه بالنبوة والرسالة ازدادت عبادته لله وطاعته له ، ورسم المنهج الكامل فى العبادة لأمته ، حتى يعبدوا الله على بصيرة من أمرهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١٤٥)

لقد علم أمته كيف يكون الإخلاص فى العبادة وبيَّن الله له المنهج الذى أمره أن يبلغه لقومه فى ذلك ، وأخبر عنه القرآن الكريم بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١٤٦)

لقد كان النبى ﷺ يشق على نفسه فى العبادة لأنه يعرف حق ربه عليه

---

(١٤٥) يوسف ١٠٨

(١٤٦) الأنعام ١٦١ : ١٦٣

ومع ذلك فقد كان ينصح أمته بالاقتصاد فيها قائلاً لهم : إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وكان يواصل أحياناً فى صيامه ولكنه نهى أمته عن ذلك خشية أن يشقُّوا على أنفسهم ، ولما قيل له : إنك تواصل . قال : إنى لست مثلكم إنى أطعم وأسقى وفى رواية وأيكم مثلى ؟ إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى . .

وكان إذا صلى وحده أطال ولكنه يدعو من يؤم الناس أن يخفف . يقول لهم : من أم الناس فليخفف فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة .

كان النبى ﷺ قدوة لأمته فى حياته الخاصة والعامة وفى علاقته بربه وعلاقته بالناس ، وكان يكثر من مناجاته لربه ، والدعاء إليه ، والدعاء مخ العبادة كما يقولون ـ والمأثور عن النبى ﷺ فى ذلك لاحصر له ، وفيه أسو صالحة لمن أراد أن ينسج على منواله من الطامحين إلى رحمة الله المتطلعين إلى عفوه ورضاه [١٤٧]

ومن الأوامر التى دُعِىَ النبى ﷺ إلى تبليغها لأمته ـ الإنفاق فى سبيل الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزهرتها . .

وقد كان النبى ﷺ مثلاً أعلى فى الزهد والعفة والقناعة والإنفاق فى سبيل الله . .

وبلغ من زهده أنه كان يطوى الليالى جائعاً وليس فى بيته شىء . .

روى البخارى ومسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : توفى رسول الله ﷺ وماق بيتى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى . .

وكانت تقول : يمر الشهر والشهران ولا يوقد فى بيت محمد وأهله نار . . فقيل لها وماذا كنتم تأكلون ؟ قالت : الأسودان : الماء والتمر . .

---

(١٤٧) راجع بحث النبى العابد ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية .

وربما يظن ظان أن هذا الزهد عن قلة ، فهو زهد المغلوب على أمره الذى لايجد شيئا . . كلا ، ولكنه زهد القادر ، الذى فى استطاعته أن يملك ولكنه عف عن الملك ، وقد خيره الله بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، وقال : أجوع يوما وأشبع يوما ، فإن جعت حمدت الله وإن شبعت شكرتُ الله . .

فى غزوة حنين غنم المسلمون غنائم كثيرة ، وكان فى إمكانه صلى الله عليه وسلم أن ينال منها الكثير ولكنه وزع كل ماغنمه على المسلمين ، وأعطى المؤلفة قلوبهم عطاء كثيرا كان مثار العجب ، حتى لقد قال أحدهم : إن محمداً يعطى عطاء من لايخشى الفقر . . أجل إنه كان لايخشى الفقر لأن الله ملأ قلبه غنى وسكينة وأمناً واطمئناناً .

وتكاثر عليه طالبو العطاء يومئذ فوقف مغضبا إلى جانب بعير له فأخذ وبرة من سنامه وجعلها بين اصبعيه ثم رفعها وقال : أيها الناس والله مالى فى هذه الغنائم ولاهذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم . .

أيها الناس ، فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامة إبلا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولاجباناً ولاكذاباً .

ثم إنه نزل عن نصيبه لهؤلاء الذين كانوا منذ أيام ألد أعدائه ، فأعطى مائة من الإبل لكل من أبى سفيان وابنه معاوية والحارث بن كلدة ، والحارث ابن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبدالعزى ، وغيرهم من الأشراف ورؤساء العشائر ممن أراد أن يؤلف قلوبهم بعد فتح مكة ، وأعطى خمسين من الإبل لآخرين (١٤٨) .

وحين غنم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أموال بنى قريظة فرقها بين أصحابه ولم يبق شيئا ، فدخل نفوس نسائه مايدخل نفوس الناس من

---

(١٤٨) محمد ـ د . مصطفى محمود ـ ص ١٩

التطلع إلى زهرة الدنيا فنزل قول الله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٤٩)

وقد تحدث المفسرون حول هذه الآية كثيرا ، ومما قالوه مما نحن بصدده مارواه البخارى ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بنْ عبدالله ـ قال : دخل أبوبكر يستأذن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد الناس جلوسا ببابه لايؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر ، فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى ـ ﷺ ـ واجماً ساكناً وحوله نساؤه ، قال : فقال : والله لأقولن شيئا أُضحِكُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة . .

فقام أبوبكر إلى عائشة يجأ ـ أى يضرب ـ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماليس عنده ؟ .

فقلن : والله مانسأل رسول الله شيئا أبداً ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعا وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية :

﴿ يأيها النبى قل أزواجك . . . ﴾ .

---

(١٤٩) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩ .

فبدأ النبى ـ ﷺ ـ بعائشة فقال : ياعائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وماهو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يارسول الله استشير أبوى ؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت ، قال : لاتسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله بعثنى معلما ميسرا (١٥٠) .

لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية فى الإنفاق ، لايصل إلى يده شىء إلا أنفقه فى سبيل الله وفى أمر الدعوة ومواساة الفقراء من المهاجرين والأنصار . . وكان يؤثر الفقراء والمحتاجين على نفسه وأهله .

أمانة الرسول ﷺ

وأمانة الرسول ﷺ مضرب الأمثال . . وبين الأمانة والصدق تلازم كامل .

والأمانة قد تكون معنوية وقد تكون حسية . . وحرص النبى ﷺ ـ على تبليغ رسالة ربه ، وتفانيه فى ذلك ، وعدم تقصيره فى أدائها كاملة غير منقوصة . هو مانعنيه بالأمانة المعنوية .

وقد كان النبى ـ ﷺ ـ يبلغ وحى ربه إلى الناس فور نزوله ، لايخفى منه حرفا ولاينقص كلمة أو يزيد أخرى ولايغير شيئا مما أنزل الله على قلبه . .

وقد أشار الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ذلك فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ (١٥١)

---

(١٥٠) تفسير القرطبى ـ سورة الأحزاب

(١٥١) الحاقة : ٤٤ : ٤٧ .

فأى تهديد أبلغ من ذلك ؟

والقرآن يقول ذلك فى حق نبيه - ﷺ - تزكية له ورفعا لقدره . .

لأنه على يقين من أمانة النبى - ﷺ - والتزامه بما أوحى إليه .

كما أشار مرة أخرى إلى عدم إخفائه شيئا من أخبار الغيب التى يطلعه الله عليها وينزل بها القرآن الكريم آمرا إياه بتبليغها . قال - تعالى - ﴿ وماهو على الغيب بضنين ﴾ .

فمعنى « ضنين » بخيل . .

فقد جاء فى بعض وجوه تفسير هذه الآية . . . أن النبى - ﷺ - لم يضن ولم يبخل بما أمره الله أن يبلغه .

ومن مقتضيات الأمانة الالتزام بمبادىء الدعوة ، وتنفيذ منهجها الذى تدعو إليه . . وقد كان النبى - ﷺ - مثلاً أعلى فى ذلك . .

فما دعا إلى شىء إلا وكان قدوة فى أدائه ، ومانهى عن شىء إلا وكان أول التاركين له ، العافين عنه . . وقد مرت أمثلة لذلك . .

أما الأمانة الحسية ، فأمرها معروف وقد كان النبى - ﷺ - موضع ثقة الناس جميعا ، الخصوم منهم قبل الأصدقاء . . وفى يوم الهجرة أمر عليا بالتخلف حتى يرد الودائع التى عنده إلى أصحابها وكان القرشيون يصفونه بالصدق والأمانة . . ولم يستطيع واحد منهم أن يصفه بغير ذلك .

فطنته - ﷺ -

والفطنة لها مستلزمات تتضافر معها وتشد من أزرها . .

فمن مستلزماتها الفصاحة ، وقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم -

أفصح العرب ، وقد ورد عنه أنه قال : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد . .

وقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الفصاحة الكاملة حتى يستطيع أن يكون قوياً على إبلاغ رسالة ربه . . وكان يشعر أن بلسانه عثرة تمنعه من أداء هذه الرسالة على وجهها الأكمل ، ولذلك قال لربه

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٥٢)

وطلب من ربه أن يحل عقدة لسانه ليكون قادرا على إبلاغ الرسالة على وجهها الأكمل فقال ـ كما حكى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١٥٣)

لقد كان النبى ـ ﷺ ـ أفصح العرب ، وقد شهد بذلك القاصى والدانى ، وشهد به الخصوم قبل الأنصار . .

---

(١٥٢) القصص ٣٤ ، ٣٥

(١٥٣) طه ٢٧ : ٣٧

ومن فصاحته أنه كان يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ وتحيط كل إحاطة وتصل إلى أدق القضايا ، ويتفاوت الناس فى الأخذ منها على مقدار ما أوتوه من حكمة وعلم وذكاء وفهم ، وقد عبر النبى - ﷺ - عن ذلك فقال : أوتيت جوامع الكلم . .

وهذه ميزة لم تتوفر لسواه - صلى الله عليه وسلم - ومعناها أنه يستطيع باللفظ القصير أن يتناول المعنى الكبير ، وأن أى حكمة من حكمه أو كلمة من جوامع كلمه يتناولها الشارحون والمحللون فى صفحات كثيرة وربما قصروا فيما تصل إلى من هدف .

وقد ضر العقاد أمثلة على ذلك نذكر منها هذا المثل . . قال :

« ومن أمثلته - أى الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار قوله - صلى الله عليه وسلم - كما تكونوا يول عليكم . . فأى قاعدة من القواعد الأصلية فى سياسة الأمم التى لاتنطوى تحت هذه الكلمات ؟ .

« ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لايعفيها من تبعة ماتصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه ، والأكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه .

« وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين . . ولاسبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال . .

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله

مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . .

« وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقرار » .

« وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث » .

« ويختم العقاد حديثه فى هذا الموضوع بقوله :

وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق ، والاجتماع مما لايتناوله الإحصاء فى هذا المقام . . كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء وكان بليغاً مبلغاً على أساس ماتكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده قدرة المرسلين (١٥٤) .

ومن مستلزمات الفطانة العلم . وقد كان النبى - ﷺ أعلم الأولين والآخرين . . منحه الله العلم من خزائن رحمته .

(١٥٥)

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

ومنحه إياه من ميراث التقوى (١٥٦)

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

ومن أقوال النبى - ﷺ - فى ذلك

من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم

ومنحه الله إياه من ميراث الطلب فقد أمره بأن يقول

---

(١٥٤) الرسول لسعيد حوا جـ ١ ص ١٣١

(١٥٥) النساء ١١٣

(١٥٦) البقرة ٢٨٢

والعلم ضرورى للنبى ليكون أوسع علماً من مخاطبيه ومجادليه والمتحدين له وماأكثرهم ، وكان الله يمده بالعلم الكافى والجواب الشافى والمنطق السديد . . وكثيراً مايرد فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ يسألونك ﴾ ويأتى بعدها الجواب عما يسألون عنه من حضرة القدس وفيض الغيب . .

فقد تحداه اليهود والنصارى والمشركون بمسائل ليس لأحد من الناس علم بها ، إلا ماجاء عنها من الأخبار فى الكتب السابقة ومايعلمها إلا القليل ، فكان النبى - ﷺ - يخبر عنها بما أفاضه الله عليه . .

ومن مستلزمات الفطانة الذكاء . . ومن نافلة القول الحديث عنه بالنسبة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن الذى يرى بنور الله ، أكبر وأعظم من كل ذكاء ، وكل فراسة ، والأحداث الكثيرة تشهد لذلك .

ولعل قصة فصله فى الخلاف الذى نشب بين القبائل بشأن وضع الحجر الأسود فى مكانه أكبر دليل على ذكائه وفطنته . . فقد استطاع فى دقائق معدودة أن يفض نزاعا ، وأن يقضى على خلاف جردت من أجله السيوف ، وأوشكت الحرب أن تندلع بسببه بين القبائل . . فاستل صلى الله عليه وسلم بحكمه الضغائن من القلوب ورضى الجميع بهذا الحكم فهدأت

---

(١٥٧) طه ١١٤

النفوس ، وعادت السيوف الى أغمادها ، وعلت الفرحة والسعادة وجوه القوم . وحينما خرج فى تجارة السيدة خديجة رضى الله عنها . شهد له كل من تعامل معه بالذكاء وسعة الأفق ، وصدق القول ، وتحدث الجميع بذلك ومنهم ميسرة خادم السيدة خديجة الذى رافقه فى رحلته .

ومن أعظم الأمور دلالة على فطانته وسعة عقله رفضه لعبادة الأصنام منذ نشأته الأولى . فقد فطن بفطرته الصافية إلى أن مايعبده قومه من تلك الأوثان بعيد كل البعد عن منهج العبادة الصحيحة ، وأن الدين القويم لابد أن يكون شيئا آخر غير ماعليه هؤلاء القوم . ومن ثم فقد اتخذ طريقا غير طريق قومه وسلك فى عبادته منهجاً غير منهج قومه . .

هذه مقتطفات من صفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ العظيمة التى بلغ بها المثل الأعلى بين الأنبياء فضلاً عن الناس وكان جديراً بهذه الأخلاق الرائعة أن يكون مختار الله للنبوة ومصطفاه للوحى والرسالة .

إنها النبوة تعرف طريقها إلى صاحبها . . وإن الله ليختاره ثم ينشئه النشأة التى تؤهله لهذه التبعة الثقيلة التى تحتاج إلى إعداد طويل وتربية خاصة وتأديب ربانى . . حتى إذا جاءه أمر بالإبلاغ كانت لديه الصلاحية الكاملة لذلك فصدع بأمر الله غير هياب ولا وجل .

« لقد كانت الحياة الخلقية فى حياة الرسول ـ ﷺ ـ من أهم العناصر

وأبعدها أثراً فى تذليل العقبات التى اعترضت سير الدعوة الإسلامية ، وجذبت إلى الإسلام الكثير من المنصفين الذين تجردوا من الأهواء ، وأحبوا الحق للحق » .

« ولقد حفظ الله رسوله الكريم فى خُلُقِه قبل أن يؤيّده بالوحى ، ثم أنزل عليه الكتاب وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق فكان المثل الأعلى فيما دعا إليه » .

« جعل الله لنبيه - ﷺ - من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال

مالايحصره حد ولايحيط به عد ، ثم أثنى عليه فى كتابه الكريم بقوله ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ فوصفه بالعظيم مما يدل على أن أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - لم يصل إليها أحد من قبل ، فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه ، ومن ثم قالت عائشة - رضى الله عنها - كان خلقه القرآن . وقد علم من كلامها أن كمالات خلقه - صلى الله عليه وسلم - لاتتناهى ، كما أن معانى القرآن الكريم لاتتناهى »(١٥٨) .

وسوف نتحدث بمزيد من التفصيل عن هذه الأخلاق فى عدد قادم إن شاء الله .

---

(١٥٨) من كلمة للأستاذ حسن مصطفى - صحيفة الأخبار - ١٩٨٩/١٠/٦ .

الوحي الإلهي

- البعثة وبدء الوحي .
- كلمة الوحي في القرآن .
- مفهوم الوحي .
- صور الوحي .
- الوحي من وراء حجاب .
- الوحي بواسطة الملك .
- كيف كان يجيء جبريل ؟
- من هو دحية الكلبي ؟
- لماذا يجيء جبريل في صورة آدمية ؟
- هل تلقى النبي الوحي مباشرة ؟
- كيفية الإنزال والوحي .
- الوحي والسنة .
- الوحي القرآني .
- لماذا كان النبي يعاني شدة عند نزول الوحي .



البعثة وبدء الوحى

على رأس الأربعين من عمره المبارك - ﷺ - كان مبثعه . .

وقدم ابن هشام فى سيرته لحديثه عن مبعث النبى - ﷺ - بذكر الآية الكريمة التى سبق واستشهدنا بها فى البشارات بالنبى - ﷺ - وهى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٥٩)

ذكرها ليستدل بها على أن الأنبياء السابقين قد أعلموا بهذه البعثة المحمدية التى أراد الله أن يختم بها الرسل والنبيين ، وأن تكون الديانة التى جاء بها هذا النبى الأمى هى الديانة التى أمروا بالتصديق بها وهى آخر الديانات وهى الديانة التى اختارها الله للبشر جميعا - قال تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٦٠)

ويستطرد ابن هشام ذاكرا حديث البعثة راويا عن ابن اسحاق قال : حدثنى وهب بن كيسان قال : قال عبيد : كان رسول الله - ﷺ - يجاور فى حراء ذلك الشهر - أى رمضان - من كل سنة ، يطعم من جاءه من

---

(١٥٩) آل عمران ٨١

(١٦٠) آل عمران ٨٥

المساكين ، فإذا قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جواره من شهره ذلك ـ كان أول مايبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة وذلك قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته . .

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله ـ تعالى ـ فيه ماأراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله فيها ، خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ بأمر الله تعالى »

عن عائشة رضى الله عنها ـ قالت :

أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم . فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ : فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ـ فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسى .

قالت خديجة : كلا ، والله مايخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به « ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصى » وهو ابن عم « خديجة » رضى الله عنها . . وكان امرأ قد تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة رضى الله عنها ـ ياابن عم ـ اسمع من ابن أخيك مايقول : فقال له ورقة : ياابن أخى ماذا ترى ؟ .

فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا . ياليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال : صلى الله عليه وسلم ـ أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى (١٦١) .

وفى رواية ابن اسحاق مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أتانى جبريل بنمط ـ أى قطعة من ديباج ـ فقال : اقرأ . . الخ .

ومعنى هذا أن جبريل جاءه بكتاب مرقوم . فإن كان هذا الكتاب المرقوم

---

(١٦١) أخرجه الشيخان

إنما أتى به جبريل ليستملى منه ، ويلقن النبى صلى الله عليه وسلم مافيه ، فهذا واضح لايحتاج إلى مناقشة ، وإن كان إنما عرضه ليقرأ منه النبى صلى الله عليه وسلم . فإن الأمر يحتاج الى مناقشة . . ذاك أن تكليفه صلى الله عليه وسلم بالقراءة من الصحيفة ، وهو لايقرأ ولايكتب تكليف بما لايطاق . فإن قيل : إن الله سبحانه وتعالى علمه حينذاك القراءة لزم عليه أنه صلى الله عليه وسلم قد انتقل بهذا من الأمية إلى التعليم ، وقد عرفنا أن أميته من دعائم إعجاز رسالته ﷺ .

والأقرب إلى الصواب أن جبريل عليه السلام جاء بتلك الصحيفة ليستملى منها ويلقن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تكون الحكمة فى نزوله بالصحيفة وعرضها على النبى صلى الله عليه وسلم عند أمره بالقراءة فى بداية الوحى ـ نقول قد تكون الحكمة فى ذلك الإشارة إلى أن ماسيتلقاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جبريل ليس من عنده ، وإنما هو عبد مأمور ، وسفير أمين يحمل إليه وحى ربه . . كما قاله تعالى

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (١٦٢)

غير أنه لما اقترن عرض الصحيفة بالأمر بالقراءة ، وكان ظاهر هذا الاقتران أن جبريل عليه السلام يأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالقراءة من الصحيفة نفسها حمل النبى عليه الصلاة والسلام الأمر على ظاهره فقال « ما أنا بقارىء » أى لست من القارئين بل أنا من الأميين حتى علم أخيرا أنها

---

(١٦٢) سورة عبس من ١١ ـ ١٦

قراءة عن ظهر الغيب لشيء لم يسبق له حفظه بل يتعلمه الآن بإذن الله الذى علم الإنسان مالم يعلم .

ويتحدث الإمام الطبرى عن بدء الوحى قائلا :

حدثنى أحمد بن عثمان المعروف بأبى الجوزاء فى سند متصل بعروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : كان أول ما ابتدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصادقة ، كانت تجىء مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق فأتاه فقال : يامحمد أنت رسول الله ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجثوت على ركبتى وأنا قائم ، ثم زحفت ترجف بوادرى ، ثم دخلت على خديجة فقلت : زملونى ، زملونى ، حتى ذهب عنى الروع ، ثم أتانى فقال : يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله . ثم قال : اقرأ.قلت : ماأقرأ . قال : فأخذنى فغطنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد ، ثم قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . .

فأتيت خديجة ، فقلت : لقد أشفقت على نفسى ، فأخبرتها خبرى ، فقالت : أبشر فوالله لايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق (١٦٣)

ويذكر بعض الرواة أنه عقب نزول الوحى بفترة جاء أبوبكر . . وكان

---

(١٦٣) انظر المختار من كنوز السنة ص ٢٠ ، ٢١

صديقا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له خديجة : ياعتيق اذهب مع محمد إلى ورقة . .

فأخذ أبوبكر بيد صديقه وقال له : انطلق بنا إلى ورقة بن نوفل .

فقال له : ومن أخبرك ؟ .

قال أبوبكر : خديجة . فانطلقا إليه .

فقص محمد ـ ﷺ ـ على ورقة مايراه ، فقال : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء من خلفى ، : يامحمد ، يامحمد ، فأنطلق هاربا فى الأرض . .

فقال له ورقة : لاتفعل ، إذا أتاك فاثبت ، حتى تسمع مايقول لكِ ، ثم ائتنى فأخبرنى .

فلما خلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع النداء يقول له : يامحمد قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

ثم قال له قل : لا إله إلا الله . .

فعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم . . [١٦٤] .

وظل ورقة بن نوفل مترقبا لبعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يؤمن به وينصره ، وكان يضمن شعره هذه المعانى يقول :

---

(١٦٤) الروض الأنف حـ ١ ص ٢٧٤ .

فان يك حقا ياخديجة فاعلمى ... حديثك إيانا فأحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال معهما ... من الله وحى يشرح الصدر منزل
يفوز به من فاز فيها بتوبة ... ويشقى به العاتى الغوى المضلل
فريقان منهم فرقة فى جنانه ... وأخرى بأحواز الجحيم تغلل
اذا مادعوا بالويل فيها تتابعت ... مقامع فى هامتهم ثم تشعل
فسبحان من تهوى الرياح بأمره ... ومن هو فى الأيام ماشاء يفعل
ومن عرشه فوق السموات كلها ... وأقضاؤه فى خلقه لاتبدل (١٦٥)

لقد آمن ورقة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل بعثته وترقب هذه البعثة لينصره . ولكنه قضى قبل أن يبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه مضى مؤمنا طيبا ، بعد أن قدم للتاريخ حقيقتين :

(الأولى) أن مرحلة التمهيد للرسالة المحمدية قد آتت ثمارها بمواءمة حاضر الوحى عند نزوله على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان يعلمه المثقفون قديما على يد الأحبار والرهبان . .

(الثانية) أن نبوة محمد ـ ﷺ ـ لم تفاجىء المجتمع ، فقد كانت على الطريق إليها معالم تؤكد أنه حقاً رسول الله وخاتم النبيين لاشك فى ذلك . (١٦٦) .

أجل ، لقد مات ورقة مسلما ، وأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رآه فى الجنة عليه ثياب الحرير.لأنه آمن به وصدقه وقال ﷺ : ورقة على نهر من أنهار الجنة .

---

(١٦٥) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤٠٥ .
(١٦٦) بشائر الرسالة الخاتمة د . رءوف شلبى ص ٣٥٧ .

كلمة الوحي في القرآن الكريم

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾ (١٦٧)

وردت كلمة الوحي بمشتقاتها في القرآن الكريم ثمانيا وسبعين مرة .

ومنها غير الآية المتقدمة قوله ـ تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ (٣٩) ﴾ (١٦٨)

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) ﴾ (١٦٩)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ ﴾ (١٧٠)

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ . (١٧١)

مفهوم الوحي

الوحي ـ لغة ـ هو الإعلام بالشيء سرا ، ولذلك كانت الكتابة والإشارة والرمز والكلام الخفي كل ذلك يسمى وحياً .

---

(١٦٧) الشورى ٥٢ ـ ٥٣ .

(١٦٨) الاسراء ٣٩ .

(١٦٩) النجم ١٠

(١٧٠) آل عمران ٤٤ .

(١٧١) طه ١١٤ .

أما فى الشرع فإن كلمة الوحى إذا أطلقت ، انصرفت إلى ذلك التعليم السرى الصادر من الله تعالى الوارد إلى الأنبياء عليهم السلام .. فالمعنى الشرعى أخص من المعنى اللغوى .

والوحى بمعناه الشرعى نوعان « ١ » تعليم بواسطة ملك « ٢ » وتعليم مباشر لا بواسطة ملك . وكلاهما يصح أن يكون فى اليقظة أو فى المنام وهى الرؤيا الصادقة ..

والتعليم بدون واسطة الملك له طريقتان .. إما بالإلهام وهو إلقاء المعنى فى النفس .. وإما بالكلام من وراء حجاب ـ أى بدون رؤية ـ كتكليم موسى عليه السلام ..

والتعليم بواسطة الملك يقع على وجهين أيضا .. لأن النبى تارة يشاهد الملك عند الوحى ، إما على صورته الحقيقية .. وهذا نادر ـ وإما متمثلا فى صورة بشر يكلمه فيعى مايقول .

وتارة لايرى النبى الملك عند الوحى ، بل يسمع عند قدومه دويا وصلصلة شديدة يعلم النبى كنهها ومصدرها فتعتريه حالة روحية غير عادية لايدرك الحاضرون منها إلا أماراتها الظاهرية كثقل بدنه وتفصد جبينه عرقا .. وربما سمعوا عند وجهه الكريم دويًا كدوىّ النحل مدة نزول الوحى . فإذا قضى الملك رسالة ربه ، وأوحى إلى النبى ما أوحى انفصم عنه ، وذهبت عنه تلك الشدة التى كان يجدها فيرجع إلى حالته العادية ، وقد وعى ما قال الملك ..

تفسير الشيخ الشعراوى للوحى :

ويبسط الشيخ الشعراوى معنى الوحى فيقول : إذا كان حديثنا عن

رسول الله - ﷺ - والوحى ، فلابد أن نعرف أولا معنى الوحى . . الوحى هو إعلام بخفاء ، أى تعلم شخصا بشىء ، ولايشعر أحد بأنك أعلمته إلا أنت وهو . فإذا كنت متفقا مثلا مع أهل بيتك على إشارات معينة لايفهمها إلا أنت وهم لإحضار الطعام والشراب ، وقمت بالإشارة لهم بحيث لم يفهمك أحد إلا هم ، فإن هذا يؤدى معنى الوحى ، لأنه إعلام بخفاء بين الموحى والموحى إليه .

والله سبحانه وتعالى - أوحى إلى رسله جميعا ، أى أن الرسالات السماوية كلها نزلت بطريق الوحى ، وفى ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١٧٢)

وساعة يأتى الوحى فإنه يسيطر على الذهن تماما ولايكون هناك موضع لفكر بشرى أو استخدام للعقل لأنه أمر فوق عقل البشر (١٧٣) . وإذا قصد بالوحى القرآن تحدد مفهومه كالآتى :

إعلام الله - سبحانه وتعالى - نبيه محمداً - ﷺ - عن طريق نزول ملك الوحى جبريل - عليه السلام - بكلامه تعالى - المعجز ، المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، وهو المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

وهذه الظاهرة للوحى القرآنى أجل طرق الوحى الشرعى ظهوراً

---

(١٧٢) النساء ١٦٣ .

(١٧٣) محمد رسول الله للشيخ الشعراوى ص ٤٦ .

وضوحا وإشراقاً » .

تفسير الوحى فى ضوء العلم الحديث

يقول د . الحسيني هاشم : إن من أقرب الآيات لتفسير ظاهرة الوحى ماتراه فى المخترعات الحديثة مثل الهاتف « التليفون » فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان من حيث لايرى الجالسون فى مجلس التخاطب شيئا ، ولايسمعون إلا أزيزا كدوى النحل الذى فى صفة الوحى . .

ومثل « اللاسلكى » الذى يحدد جهة الإرسال والاستقبال وينقل الكلام بنفس الصوت والألفاظ ، والتليفزيون الذى ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك . .

كل ذلك يقرب فكرة الوحى للأذهان المؤمنة بالمادة ولم تعرف سر الروحانية التى هى أسمى وأجل (١٧٤)

والوحى للأنبياء يأتى على صورة متعددة :

١ - يأتى فى صورة منام - ورؤيا الأنبياء حق فى منامهم - وقد رأى ابراهيم - عليه السلام - فى منامه أن يذبح ابنه اسماعيل فعد ذلك وحيا إلهيا ، وأقبل على تنفيذ الأمر . . وجاء ذلك فى قوله - تعالى :

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ

---

(١٧٤) الوحى الإلهى د. الحسين هاشم ص٢٢

﴿ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١٧٥)

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه دخل مكة وفى ذلك يقول الله ـ تعالى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٧٦)

٢ ـ يكون الوحى بواسطة كلام من وراء حجاب

يكلم الله نبيه فى هذه الحالة دون أن يراه النبى ..

وقد حدث ذلك لموسى ـ عليه السلام ـ قال الله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ

---

(١٧٥) الصافات ٩٩ : ١٠٧ .

(١٧٦) الفتح ٢٧ .

﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾(١٧٧)

إلى آخر الآيات التي أوحى الله إليه فيها بالرسالة وحمله إياها وكلفه ابلاغها لفرعون وملئه . .

وقال ـ تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ كلمه دون أن يراه ، وقد طلب موسى ـ عليه السلام الرؤية ولكنه أجيب بقوله ـ تعالى : ﴿ لن تراني ﴾ وجاء ذلك مفصلا في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾(١٧٩)

٣ ـ وقد يكون الوحي بإرسال رسول من الملائكة

يبلغ النبي مايأمره به ربه . وهذا الرسول الملكي هو الروح الأمين ، وهو ماتشير إليه الآيات الكريمة

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾(١٨٠)

---

(١٧٧) طه ٩ : ١٦ .

(١٧٩) الأعراف ١٤٣ .

(١٨٠) الشعراء ١٩٢ : ١٩٥ .

وقد اجتمعت أنواع الوحى الثلاثة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه خصيصة من خصائصه . . وقد ابتدأ الوحى له بالرؤيا المنامية إيناسا له حتى لايفجأه الملك - وهو جبريل عليه السلام - بالنبوة فلا تتحملها قواه البشرية . لأن القوى البشرية لاتتحمل رؤية الملك على صورته التى خلقه الله عليها .

عن علقمة بن قيس : « أول مايؤتى به الأنبياء فى المنام ، ثم ينزل الوحى » أى فى اليقظة وكانت رؤى الأنبياء حقاً ، لأنه لاسبيل للشيطان عليهم ، فلا تخيل ولا أضغاث أحلام . ولأن قلوبهم نورانية ، فما يرونه فى المنام له حكم اليقظة تماما . فجميع ماينطبع فى عالم منامهم لايكون إلا حقا ومن ثم جاء « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولاتنام قلوبنا » .

مدة الوحى بالرؤيا للنبى ﷺ

وكانت مدة الوحى بالرؤيا للنبى صلى الله عليو وسلم - ستة أشهر . وعلى ذلك فيكون ابتداء الوحى للنبى - صلى الله عليه وسلم - فى شهر ربيع الأول - ثم أوحى إليه فى اليقظة فى رمضان .

وهذا مايفيده قول بعضهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم ولد فى ربيع الأول ،وأوحى إليه فى ربيع الأول ، وهاجر فى ربيع الأول ، وتوفى فى ربيع الأول . . وهذه الموافقات النادرة من خصائصه - ﷺ - .

وقد جاء فى الحديث الصحيح بخصوص الرؤيا قوله - صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » (١٨١) .

---

(١٨١) الحديث فى البخارى عن أبى سعيد وفى مسلم عن أبى هريرة ورواه احمد وابن ماجه والطبرانى وفى الجامع الصغير وفى جمع الجوامع برقم ١٠٧٩٠/٢٢ جـ ٢ ص ٢٤٧ .

ومعنى هذا الحديث كما فسره الحلبى عن بعضهم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقام بمكة ثلاث عشرة سنة وفى المدينة عشر سنوات ـ فهذه ثلاث وعشرون سنة ، ومدة الوحى إليه فى المنام كانت ستة أشهر فهذه المدة تمثل جزءا من ستة وأربعين جزءا (١٨٢) .

إلا أن هناك أحاديث أخرى ورد فيها أن الرؤيا جزء من سبعين جزءا ، أو جزء من خمسة وعشرين جزءا أو جزء من تسعة وأربعين جزءاً » وعلى هذا فان المقصود بالعدد مطلق وكأنه أراد أن الرؤيا جزء من مطلق النبوة .

وقد ورد أنه لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى الرؤيا ـ كما تقول السيدة عائشة رضى الله عنها ـ فتجىء كفلق الصبح . . وهذا ضرب من الوحى آنسه به الحق سبحانه وتعالى فترة قبل أن يظهر له الملك عيانا فى غار حراء .

سماع الوحى بدون ملك

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « كان من الأنبياء من يسمع الصوت فيكون بذلك نبيا » .

وقد فسر بعضهم ذلك بأنه يحتمل أن يكون صوتا خلقه الله ـ تعالى ـ أى ليس من جنس الكلام ـ وخلق لذلك النبى ففهم المراد منه عند سماعه . . ويحتمل أن يكون من جنس الكلام المعهود . .

ومن هذه الحالات مايسمى « بالنفث » ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى . أن نفسا لن تموت حتى

---

(١٨٢) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٧٨ .

تستكمل أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولايحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فان ماعند الله لن ينال إلا بطاعته » .

وقد كان الوحى يأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل صلصلة الجرس ، وكانت هذه من أشد الأحوال على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ورد فى ذلك ما رواه الحارث بن هشام قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحى ؟

قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىَّ ، فيفصم وقد وعيت ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول . .

وعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ كان إذا نزل الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثقل لذلك وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم وربما بركت .

وجاء أنه لما نزلت سورة المائدة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها . وفى رواية فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة .

وأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : مامن مرة يوحى إلىَّ إلا ظننت أن نفسى ستقبض من شدته :

وذكرت أسماء بنت عميس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه الوحى يكاد يغشى عليه ، ويقول الدكتور مصطفى محمود فى تأثير الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« وإن الكلمات لتأتيه فتغير من جسده تماما ، وكأنما هى صدمة قاهرة لايملك لها دفعا ، فيأخذه مايشبه الغيبوبة ويتفصد جبينه عرقا ويثقل بدنه

حتى ليبرك البعير من ثقله الهائل ، إذا كان راكبا عليه . .

فإذا انفصم عنه الوحى عاد لطبيعته لفوره دونما أثر من جهد ليتلو على الناس مانزل عليه . .

« وهو على نقيض الصرع الذى حاول بعض الجهلة من المستشرقين إلصاقه بالرسول عليه الصلاة والسلام . . ذاك أن الصرع يخرب الجسد ثم يترك الذاكرة ممسوحة تماما ليس فيها شىء ، والبدن فى حالة أعياء تام يسلم صاحبه إلى نوم عميق أو إلى يقظة تختلط فيها النوايا الإجرامية بازدواج الشخصية . هذا مايعرفه الطب عن الصرع . . تخريب كامل لايعقبه أى نوع من أنواع القدرة ، وانقطاع لخيط الحياة مع العجز وفقدان السيطرة على جميع الأفعال والأقوال . .

وماكان هذا حال محمد ـ ﷺ ـ الذى كان مثالا للانتباه واليقظة واكتمال البدن ، والسلامة من جميع العلل والقدرة النفسية والجسدية على تحمل أضعاف مايتحمله الرجل الصحيح من أعباء ـ وعلى الإتيان بأضعاف مايستطيعه الرجل الصحيح من أعمال ، وكأنه أمة فى رجل . . فأين وجه الشبه إذن بين هذه الحال وحال الصرع [١٨٣] .

مجىء الملك إليه فى صورة رجل

أما عند مجىء الملك إليه فى صورة رجل فلم تكن تصحبه هذه الحالة التى ذكرناها آنفا . .

أى لاتوجد هذه الرعدة ولا تلك الشدة التى يتعرض لها ولاهذه الغشية التى تصيبه . .

---

(١٨٣) محمد ـ د . مصطفى محمود ـ ص ٢٨ .

إنه أمام منظر مأنوس إليه محبوب له . .

أما إذا جاءه فى صورة ملائكية فعند ذلك تحدث له الحالة الشديدة التى تعتريه . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وان جبينه ليتفصد عرقا . .

وتعليل ذلك هو تقريب الطبيعة البشرية إلى ملاءمة الطبيعة الملائكية والجو الملائكى ، إنها بتعبير ابن خلدون : انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملائكية الروحانية . .

وفى هذه الحالة يحدث عند قدوم الملك صوت صلصلة مثل صلصلة الجرس إيذانا بقدوم الوحى ، والحكمة فى ذلك أن يتهيأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يفرغ سمعه للوحى فلا يبقى فيه مكان لغيره .

روى أحمد فى مسنده عن عبدالله بن عمر : سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل تحس بالوحى ؟ فقال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلىَّ إلا ظننت نفسى تقبض . .

يعنى أنها تقبض من عالم البشرية إلى عالم الملكية حيث يلقنه جبريل الآيات . .

وكان أحياناً يتابع جبريل فى كل حرف مردداً على لسانه الشريف مايسمعه حتى قال الحق له :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (١٨٤)

---

(١٨٤) القيامة ١٦ : ١٩ .

وقال له :

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١٨٥)

وكثيرا مايأتيه الملك فى صورة رجل جميل الشكل والهيئة . .

ومنه ماورد فى حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما نحن عند رسول الله ـ ﷺ ذات يوم . . طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر . . (١٨٦) .

وتارة كان يعرفه النبى ـ ﷺ ـ وتارة لايعرفه . . وسيأتى الحديث بتمامه .

من هو دحية الكلبى ؟

هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرىء بن القيس بن الخزرج . .

صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهد أحدا ومابعدها ، وبعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى قيصر رسولا سنة سبع من الهجرة فى الهدنة . . فآمن به قيصر ، وامتنع عليه بطارقته . .

وكانت له أحاديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ رواها عنه الشعبى وغيره . .

وكان يحب النبى ـ ﷺ ـ حبا جما ، ويؤثره على نفسه ، روى الترمذى فى سند عن المغيرة قال : أهدى دحية الكلبى لرسول الله ـ ﷺ ـ خفين فلبسهما .

---

(١٨٥) طه ١١٤ .

(١٨٦) رواه البخارى وسيأتى الحديث كاملا .

وكان النبى - ﷺ - يكافىء على الهدية مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (١٨٧)

وقد روى ابن الأثير فى سند متصل بدحية الكلبى قال : أتى رسول الله - ﷺ - بقباطى فأعطانى منها قبطية (١٨٨) .

وقد أسلم دحية قديما ولكنه لم يشهد بدرا . .

وكان جبريل - فيما يذكر ابن الإثير وابن سعد فى طبقاته - يأتى فى صورته . .

وقال ابن سعد : شَبَّه النبى - ﷺ - ثلاثة نفر فقال : دحية الكلبى يشبه جبريل ، وعروة بن مسعود الثقفى يشبه عيسى بن مريم ، وعبدالعزى بن قطن يشبه الدجال .

وقال راويا عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى عن أبيه عن ابن شهاب قال : قال رسول الله - ﷺ - أشبه من رأيت بجبريل دحية الكلبى .

قال : وأخبرنا خالد بن مخلد قال : حدثنا عبدالله بن عمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : وثب رسول الله - ﷺ - وثبة شديدة فنظرت فإذا معه رجل واقف على برذون وعليه عمامة بيضاء قد سدل طرفها بين كتفيه ، ورسول الله - ﷺ - واضع يده على معرفة برذونه - أى منبت عرفه من من رقبته - فقلت : يارسول

---

(١٨٧) النساء ٨٦ .

(١٨٨) أسد الغابة حـ ٢ ص ١٥٨ - والقباطى : جمع قبطية ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر .

الله ، لقد راعتنى وثبتك ، من هذا ؟ قال : أرأيته ؟ قلت : نعم . قال : ومن رأيتِ ؟ قلت : رأيت دحية الكلبى . قال : ذاك جبريل ـ عليه السلام ـ » وقد اختار النبى ـ ﷺ ـ دحية بن خليفة الكلبى ـ رسولا له إلى قيصر ومعه كتاب أمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر . . فأداه دحية كما طلب منه ، ودفعه إلى عظيم بصرى فدفعه إلى قيصر ، وقيصر يومئذ بحمص ، فقرأ الكتاب ، وجمع عظماء الروم فى دسكرة له بحمص فقال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت الله ملككم وتتبعون ماقال عيسى بن مريم ؟ .

قالوا : وماذاك أيها الملك ؟

قال : تتبعون هذا النبى العربى .

فحاصوا حيصة حمر الوحش ، وتدافعوا ورفعوا الصليب .

فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم . وخافهم على نفسه وملكه ، فهدأهم ، ثم قال : إنما قلت لكم ماقلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم فى دينكم ، فقد رأيت منكم الذى أحب . فسجدوا له [189] وكانت هذه الرسالة سنة سبع من الهجرة فى محرم .

لماذا ينزل جبريل فى صورة آدمية ؟

ذكرنا أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان ينزل أحياناً فى صورة آدمية تأنيساً للنبى ـ ﷺ ـ وهو يتحدث معه . . ويذكر بعض العلماء أن نزول جبريل فى تلك الصورة إنما يكون فى وحى السنة لافى وحى القرآن . أما فى وحى القرآن فكان ينزل بصورة ملائكية ولايراه ولايسمعه غير الرسول عليه

---

(١٨٩) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ١٦ .

الصلاة والسلام . . كما وأن الصورة الملائكية التى كان ينزل بها جبريل بالوحى ليست هى صورته التى خلقه الله عليها لأن صورته الحقيقية لاتقوى النفس على مطالعتها .

وقد رأى النبى - ﷺ - جبريل على صورته الحقيقية - جاء عن عائشة وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - لم ير جبريل على صورته التى خلقه الله عليها إلا مرتين : الأولى حين كان بحراء فى أوائل البعثة . رآه بالأفق الأعلى من الأرض ، وهذه المرة هى المعنية بقوله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٩٠)

وبقوله - تعالى -

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (١٩١)

وقد روى أن جبريل طلع من المشرق فسد الأفق إلى المغرب فخر النبى ﷺ مغشياً عليه ، فنزل جبريل - عليه السلام - فى صورة آدمية وضمه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه . . والأخرى ليلة الإسراء والمعراج ، وهى المعنية بقوله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٩٢)

وذكر الحلبى أيضا فى سيرته قال : جاء فى الخصائص الصغرى : خص النبى - صلى الله عليه وسلم - برؤيته جبريل - عليه السلام - فى صورته التى

---

(١٩٠) التكوير ٢٣ .
(١٩١) النجم ٥ : ٧ .
(١٩٢) النجم ١٣ ، ١٤ .

خلقه الله عليها ، أى لم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا - صلى الله عليه وسلم .

وفى قصة رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - لجبريل على صورته الحقيقية قال القرطبى فى تفسيره :

حكى الثعلبى عن ابن عباس قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لجبريل : إنى أحب أن أراك فى صورتك التى تكون فيها فى السماء ؟

قال : لن تقدر على ذلك .

قال : بلى .

قال : فأين تشاء ذلك ؟

قال : بالأبطح .

قال : لن يسعنى .

قال : فبمنى .

قال : لا يسعنى .

قال : فبعرفات .

قال : ذلك بالحرى أن يسعنى .

فواعده ، فخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - للوقت ، فإذا هو قد أقبل بخشخشة وكلكلة من جبال عرفات ، قد ملأ مابين المشرق والمغرب ، ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه النبى - صلى الله عليه وسلم - خر مغشيا عليه ، فتحول جبريل فى صورة بشرية وضمه إلى صدره ، وقال : يامحمد لاتخف فكيف لو رأيت إسرافيل ، ورأسه من تحت العرش

ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة ، وان العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير مثل الوصع ـ العصفور ـ حتى مايحمل عرش ربك إلا عظمته .[١٩٣]

هذه حالات فريدة ولكن غالب ماكان يراه كان يراه فى صورة رجل . قد يكون دحية ـ الذى تحدثنا عنه ، وقد يكون غيره ، وقد يراه الحاضرون مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسمعونه وهو يحدث الرسول ـ ﷺ ـ ولايعرفون حقيقته .

وليس فى هذه الحالة شدة تعترى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتصبب منها عرقا كما يحدث فى الحالات الأخرى ، وهذه الصورة من الوحى ـ أى مجىء الملك فى صورة بشرية ـ تكون فى وحى السنة ـ كما قلنا .

جاء فى البخارى فى سند متصل[١٩٤] .

حدثنا مسدد قال : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا أبوحيان التميمى ، عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال : كان النبى ـ ﷺ ـ بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال :ما الإيمان ؟قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث .

قال ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استعطت .

قال : ماالإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

---

(١٩٣) تفسير القرطبى ـ سورة التكوير ـ ص ٧٠٣٢ ط دار الشعب .
(١٩٤) كتاب بدء الوحى ـ البخارى ـ حـ ١ ص ٣٢ .

قال : متى الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . .

ثم تلا النبى - ﷺ - قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١٩٥)

ثم أدبر ، فقال : ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال النبى - ﷺ - : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

هل تلقى النبى الوحى مباشرة ؟

قال الحلبى : ومن حالات الوحى أن الله - تعالى : أوحى إليه - ﷺ - بلا واسطة ملك . وكان ذلك ليلة المعراج ، ذكر ذلك ابن القيم فى قوله : السادسة من حالات الوحى : ما أوحاه الله - تعالى - إليه ، وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها ، لأن ذلك إنما هو ليلة المعراج بغير واسطة ملك .

ويقول السيوطى - رحمه الله - : « وليس فى القرآن من هذا النوع ، أى مما شافهه به الحق - سبحانه وتعالى : شىء فيما أعلم .

نعم يمكن أن يعد منه - كما ذكر بعض العلماء - آخر سورة البقرة : أى - آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه . . إلى آخر الآيات ، لأنها نزلت بقاب قوسين . . وربما كان من ذلك بعض سورة الضحى ، وألم نشرح ، فقد أخرج ابن أبى حاتم من

---

(١٩٥) لقمان ٣٤ .

حديث عدى بن ثابت ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته ، قلت : أى رب ، اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، فقال : يامحمد ، ألم أجدك يتيما فآويت ، وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أُذْكَرُ الا وتذكر معى ؟ (١٩٦) .

هل كان جبريل ينزل وحده ؟

روى عن ابن جرير قال : مانزل جبريل بوحى قط إلا ونزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يوحى إليه ، يطردون الشياطين عنهما ، لئلا يسمعوا مايبلغه جبريل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغيب الذى يوحيه إليه فيلقوه إلى أوليائهم . .

وذكر السيوطى فى الاتقان نقلاً عن ابن حبيب : من القرآن ما نزل مشيّعاً بالملائكة ، ومنه سورة الانعام ، شيعها سبعون ألف ملك ، وفاتحة الكتاب . نزلت ومعها ثمانون ألف ملك ، وآية الكرسى نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك ، وسورة يس نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك ، وآية :

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١٩٧)

نزلت ومعها عشرون ألف ملك ، وسائر القرآن نزل به جبريل مفرداً بلا تشييع (١٩٨)

---

(١٩٦) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى حـ ١ ص ١٦١ .
(١٩٧) الزخرف ٤٥ .
(١٩٨) الاتقان فى علوم القرآن حـ ١ ص ١٣٨ .

كيفية الإنزال والوحى :

وتحدث العلماء عن كيفية الإنزال والوحى ، وهل الوحى خاص بالقرآن فقط ، أم أن هناك وحياً غير القرآن ؟

وقد أجاب السيوطى عن ذلك بقوله :

قال الأصفهانى : اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله منزل ، واختلفوا فى معنى الإنزال ، فمنهم من قال : الإنزال هو إظهار القراءة .

ومنهم من قال : إن الله ـ تعالى ـ ألهم كلامه جبريل وهو فى السماء فى عال من المكان وعلمه قراءته ، ثم نزل جبريل فأداه فى الأرض .

وفى تلقى التنزيل طريقان : أحدهما أن النبى ﷺ ينخلع من صورته البشرية إلى صورة الملكية ويتلقاه من جبريل .

والثانى : أن الملك ينخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه .

والأول أصعب الحالين . .

أما الطيبى ، فيرى أن نزول القرآن على النبى ﷺ كان بواسطة الملك ، الذى يتلقاه من الحق سبحانه وتعالى تلقيا روحانيا ، أو أن يحفظ الملك القرآن من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول فيلقيه عليه . .

ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته فى السماء الدنيا بعد الإثبات فى اللوح المحفوظ . .

والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحانيا ، أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم .

ويقول السيوطى بعد أن استعرض طائفة من أقوال العلماء .

إن جبريل تلقف الوحى من الله ـ تعالى ـ سماعاً ، ونزل به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويؤيد ذلك ماأخرجه الطبرانى من حديث النواس ابن سمعان مرفوعاً : « إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ـ عليه السلام ـ فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهى به على الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ فيقول : قال الحق .. فينتهى به حيث أمر »

وينقل السيوطى عن الجوينى قوله : كلام الله المنزل على الأنبياء والرسل قسمان ..

قسم قال الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل إليه : إن الله يقول : افعل كذا وكذا ، وأمر بكذا بكذا ففهم جبريل ماقاله ربه ، ثم نزل على ذلك النبى وقال له ماقاله ربه ، لا يغير من معناه شيئاً ـ وإن تغيرت العبارة ـ .. كما يقول الملك لمن يثق به من المخلصين : قل لفلان يقول لك الملك : اجتهد فى الخدمة ، واجمع جندك للقتال ، فإن قال الرسول : يقول لك الملك : لا تتهاون فى خدمتى ولا تترك الجند تتفرق وحثهم على المقاتلة ، لا ينسب إليه كذب ولا تقصير فى أداء الرسالة .

وقسم آخر قال الله لجبريل : اقرأ على النبى هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير ... كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان ، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً .

والقرآن هو القسم الثانى ..

والسنة من القسم الأول فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى . .

أما القرآن فلا تجوز روايته بالمعنى ، لأن جبريل أداه باللفظ المحفوظ الذى لا يتغير ولا يتبدل . . '

والسر فى ذلك أن المقصود فى القرآن الكريم.التعبد بلفظه والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقام لفظه لأن كل حرف منه تحته معان لا يحاط بها . .

وذكر السيوطى خبراً فى ذلك قال : أخرج ابن أبى حاتم ، عن طريق عقيل عن الزهرى أنه سئل عن الوحى ، فقال :

الوحى ما يوحى الله به إلى نبى من الأنبياء ، فيثبته فى قلبه ، فيتكلم به ويكتبه ، وهو كلام الله . . ومنه مالا يكتبه ولا يأمر بكتابته ، ولكنه يحدث به الناس حديثاً ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه (١٩٩)

الوحى القرآنى :

قال الله فى شأن الوحى القرآنى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٢٠٠)

، ومفاد ذلك أنه ليس لجبريل وهو الروح الأمين دخل فى الوحى بالقرآن ، فليس له سوى التبليغ المأمور به ، لأنه من أمر الله . . وكذلك ليس لمحمد

---

(١٩٩) المرجع السابق .

(٢٠٠) الشعراء ١٩٢ : ١٩٥

ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل فيما أوحى إليه ، ولم يكن على علم به قبل أن يوحى به إليه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٢٠١)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢٠٢)

هذه هو طريق الوحى القرآنى كما تحدده هذه الآيات الكريمة ، هو الطريق الجلى الواضح الصريح ، الذى يلتقى فيه الملك الأمين بالنبى الكريم ـ عليهما السلام ـ لقاء مباشراً لا لبس فيه ولا غموض ، فيتلقى النبى ﷺ الوحى من الملك كما تلقاه الملك من الله مباشرة .

فظاهرة الوحى القرآنى ظاهرة السمات لا لبس فيها ولا غموض ، ولا اختلاط فيها بعوامل النفس أو الإلهام أو الرؤيا . إنه الطريق الذى اختاره الله لكلامه . . فليس هو بكلام جبريل ، ولا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه الوحى من الله إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين »

---

(٢٠١) القصص ٨٦

(٢٠٢) الشورى ٥٢

والقرآن الكريم يطلق عليه « الكتاب » من بين الكتب التى نزلت من السماء ، بمعنى أنه إذا ذكر الكتاب انطلق الذهن إلى القرآن مباشرة . . وقد ورد هذا المدلول فى قوله ـ تعالى ـ

« الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »[٢٠٣]

وهذا واضح من الآية السابقة : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »

وواضح من قوله ـ تعالى ـ

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢٠٤]

وواضح من آيات أخرى كثيرة أطلق فيها لفظ الكتاب وأريد به القرآن الكريم . . كما أنه إذا ذكر « كلام الله » انصرف أيضاً إلى القرآن الكريم دون غيره من كلام الله الذى أنزل على الرسل السابقين . .

وهذه خصيصة من خصائص القرآن الكريم . .

كما أنه إذا أطلق لفظ الرسول انصرف إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أن هناك رسلاً آخرين .

---

(٢٠٣) البقرة ١ ، ٢

(٢٠٤) ص ٢٩

ولذلك وجه إليه الخطاب بهذا الوصف فى آيات كثيرة مثل قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ (٢٠٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٢٠٦)

وذكر بهذا الوصف فى آيات كثيرة أيضاً مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ (٢٠٧)

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢٠٨)

لماذا كان النبى ﷺ يعانى شدة فى نزول الوحى ؟ :

سبق أن قلنا إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعانى شدة فى أثناء نزول الوحى عليه . .

وعلة هذه الصعوبة كما يرى العلماء . أن القرآن الكريم ينزل فى جو ملائكى ، يُنْقَلُ النبى ﷺ إليه ويهيأ له ، ليستعد لما يلقى إليه ، فينتزع انتزاعاً من كل ماحوله ، حتى يتفرغ قلبه وسمعه تماماً لتلقى القرآن الكريم . .

---

(٢٠٥) المائدة ٤١

(٢٠٦) المائدة ٦٧

(٢٠٧) النساء ١٧٠

(٢٠٨) النساء ٨٣

إنها ظاهرة الوحى القرآنى التى تصل بالنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى حالة توجد ثقلاً ملموساً فى جسده ، وَعَرَقاً متقاطراً مثل الجمان من جبينه ، إنه أمر خارج عن الإرادة البشرية ، وليس هو من تأثير حر قائظ فى يوم شديد الحر ، فإن ذلك كان يحدث كثيرا فى اليوم الشديد البرودة ، وقد أكدت ذلك السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : ويبلغ ثقل جسمه إلى أن راحلته تبرك به إلى الأرض فلا تستطيع أن تحمله ..

هذا الطريق الملائكى هو الطريق الوحيد بالنسبة لنزول القرآن الكريم (٢٠٩)

والذى يؤيد أن القرآن لم ينزل إلا فى هذا الجو الملائكى مارواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : سألت النبى ﷺ هل تحس بالوحى ؟ قال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فمامن مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض .

وقد أخبرت السيدة عائشة - رضى الله عنها - قائلة : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - اذا نزل الوحى يتغير لونه ويعرق حتى ينحدر منه مثل الجمان .

إنه القرآن الكريم الذى أخبر عنه الحق بقوله :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ (٢١٠)

وكانت هذه الظاهرة العجيبة التى تحدث للرسول ﷺ حين ينزل القرآن لا يخفى أمرها على أحد .

---

(٢٠٩) الوحى الالهى د . الحسيني هاشم ص ٣٢
(٢١٠) المزمل ٥

حيث يشتد الأمر على النبى ، وَيُسْمَعُ عند وجهه أصوات مختلطة تشبه دوى النحل ، ثم لا يلبث أن يسرى عنه ، فإذا هو يتلو آيات من القرآن الكريم . .

إنها ظاهرة غير متكلفة ولا مصطنعة ولا مرضية ـ كما يزعم بعض جهال الغرب .

ولكنها أمر غير اختيارى ، يتنابه فى أحوال مختلفة ، ليلاً أو نهاراً ، مقيماً أو مسافراً ، قائماً أو قاعداً .

هو أمر يأتى فجأة ، ويذهب فجأة ، ولا يترك فى ذهابه أثراً من تلك الآثار التى تعترى المصابين بالأمراض العصبية المختلفة .

ومن العجيب أن هذا القرآن الذى كان يعانى منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه المعاناة الشديدة ، فى أثناء تلقيه جعله الله سهلاً فى التلاوة ، يسيراً فى الحفظ ، قال ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢١١)

الملك لا يتمثل فى صورة رجل حين يلقى القرآن :

وقد ذكر العلماء أن الملك لم ينزل بالقرآن وهو فى صورة رجل . وإنما كان ينزل فى صورة رجل ، عندما يوحى بالسنة . . وهذه الحالة من حالات الوحى كان لا يجد فيها النبى ﷺ المعاناة التى يجدها فى الحالة الأولى . . .

فوحى السنة لا تصحبه تلك الشدة ، لأنه يأتى عن طريق يتمثل فيه الملك فى

---

(٢١١) القمر ٣٢

صورة بشر ، كما رأينا فى الحديث الذى ذكرناه آنفاً ، أو يأتى عن طريق الإلهام والنفث الذى أشرنا إليه ..

ولو نزل القرآن الكريم عن طريق ملك يتمثل بشراً لقال الكفار ـ وهم يتلمسون الأسباب لتكذيب النبى ﷺ ـ إنما يعلمه بشر جاء إليه من مكان وقد رأيناه يعلمه القرآن ..

ولقد قالوا ذلك فعلاً حين رأوا غلاماً للفاكه بن المغيرة اسمه ـ جبر ـ وكان نصرانياً فأسلم ، رآه الكفار يتعلم من النبى ﷺ أمر الدين فقالوا : إن محمداً يتعلم منه .. وقد كذبهم القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٢١٢)

قالوا ذلك مع أن هذا الغلام الذى يتردد على النبى ﷺ أعجمى لا يدرك جمال العربية وبلاغتها وفصاحتها ، ولسانه لا يكاد يبين بها .. فهل هناك افتراء وكذب أكبر من هذا ؟؟

إن نزول القرآن بهذه الصورة العجيبة التى تصاحب النبى ﷺ فتغير من حالته وتثقل جسمه وتجعله يتفصد عرقاً فى شدة البرد ، أمر قاطع بكذب افتراءات المفترين حول القرآن الكريم ..

---

(٢١٢) النحل ١٠٣

وانتقال النبى ﷺ إلى هذا الجو الملائكى وانقطاعه كلية فى أثناء تلقى الوحى عما حوله مناسب تماماً لجلال هذه القرآن وعظمته وإعجازه وتحديه . .

الملك الموكل بالوحى « الروح الأمين »

والملك الموكل بالوحى من بين الملائكة هو جبريل عليه السلام

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن سابط قال : فى أم الكتاب كل شىء هو كائن إلى يوم القيامة ، وقد وكل ثلاثة من الملائكة بحفظه ، فوكل جبريل بالكتب والوحى إلى الأنبياء ، وبالنصر عند الحروب ، وبالمهلكات إذا أراد الله أن يهلك قوماً .

ووكل ميكائيل بالقطر والنبات .

ووكل ملك الموت بقبض الأنفس . .

فإذا كان يوم القيامة عارضوا ـ أى قابلوا ـ بين حفظهم وبين ما كان فى أم الكتاب فيجدونه سواء .

وأخرج أيضاً عن عطاء بن السائب قال : أول ما يحاسب جبريل لأنه كان أمين الله على رسله .

ويطلق على جبريل « الروح الأمين » وقد جاء ذكره أو الاشارة إليه فى مواضع عدة من القرآن الكريم منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢١٣)

---

(٢١٣) الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤

كما يطلق عليه الروح فقط أو روح القدس ، كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢١٤)

قال القرطبى : روح القدس يعنى جبريل ـ عليه السلام ـ نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه . . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، وأن جبريل هو أمين الوحى ، وأنه هو المخصص بنزول القرآن ، فما معنى ما جاء فى حديث آخر ، ان الله وكل اسرافيل بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث سنوات فى أول أمره ؟ وما معنى ماورد بشأن نزول الفاتحة ، من أن ملكا نزل بها لم ينزل إلى الأرض قط ؟ . . وللإجابة عن ذلك قال العلماء . . .

أما ان إسرافيل قد وكل بالنبى ﷺ فقد وكل به فى أثناء الوحى المنامى الذى كان مقدمة للوحى القرآنى الذى سينزل به جبريل بعد ذلك ، حتى لايفاجأ بعظمة هذا الوحى الذى يصعب على القوى البشرية تحمله دون تمهيد له . .

وأما أن ملكاً لم ينزل إلى الأرض نزل بسورة الفاتحة فإن هذا الملك لم ينزل إلا وكان جبريل مع النبى ﷺ فقد أورد ابن كثير فى تفسيره ، عن ابن عباس

---

(٢١٤) النحل ١٠٢

ـ رضى الله عنها ـ قال : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده جبريل إذ سمع صوتاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبى ﷺ فقال :

أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته .. وهذا لفظ النسائى (٢١٥)

ومعنى هذا أن جبريل نزل بالآيات ، وهذا الملك نزل بالخبر عن مزاياها ..

وهذا ما أشار إليه القرطبى فى تفسيره حيث قال : إن نزول الفاتحة كان بمكة نزل بها جبريل ـ عليه السلام ـ فيكون جبريل قد نزل بتلاوتها فى مكة ونزل هذا الملك بثوابها فى المدينة والله أعلم (٢١٦)

والدليل على أن جبريل عليه السلام هو الذى نزل بجميع القرآن قوله تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢١٧)

---

(٢١٥) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٢٤ .
(٢١٦) تفسير القرطبى حـ ١ ص ١١٦ ط دار الشعب .
(٢١٧) الشعراء ، ١٩٣ ، ١٩٤

القرآن الكريم

- لم سمي قرآنا ؟
- سور القرآن .
- أول ما نزل من القرآن .
- أول آية نزلت في موضعها .
- الآيات المكية والمدنية .
- آخر ما نزل من القرآن .
- خصائص القرآن المكي والمدني .
- لماذا نزل القرآن منجما ؟
- الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية والنبوية .
- جمع القرآن وترتيبه .
- معنى أن القرآن نزل على سبعة أحرف .
- إعجاز القرآن .
- من أسباب النزول .
- موقف الكفار من القرآن .
- المستشرقون والقرآن .
- واجب المسلمين نحو القرآن .
- آداب تلاوة القرآن وحفظه .



« القرآن الكريم »

ومتى ما تحدثنا عن الوحي ، فالمقام يستدعي الحديث عن القرآن الكريم الذي هو شغل هذه السلسلة الشاغل . . وسوف نوجز حديثنا بقدر المستطاع لأن الحديث عنه أوسع من أن يحيط به الحصر وقد كتبت فيه جوامع وأمهات من الكتب لا حصر لها . .

كلمة القرآن في القرآن :

وردت كلمة القرآن في القرآن الكريم ثمانياً وخمسين مرة

ووردت كلمة قرآن بدون « أل » اثنتي عشرة مرة

ووردت كلمة الذكر ـ ويقصد بها القرآن ـ اثنتين وخمسين مرة

ووردت كلمة الفرقان ـ ويقصد بها القرآن ـ في قوله ـ تعالى ـ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (٢١٨)

ووردت كلمة الكتاب ـ ويقصد به القرآن ـ في مواضع متفرقة منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩) ﴾

وقوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (٢٢٠)

---

(٢١٨) الفرقان ١

(٢١٩) البقرة ٢

(٢٢٠) البقرة ١٥١

وقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (٢٢١)

وقوله تعالى .

﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (٢٢٢)

لقد سمى الله القرآن بأسماء مختلفة ، فهو كما علمنا : القرآن ، وهو الذكر ، وهو الفرقان ، وهو الكتاب ، وهو التنزيل ، وهو كلام الله ، وهو النور ، كما قال سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ (٢٢٣)

وهو موعظة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢٢٤)

وهو القول الفصل :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢٢٥)

---

(٢٢١) البقرة ١٧٦
(٢٢٢) الأعراف ١٩٦
(٢٢٣) النساء ١٧٤
(٢٢٤) يونس ٥٧
(٢٢٥) الطارق ١٣ ، ١٤

وهو النبأ العظيم :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢٢٦)

وهو التنزيل :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ (٢٢٧)

وهو الوحى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢٢٨)

وهو البيان :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (٢٢٩)

ولكن الاسم الجامع لكل هذه الأسماء هو القرآن . . إنه العَلَمُ وبقية الأسماء صفات له .

وإذا أطلقت كلمة القرآن انصرفت إلى التنزيل العزيز الذى نزل على محمد ﷺ ، وقد بدأ ابن منظور مادة (قرأ) فى معجمه بتفسير معنى القرآن ، وقال فى تعليل ذلك : وإنما قدم على ماهو أبسط منه لشرفه

---

(٢٢٦) ٦٧ سورة ص

(٢٢٧) الشعراء ١٩٢

(٢٢٨) الأنبياء ٤٥

(٢٢٩) آل عمران ١٣٨

واستشهد بكلام أبي إسحاق النحوى فى قوله : يسمى كلام الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ كتاباً وقرآناً وفرقاناً ، ومعنى القرآن الجمع وسمى قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها ، أما معنى قرآنه فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢٣٠)

فهو القراءة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : فإذا بيناه لك بالجمع والقراءة فاعمل بما بيناه .

لم سمى قرآناً ؟

يقول الفراء : إنه مشتق من القرائن لأن الأيات فيه يصدق بعضها بعضاً

وقال الراغب : سمى قرآناً لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة

وقال قطرب : إنما سمى قرآناً لأن القارىء يظهره ويبينه من فيه

وقال السيوطى أيضاً : وأما تسميته كتاباً فلجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه ، والكتاب لغة : الجمع

هذه هى تسمية القرآن ، وهى تسمية توقيفية من عند الله ـ تعالى ـ فكيف جاءت كلمة المصحف ؟

ذكر السيوطى فى ذلك ما حاكاه المظفرى قال : لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه ، فقال بعضهم : سموه انجيلاً ، فلم يرتضوا ذلك . وقال بعضهم : سموه سفراً فترددوا فى ذلك أيضاً فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتاباً يسمونه المصحف فسموه به . .

---

(٢٣٠) القيامة ١٧

ســـور القرآن :

السور جمع سورة ، واشتقاقها من السؤر ـ بالهمزة ـ وهو البقية من الشراب فى الإناء فكأن السورة جزء أو قطعة من القرآن ، وقد تسهل الهمزة

وبعضهم يقول : انها بدون همزة أصلاً ، وهى تشبه سور البناء أى القطعة منه،أو كأنها سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها ، ومنه السوار الذى يحيط بالمعصم . .

وقيل سميت بذلك لارتفاعها لأنها كلام الله ، والسورة هى المنزلة الرفيعة .

وتسمية السور بأسمائها توقيفية ولأسرار علية ، وقد نبه الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره على بعض الأسرار فقال : « اعلم أن الله عز وجل سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وببعضها كالبقرة ، وبالمخلوقات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور ، كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأماكن كالبلد والبروج ، وببعض النباتات كالتين ، وبكل شىء مما نراه ومالا نراه ، كالمرسلات والنازعات والجن وغير ذلك .

والمتأمل فى أسماء هذه السور يراها ترمز إلى حقائق يمكن له أن يدرك بعضها على حسب ما يفتح به الله عليه من فهم وإدراك

ولنضرب لذلك مثلاً : سميت سورة البقرة بذلك لورود ذكر بقرة بنى إسرائيل فيها ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢٣١)

وفى هذه القصة من العبر والعظات والمعانى ماهو كفيل أن يوجه الناس أنظارهم إليه ، كعناد بنى اسرائيل وتشددهم فى أمور لا تستحق التشدد فيها ، فتكون مغبة ذلك عليهم ، فلو أنهم استجابوا إلى أمر موسى ـ عليه السلام ـ لهم من أول مرة لما حملوا أنفسهم عناء شديداً فى طلب بقرة تجمع كل الصفات التى أوردتها الآيات ، حتى أنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها

---

(٢٣١) البقرة من ٦٧ : ٧٣

إلا بملء جلدها ذهباً كما ذكر الرواة ولذلك ضرب المثل بتعنت بنى اسرائيل فقيل : لاتكونوا كبنى إسرائيل شددوا فشدد عليهم .

وليست هذه أول مرة يشددون على أنفسهم فيها ، ولكن هذا التشدد عادة درجوا عليها وجاءت هذه القصة كدليل على ذلك .

ومع أن السورة فيها آيات كثيرة توضح فساد بنى اسرائيل وعنادهم وكفرهم بعد إيمانهم وترددهم الشديد الذى يوضح سوء نواياهم وقبح سرائرهم ، إلا أن أوضح مثل يفصل ذلك تماماً هو هذه القصة التى حكيت فى أروع بيان وأجمل نسق .

إن هذه القصة تضع أمامنا صورة لهذا العناد فنحذره ونحذر أصحابه ، ونعلم أى لون من الناس أصبح المسلمون الأوائل يختلطون بهم فى المدينة ، بعد أن أصبحت موطن الدين الجديد ومستقر المسلمين بعد الهجرة ،

سورة آل عمران :

أما سورة آل عمران فقد سميت بذلك لتفتح أذهاننا إلى أن الله يخص برحمته من يشاء ويصطفى للهداية من يشاء .. لقد ذكرت سورة البقرة السابقة عليها طوائف من الضالين تمثلت فى المنافقين وفى اليهود وفى المشركين ، وهذه السورة ذكرت طائفة من المهتدين اختصهم الله واصطفاهم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢٣٢)

---

(٢٣٢) آل عمران ٣٣ ، ٣٤

واختص آل عمران بهذا الفضل لأنهم كانوا قدوة فى الصبر والاستسلام لأمر الله والرضا بقدره وكانوا آية فى الإيمان القوى واليقين الكامل والثقة فى الله جل وعلا والتوكل عليه . .

سورة الرعد :

لعلها سميت بذلك لتلفت نظرنا إلى هذه الظاهرة الكونية التى تحيط بنا ، والتى تدل دلالة قوية على قدرة الله ـ تعالى ـ فنعرف سر هذه الظاهرة ، وندرسها دراسة علمية متخصصة متدبرة ، ونهتدى من ورائها إلى أسرار علمية تقودنا إلى غيرها ، وترشدنا إلى ما يفيدنا فى حياتنا ، ويعمق إيماننا بالله واليوم الآخر ، ونعرف أن الاسلام ليس دينا فقط ، بل هو دين ودنيا ، انظر إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢٣٣)

إن نسق التعبير هنا يوحى بكثير من الدلائل ، فهذه ظواهر طبيعية يترتب بعضها على بعض ، برق ، فسحاب ، فرعد ، فصواعق . تصيب المجادلين فى الله بغير علم وهو وحده القوى القادر العظيم . .

إن القرآن يخاطبنا عن طريق تسمية هذه السورة طالباً منا أن نتنبه لقدرة الله الخارقة ، حاثاً لنا على النظر فى معرفة ظواهر الكون المختلفة ، للتعرف

---

(٢٣٣) الرعد ١٢ ، ١٣

عليه وعلى عظمته ، وفى الوقت نفسه نفتح لأنفسنا آفاقاً من العلم تجعلنا لتفوق فى حياتنا وننتفع بما يمكن الانتفاع به .

النحـــــل :

وفى التسمية بالنحل تنبيه لما ورد فى هذه السورة حول هذه الحشرة الصغيرة التى سخرها الله لتقدم للإنسان أجل خدمة يعجز عنها أمهر الأطباء وأذكى الحكماء ، إنها تحول ما تجنيه من رحيق الأزهار إلى شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، وقد ضربت هذه الحشرة المثل الكامل فى الإيثار وانكار الذات والسعى المتواصل والدأب المستمر فى خدمة الحياة ، مع نظام كامل ، وتعاون عظيم ، وتدبير محكم ، ونظافة تامة ، فهل يتعلم الإنسان الطامع الأثر الجشع من هذه الحشرة ما ينفعه فى حياته ويسعده بعد مماته ؟

إن هذه الحشرة الصغيرة تقدم لنا أمثلة من روائع الأخلاق التى نحن فى أمس الحاجة إليها .

النمـــــل :

ولعل فى تسمية النمل تفقيهاً لنا وتعليماً لنا بأن الله قادر على أن يضع سره فى أضعف مخلوقاته ، فهذه الحشرة التى لا يأبه بها أحد استطاعت أن تدبر مملكتها الصغيرة أحسن تدبير ، وأن تنظر فى شئون رعيتها ، بحكمة منقطعة النظير ، حتى إنها لم تغفل عن الخطر المحدق بهم ، فأنذرت الرعية قبل أن تدهمهم جيوش سليمان فقالت :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

مما حدا بسليمان الحكيم - عليه السلام - أن يتعلم منها دروساً فى اليقظة والفطنة فيهتف من أعماقه قائلاً :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢٣٤)

إنها تعلم الحكام كيف يسهرون على مصلحة رعاياهم وكيف يعملون على أن يجنبوهم المتاعب ويحفظوهم من المعاطب ، وأن يدأبوا على التفكير فى العواقب .

الشـــعراء :

ولعل اسم الشعراء يعلمنا ما يبطن فى هذا القرآن العظيم المنزل من عند الله من أسرار عظيمة ومعانى كريمة ، ونسج محكم وأسلوب معجز ، وأنه ليس فى مقدور البشر جميعاً شعراء كانوا أو غير شعراء - أن يأتو بمثله

كما وأن هذه التسمية تشير إلى تحذير الشعراء من الانسياق وراء عواطفهم وأهوائهم ونزواتهم فى أشعارهم ، فعليهم أن يرعوا حق هذه الملكة التى وهبها الله لهم ، ويحترموا هذه الموهبة التى منحها الله إياهم ، فلا يستعملوها إلا فى أشرف المعانى وأنبل المقاصد .

لقد جرت عادة الشعراء أن ينقضوا اليوم ما أبرموه بالأمس ، وأن يجروا فى شعرهم على سنن غير سليم ، فهم فى كل واد يهيمون وهم يقولون

---

(٢٣٤) النمل ١٨ ، ١٩

ما لايفعلون ، ولذلك اصطنعهم الملوك والرؤساء ، واشتروا ذممهم بالمال والهبات ، والهدايا « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

وما يصدق على الشعراء يصدق على غيرهم من أرباب البيان وأساطين الفن والثقافة والاعلام ، إن فى تسمية هذه السورة بهذا الاسم الذى ورد فى آية منها ـ إشعاراً لكل هؤلاء وغيرهم حتى لا يستعملوا مواهبهم فى غير ما خلقت له ، إن القرآن الكريم وضع أيدى الناس على داء وبيل ينخر فى جسم الدول ، حيث نبه إلى الخطر الناجم عن اللسان الفصيح الذى يستعمل فى تزيين الشر وتقبيح الخير ، وإعلاء الباطل وتوهين الحق ، وقد ورد فى ذلك أثر يقول « البيان شعبة من النفاق » وذلك لأن صاحب هذا البيان يزين به حجته وينمق به فكرته ، فيصور الباطل حقاً والحق باطلاً ، وقد استشرى هذا الداء فى العصور المتأخرة ، حتى تخصصت أجهزة فى كل دولة ، تكون مهمتها تزيين سياسة الحكام والدفاع عنها . . فليتق الله حملة الأقلام ، فهم مسئولون أمام الله عن أمانة الكلمة وضمير القلم .

العنكـــبوت :

وربما كان اسم العنكبوت يشير إلى ما ألهم الله هذه الحشرة العجيبة من قدرات ـ فجعل فى إمكانها أن تعلم الإنسان مالم يكن يعلم ، إن فى لعابها سحراً تصنع منه خيوطاً محكمة النسج ، تبنى بها قلعة تحميها وتحرسها ، وتجعل منها شركاً تصطاد به فرائسها وعلى هذه الخيوط تتسلق وتعلو وتهبط دون أن تبذل فى ذلك جهداً ومشقة .

وعلى ضعف بيت العنكبوت الذى ضرب الله به المثل على ضعف الشركاء الذين يتخذهم الكفار أولياء من دون الله؛ إلا أن فيه بياناً لقدرة الله العظيم الخالق الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . فهو الذى ألهم كل مخلوق حكمة تعينه على حياته ومعيشته ورزقه وعدوه ، ولفت أنظارنا حتى نفكر ونتدبر فى هذا الكون الملىء بالعجائب والمتناقضات ، حيث يوجد القوى والضعيف ، والمفترس والفريسة ، والهازم والمنهزم ، والمهتدى والضال ، ومع ذلك فالكون يسير فى دقة متناهية ، ونظام عجيب متكامل . . . أليس ذلك دليلاً على قدرة الله الواحد وعظمة الخالق الذى قدر فهدى ؟

هذه بعض ملاحظات متواضعة حول أسماء بعض السور ، وهناك معان دقيقة كثيرة لم نفطن لها ، تدعونا إلى التأمل والتفكر .

الدليل على أن أسماء السور توقيفية :

ومما يدل على أن أسماء السور توقيفية أن الآية حينما كانت تنزل كان النبى ﷺ يقول : ضعوا هذه الآية فى مكانها من سورة كذا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة ، وسورة العنكبوت ، يستهزئون بذلك ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٢٣٥)

ومعنى ذلك أن أسماء السور كانت معروفة .

وربما كان للسورة أكثر من اسم ، وكل اسم منها يشير إلى معان دقيقة .

---

(٢٣٥) الحجر ٩٥

فالفاتحة لها أسماء كثيرة ، منها فاتحة الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثانى ، ومن أسمائها التى وصفت بها : الوافية ، والكافية ، والأساس ، والشفاء .. وغير ذلك

وسورة البقرة ، كان يطلق عليها فسطاط القرآن ، وكان يطلق عليها وعلى آل عمران اسم الزهراوين .. وهكذا ..

ومما يدل أيضاً على أن أسماء السور توقيفية أن هناك سوراً وردت فيها قصص وافية لبعض الأنبياء ولم تسم بهم هذه السور .. فسورة طه اشتملت كلها تقريباً على قصة موسى ـ عليه السلام ـ ومع ذلك لم تسم السورة باسمه ، كما أنه لم تسم أى سورة باسمه فى القرآن ، كما سميت سور باسم غيره من الأنبياء مثل : يوسف وابراهيم وهود ونوح ومحمد ويونس .

كما أنه ورد ذكر آدم فى بعض سور ومع ذلك لم تسم به إحداهن ..

فهذا دليل على أن التسمية توقيفية وليست اجتهادية .

أول ما أنزل من القرآن :

المتواتر والمشهور أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو الآيات الأولى من سورة العلق :

بسم الله الرحمن الرحيم ..

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [٢٣٦]

---

(٢٣٦) العلق ١ : ٥

وهناك أقوال أخرى تذكر أن أول مانزل آيات سورة المدثر . . فقد روى عن يحيى بن كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول مانزل من القرآن فقال : ياأيها المدثر

قلت إنهم يقولون : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »

قال أبو سلمة : سألت « جابراً » عن ذلك فقال : لاأحدثك إلا بما حدثنا به رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيأ ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً فلم أثبت له ، فأتيت « خديجة » فقلت : دثرونى دثرونى فنزل : (٢٣٧)

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾

وذلك قبل أن تفرض الصلاة » أخرجه الشيخان والترمذى

وقد حاول العلماء التوفيق بين هذا الحديث ، وحديث عائشة رضى الله عنها الذى يذكر أن أول مانزل من القرآن ، « اقرأ باسم ربك » وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة منها :

١ ـ أن حديث جابر عن نزول سورة كاملة ومعنى ذلك أن سورة « المدثر » نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة « اقرأ » التى نزل صدرها أولاً

٢ ـ أن مراد ـ جابر ـ بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى لا أولية مطلقة .

٣ ـ أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالانذار ، وعبر بعضهم عن ذلك بقوله : أول مانزل للنبوة « اقرأ باسم ربك » وأول ما نزل للرسالة « ياأيها المدثر »

---

(٢٣٧) سورة المدثر ١ ـ ٥

ويذكر البعض أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة ، والذى يقول بذلك يستند إلى خبر أخرجه البيهقى فى الدلائل والواحدى من طريق يونس بسند متصل إلى أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لخديجة : إنى اذا خلوت وحدى سمعت نداء ، فقد والله خشيت على نفسى . . فقالت : معاذ الله ، ماكان الله ليفعل بك ما يضر ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق الحديث [٢٣٨]

فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة له أمر الرسول ، وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة ، فانطلقا فقص عليه الرسول ﷺ ، فقال : إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى ، يامحمد يامحمد ، فانطلق هارباً فى الأفق ، فقال له ورقة : لا تفعل . . إذا أتاك ، فاثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتنى فأخبرنى ، فلما خلا ناداه ، يامحمد قل :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين » [٢٣٩]

وذكر بعضهم أن « بسم الله الرحمن الرحيم » هى أول ما نزل من القرآن الكريم

أخرج ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أول مانزل جبريل عليه السلام قال : يامحمد استعذ . . ثم قل : « بسم الله الرحمن الرحيم »

ولكن هذا لاينافى أولية « اقرأ » كما هو المشهور بين العلماء لأن البسملة تقدم بين يدى السورة فهى أول آية على الاطلاق ولو أنها لاتعد آية محسوبة إلا فى أول الفاتحة على المشهور من أقوال العلماء ـ وهى بعض آية فى سورة النمل .

---

(٢٣٨) دلائل النبوة جـ ١ ص ٤١٢

(٢٣٩) هذا الحديث مرسل ورجاله ثقات كما قال السيوطى فى الاتقان جـ١ ص٩١

وإذا كانت أول آيات نزلت هى أوائل العلق ، فإن آخر سورة نزلت هى سورة النصر .

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ (٢٤٠)

ولذلك تسمى هذه السورة بسورة التوديع

ثم تنزل القرآن الكريم بين أول آية وآخر آية موزعاً على حسب الحوادث والنوازل فى مدى ثلاث وعشرين سنة .. عند بعض الرواة .. أو عشرين سنة عند بعض الرواة الآخرين .. ومن القرآن مانزل فى مكة ومنه مانزل فى المدينة .

ويطلق على ما نزل فى مكة لقب المكى ، وما نزل فى المدينة لقب المدنى .

الآيات المكية والمدنية :

وقد استعرض الرواة الآيات المكية والمدنية وحصروها وتحدثوا عنها وأشار كتّاب المصحف ونساخه إلى ذلك فى أوائل السور بقولهم : هذه السورة مكية أو مدنية ، إلا آية كذا وكذا ، ونزلت بعد سورة كذا ..

ويمكن ايجاز ذلك فيما يأتى :

المكى من القرآن :

أول ما نزل بمكة من القرآن : إقرأ ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، ثم المسد ، ثم التكوير ، ثم الأعلى ، ثم الليل ، ثم الفجر ، ثم الضحى ، ثم الشرح ، ثم العصر ، ثم العاديات ، ثم الكوثر ، ثم

---

(٢٤٠) النصر

التكاثر ، ثم الماعون ، ثم الكافرون ، ثم الفيل ، ثم الفلق ، ثم الناس ، ثم الاخلاص ، ثم النجم ، ثم عبس ، ثم القدر ، ثم الشمس ، ثم البروج ، ثم التين ، ثم قريش ، ثم القارعة ، ثم القيامة ، ثم الهمزة ، ثم المرسلات ، ثم ق ، ثم البلد ، ثم الطارق ، ثم القمر ، ثم ص ، ثم الأعراف ، ثم الجن ، ثم يس ، ثم الفرقان ، ثم الملائكة « فاطر » ثم مريم ، ثم طه ، ثم الواقعة ، ثم الشعراء ، ثم النمل ، ثم القصص ، ثم بنى اسرائيل « الاسراء » ثم يونس ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم الصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم غافر ، ثم السجدة ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الاحقاف ، ثم الذاريات ، ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم الشورى ، ثم إبراهيم ، ثم فصلت ، ثم الأنبياء ، ثم النحل (بعضها) ، ثم نوح ، ثم الطور ، ثم المؤمنون ، ثم الملك ، ثم الحاقة ، ثم المعارج ، ثم النبأ ، ثم النازعات ، ثم الانفطار ، ثمن الانشقاق ، ثم الروم ، ثم العنكبوت ، ثم المطففين » .

أما السور المدينة فهى على الترتيب :

البقرة ، آل عمران ، الأنفال ، الأحزاب ، المائدة ، الممتحنة ، النساء ، الزلزلة ، الحديد ، محمد ، الرعد ، الرحمن ، الانسان ، الطلاق ، البينة ، الحشر ، النصر ، النور ، الحج ، المنافقون ، المجادلة ، الحجرات ، التحريم ، الجمعة ، التغابن ، الصف ، الفتح ، التوبة .

وجملة المكى ست وثمانون سورة ، وجملة المدنى ثمان وعشرون سورة .

أول آية فى موضوعها :

وفى القرآن آيات متعددة نزلت فى موضوع واحد ، كتحريم الخمر ، وكالدعوة إلى الجهاد ، وغير ذلك ويكون عادة من بينها آية هى أول ما نزل فى هذا الموضوع ، ومن ذلك ..

- أول آية نزلت فى الدعوة إلى الجهاد هى قوله تعالى -

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ (٢٤١)

وهذا مارواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس

ولكن ابن جرير يروى عن أبى العالية أن أول آية نزلت فى هذا الشأن هى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ (٢٤٢)

وفى الإكليل للحاكم : أول آية نزلت فى القتال هى قوله - تعالى -

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ

---

(٢٤١) الحج ٣٩

(٢٤٢) البقرة ١٩٠

ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ (٢٤٣)

وبالرجوع إلى أسباب النزول يستدل على أن آية ـ الحج ـ سبقت آية ـ البقرة ـ فى النزول ذلك أنها نزلت كما يقول الواحدى أول الهجرة ، وقال : « كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون بين مضروب ومشجوج ، فشكوهم إلى رسول الله ﷺ فكان يقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بقتال ، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا »

وقال ابن عباس : لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضى الله عنه : إنا لله لنهلكن فى سبيله فأنزل الله تعالى :

« أذن للذين يقاتلون » قال أبو بكر : فعلمت أنه سيكون قتال (٢٤٤)

أما آية البقرة فيقول الواحدى : إنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية ، ثم صالحه المشركون على أن

عامه هذا ثم يأتى فى العام القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام ، فيطوف بالبيت ويفعل مايشاء ، وصالحهم رسول الله ﷺ ـ فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء ، وخافوا ألا تفى لهم قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام

---

(٢٤٣) التوبة ١١١

(٢٤٤) اسباب النزول للواحدى ص ٢٣٢ .

ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[٢٤٥] .

وربما كانت آية التوبة سابقة على كلتا الآيتين فان الواحدى يقول عنها . .

قال محمد بن كعب القرظى : لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا ـ قال عبدالله بن رواحة : يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تعبدوه منه أنفسكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيع فنزلت هذه الآية[٢٤٦] .

وعلى ذلك فهى مكية . . والآيتان الأخريان مدنيتان .

أما أول آية نزلت فى الخمر فهى قوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[٢٤٧]

فلما نزلت قيل : حرمت الخمر فقالوا : يارسول الله

دعنا ننتفع بها كما قال الله ـ تعالى ـ فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[٢٤٨]

---

(٢٤٥) أسباب النزول للواحدى ص ٣٧

(٢٤٦) المرجع السابق ص ١٩٦ وأسباب النزول للسيوطى ص ١١١

(٢٤٧) البقرة ٢١٩

(٢٤٨) النساء ٤٣

فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يارسول الله لانشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم . ثم نزلت :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) ﴾ (٢٤٩)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت الخمر (٢٥٠) .

وأول آية نزلت فى الأطعمة بمكة هى قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) ﴾ (٢٥١)

ثم نزلت آية النحل :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ

---

(٢٤٩) المائدة ٩٠ : ٩١

(٢٥٠) الاتقان جـ ١ ص ٩٩

(٢٥١) الأنعام ١٤٥

﴿ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٢٥٢).

ثم نزلت بالمدينة آية البقرة - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٢٥٣)

ثم آية المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ (٢٥٤)

ونزلت سورة براءة فى شأن غزوة تبوك .

وكان أول آية نزلت منها كما يحكى عن مجاهد .. هى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢٥٥)

ويحكى بعضهم قولا آخر هو أن أول مانزل منها قوله تعالى :

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢٥٦)

---

(٢٥٢) النحل ١١٤ ، ١١٥

(٢٥٣) البقرة ١٧٢ - ١٧٣

(٢٥٤) المائدة ٣

(٢٥٥) التوبة ٢٥

(٢٥٦) التوبة ٤١

روى ذلك عن مسروق عن أبي الضحى . ثم نزل من أول براءة حتى هذه الآية . . أربعون آية قبلها .

وحكى السيوطى قول عامر ـ لعله الشعبى ـ أن آية « انفروا خفافا » هى أول آية نزلت فى براءة ـ فى غزوة تبوك ، فلما رجع الرسول من تبوك نزلت براءة الإيمان إلا ثلاثون آية من أولها .

واذا كان هذا بيان أول مانزل من الآيات .

فما آخر آية نزلت ؟

ورد فى ذلك أقوال كثيرة . .

منها أن آخر آية نزلت هى آخر سورة النساء :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾(٢٥٧)

ومنها أن آخر مانزل هو الآيتان من آخر براءة :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾(٢٥٨)

وقيل : إن آخر مانزل هو آية الربا فى البقرة وهى :

---

(٢٥٧) النساء ١٧٦

(٢٥٨) التوبة ١٢٨ : ١٢٩

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾[259]

وقال السيوطى راويا ما أخرجه النسائى عن طريق عكرمة عن ابن عباس : أن آخر مانزل هو قوله تعالى :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾[260]

وقد حاول السيوطى التوفيق بين هذه الروايات .

فقال : إن آيات الكلالة - والربا ـ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ـ والتداين ـ هى من الفرائض . وكانت هى آخر الآيات نزولا . .

واستند إلى قول القاضى أبى بكر فى الانتصار ان هذه الأخبار ليس فيها شيء مرفوع الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل ماقيل فيه هو ضرب من الاجتهاد . . والى قول البيهقى : يجمع بين هذه الاختلافات إن صحت بأن كل واحد أجاب بما عنده . . والله أعلم .

خصائص كل من المكى والمدنى

وضع العلماء ضوابط لمعرفة خصائص كل من القرآن المكى والمدنى نوجزها فيما يلى استنادا الى كتاب ﴿ مباحث فى علوم القرآن ﴾[261]

خصائص القرآن المكى :

كل سورة فيها سجدة فهى مكية ماعدا الرعد

ـ كل سورة فيها « كلا » مكية .

(٢٥٩) البقرة ٢٧٨

(٢٦٠) البقرة ٢٨١

(٢٦١) الكتاب من تأليف الدكتور صبحى الصالح

- كل سورة فيها قصة آدم وابليس مكية ماعدا البقرة . . ويغلب على القرآن المكى سوى ذلك .

- القرآن المكى يغلب عليه قصر الآيات والسور ، وإيجازها ، وشدة التعبير ، وقوة الرنين الصوتى .

- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار .

- الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير .

- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم .

- كثرة القسم جريا على أساليب العرب .

خصائص القرآن المدنى

- الإذن بالجهاد أو الإشارة إليه وبيان أحكامه .

- يحتوى على تفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية .

- يحتوى على ذكر للمنافقين .

- مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو فى دينهم .

وهناك أمارات غالبة تظهر فى طول السور والآيات ، والأسلوب التشريعى الهادىء .

- ويظهر فيه تفصيل للبراهين والأدلة على الحقائق الدينية . .

لماذا نزل القرآن منجما ؟

المعروف بين العلماء أن القرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى ليلة القدر جملة واحدة ، كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① ﴾[٢٦٢]

---

(٢٦٢) سور القدر ١

وهى ليلة من ليالى شهر رمضان مصداقا لقوله عز وجل

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾(٢٦٣)

. ولكنه نزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - منجما فى مدى عشرين سنة . . أو ثلاث وعشرين سنة . . أو خمس وعشرين سنة . . على حسب الخلاف فى إقامة النبى - ﷺ - بمكة بعد البعثة . وأصح الأقوال وأشهرها هو أنه نزل فى ثلاث وعشرين سنة . منها ثلاث عشرة بمكة .

أما العلة فى نزوله منجما فقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى مواضع .

قال الله - تعالى - فى سورة الإسراء :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾(٢٦٤)

قال القرطبى : على مكث : أى تطاول فى المدة شيئا بعد شىء ، أنزلناه آية آية وسورة سورة . . وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾(٢٦٥)

وفسر القرطبى ذلك قال :

رأى الكفار أن القرآن ينزل مفرقا فى حين رأوا الكتب المتقدمة مجتمعة

---

(٢٦٣) البقرة ١٨٥

(٢٦٤) الاسراء ١٠٦

(٢٦٥) الفرقان ٣٢ ، ٣٣

فقالوا : لولا أنزل القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ؟ .

ولكن الله أنزله منجما ليثبت به فؤادك يامحمد ويقوى به قلبك فتعيه وتحمله . . . والحكم والأسرار التى من أجلها نزل القرآن منجما كثيرة منها .

١ ـ تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه وشد أزره بالوحى المرة بعد المرة .

٢ ـ أن فى التنجيم تيسيرا عليه ﷺ ـ من الله فى حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحكمه .

٣ ـ التدرج فى تربية الأمة الإسلامية الناشئة فى العلم به ، والعمل بأحكامه ، وتيسير حفظه عليهم والتدرج فى تخليهم عن العقائد الباطلة والعبادات المرذولة التى درجوا عليها .

٤ ـ تفصيل القول فيما يجد من أحداث وبيان أحكام الوقائع فى حينها ووقت حصولها فيكون ذلك أثبت فى النفس وآكد وأشد وقعا .

٥ ـ إجابة السائلين على أسئلتهم التى يوجهونها الى الرسول ﷺ سواء أكانت من المسلمين أو من الكفار أو من أهل الكتاب .

٦ ـ لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أخطائهم التى يقعون فيها ، وارشادهم فى الوقت نفسه إلى الصواب ولاشك فى أن التوجيه والارشاد فى وقت حدوث الخطأ يكون أوقع وأعمق أثرا فى النفس . .

فإن قيل : هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه الرسول إذ كان ذلك فى قدرته ؟ والجواب : أن فى قدرة الله أن يعلم رسوله القرآن والحكمة فى لحظة واحدة ، ولكنه لم يفعل لحكم عظيمة ولامعترض عليه فى حكمه .

لقد ثبت من تتابع الآيات فى النزول ومناسباتها أن القرآن كان ينزل بحسب الحوادث والحاجة الى الأحكام خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . . وكان النبى - ﷺ - يأمر بكتابتها ووضعها فى السورة التى تخصها .

أما كونه نزل مرة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، فذلك لتفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وفى ذلك إعلام لسكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة . . . نزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم .

ولولا أن حكمة الله اقتضت نزوله منجما لأنزله إلى الأرض دفعة واحدة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبين الكتب السابقة فجمع له صفتين : أنزله من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزله مفرقا على نبيه بعد ذلك فى مدة بعثته ورسالته - ﷺ .

والذى نزل به جبريل على النبى - ﷺ - هو القرآن بألفاظه المعجزة من أول سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس . وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده ولا دخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها وترتيبها بل هى من إنشاء الحق وترتيبه - عز وجل - ولذا تنسب الى الله دون سواه ، وان نطق بها جبريل ومحمد وملايين الخلق بعد ذلك الى أن تقوم الساعة .

فليس لجبريل عليه السلام فى هذا القرآن سوى نقله للرسول صلى الله عليه وسلم . وقراءته عليه ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم سوى إبلاغه للخلق، وتلاوته عليهم ، وتحفيظهم إياه ، ثم بيانه وتفسير أحكامه والعمل بما فيه . وآيات القرآن الكريم تؤكد ذلك .

قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾[٢٦٦]

وقال :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ ﴾[٢٦٧]

الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية والنبوية

لكل من القرآن والأحاديث سواء كانت قدسية أو نبوية ـ سمات مشرقة من حيث إنها وحى من الله بطرق الوحى المختلفة مصداقا لقوله ـ تعالى فى حق نبيه

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[٢٦٨]

وإن كان لكل من هذه الأنواع الثلاثة ـ القرآن ـ الأحاديث القدسية ـ الأحاديث النبوية ـ سمات مميزة نشير إليها فيما يأتى :

يقول الإمام الجوينى : كلام الله قسمان :

قسم قاله الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل إليه ان الله يقول لك افعل كذا ومر بكذا . ففهم جبريل ماقاله ربه ووعاه تماما ثم نزل على ذلك

---

(٢٦٦) النمل ٦

(٢٦٧) يونس ١٥

(٢٦٨) النجم ٣ : ٤

النبى وأبلغه بما قاله ربه ـ جل وعلا ـ وهنا قد يختلف التعبير بعض الشىء ، ولكن تبقى المعانى هى هى التى أمر بها الله . .

وقسم آخر قال الله لجبريل عليه السلام ـ اقرأ على النبى هذا الكتاب . فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير . . كما يكتب الملك كتابا يسلمه إلى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان ، فهو لايغير منه كلمة ولاحرفا .

وقد علق الإمام السيوطى فى كتابه الإتقان على هذا القول الذى قاله الإمام الجوينى بقوله :

فالقرآن هو القسم الثانى .

والسنة هى القسم الأول .

فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة أيضا كما كان ينزل بالقرآن . .

ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى . . أما القرآن فلايجوز ذلك فيه .

والسر فى ذلك أن القرآن يتعبد بتلاوته وأنه معجز فى ألفاظه ، ولذلك لايستطيع أحد مهما أوتى من الفصاحة أو البلاغة أن يأتى بكلمة مكان كلمة أخرى تقوم مقامها ، لأن تحت كل حرف من المعانى مالايحيط به أحد .

وللتخفيف على الأمة جعل الله المنزل عليهم على قسمين : قسم يروونه بلفظ الموحى به ، وقسم يروونه بالمعنى ، ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ذلك على الناس .

وهناك من السلف من يؤيد كلام الجوينى .

والفرق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية يظهر فيما يأتى :

ـ القرآن الكريم هو مانزل به جبريل ـ عليه السلام ـ بلفظه ومعناه كما هو مقيد فى اللوح المحفوظ ـ على وجه اليقين ، ونقله متواتر تواترا قطعيا فى كل

طبعة وفى كل عصر وحين . . ولاتصح الصلاة إلا به - وهو معجز ومعجزته باقية على مر الدهور وهو محفوظ من التغيير والتبديل ، بنص قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢٦٩)

وبأن مسه يحرم على المحدث وتلاوته تحرم على الجنب ، وروايته بالمعنى غير جائزة ، ولايسمى قرآنا إلا هو ، وقراءة كل حرف منه بعشر حسنات .

أما الأحاديث القدسية فهى مانقلت إلينا عن النبى - ﷺ - مع إسناده لها إلى ربه - جلا وعلا - فهى من كلام الله تعالى - فتضاف إليه لأنه المتكلم بها أولا . . وقد تضاف إلى النبى - ﷺ - لأنه المخبر بها عن الله - تعالى .

بخلاف القرآن فإنه لايضاف إلا إلى الله - تعالى - فيقال : قال الله - تعالى - أما الأحاديث القدسية فيقال : قال النبى - ﷺ - فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى - لقد تلقى النبى - ﷺ الأحاديث القدسية عن ربه إلهاما بأن ينفث روح القدس فى صدره بها، أو أمر بها عن الرؤيا فى المنام

وأما بقية السنة ، وهى الأحاديث النبوية فهى وحى بالمعنى من الله تعالى ، واللفظ للرسول صلى الله عليه وسلم - وآيه ذلك قوله تعالى « ومابنطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » أى أنها وحى . لأنها سواء أكانت وحيا ابتداء أم باجتهاد منه - صلى الله عليه وسلم - ثم أقره الله عليه - فهى وحى ، لأن الله لايقره على خطأ والنبى - ﷺ - يقول : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه . وإن ماحرم رسول الله كما حرم الله . والله يقول .

﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢٧٠)

---

(٢٦٩) الحجر ٩

(٢٧٠) الحشر ٧

يقول السيد عبدالعزيز الدباغ فى الابريز : لو لم يكن عند النبى ـ ﷺ ـ إلا مايشبه الأحاديث القدسية أو النبوية ـ لما آمن العرب . . ثم بين أن السيطرة على النفوس كانت بسلطان عظمة القرآن فكل من استمع إلى القرآن وأجرى معانيه على قلبه علم عليا ضرورياً أنه كلام الرب ـ سبحانه ـ فإن العظمة التى فيه ليست إلا عظمة الربوبية وسطوة الألوهية ، والعاقل الكيس إذا استمع للقرآن عرف أنه كلام الله ، لأنه لايمكن أن يكون كلام بشر بحال من الأحوال . . وقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم ربهم من القرآن ، وعرفوا صفته ومايستحقه من ربوبية ، وقام لهم سماع القرآن مقام المعاينة والمشاهدة فى إفادة العلم القطعى بالله عز وجل . . وفرق الدباغ ـ رحمه الله بين الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية من حيث الهدف فقال :

الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى ، وتبين عظمته وإظهار رحمته أو تنبه على سعة ملكه وكثرة عطائه . وذلك مثل قوله ـ ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه ـ جل وعلا :

﴿ ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ﴾ .(٢٧١)

أما الأحاديث النبوية فهدفها العام أنها تتكلم على مايصلح البلاد والعباد بذكر الحلال والحرام ، والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد(٢٧٢) . كما أنها توضح مجمل القرآن الكريم .؟

---

(٢٧١) رواه مسلم من حديث أبى ذر

(٢٧٢) الوحى الإلهى د . الحسينى هاشم

جمع القرآن وترتيبه

وكان الوحى ينزل على النبى - ﷺ - بالآيات من القرآن الكريم يرشد بها المسلمين إلى أمور دينهم ، أو يجيب بها عن سؤال سائل منهم ، أو يجلى بها عن أمر غامض من شئونهم أو يبشرهم بنصر ، أو يذكرهم بما يجب عليهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى تتناولها آيات الكتاب الكريم وأغراضه الشريفة .

وكان النبى - ﷺ - يتلو ماينزل فور نزوله ، فإذا كان على غير محضر منهم خرج إليهم فألقاه إليهم فيتلقونه عنه ويحفظونه . .

وكان النبى - ﷺ - يأمر كتاب الوحى بكتابة ماينزل فيبادرون بكتابته . . ومن كتاب الوحى : على ، ومعاوية ، وعثمان ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله ابن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث ، وغيرهم .

فكانوا يكتبون ماينزل فى عسب النخل أو الحجارة البيض الرقاق أو قطع الخزف ، أو الجلود ، والنبى - ﷺ - يرشدهم إلى موضع الآية من السورة . . وقد ورد فى صحيح البخارى أن جبريل كان يعارض النبى - ﷺ - بالقرآن ، وقد عارضه به فى السنة التى توفى فيها مرتين .

وجمع الآيات وترتيبها فى السور متفق على أنه كان أيام النبى - ﷺ - بتوقيف من جبريل - عليه السلام - والدليل على ذلك أن النبى - ﷺ - كان يقرأ فى صلاته سورا كاملة كالبقرة وآل عمران والنساء . والمقصود - صلاته وهو منفرد . أما صلاته بأصحابه فكان يتخفف فيها رحمة بالضعفاء منهم .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن جمع الآيات فى السور أمر توقيفى تولاه النبى صلى الله عليه وسلم بتوقيف من أمين الوحى جبريل .

أما ترتيب السور على ماهى عليه فى المصحف فقد اختلفوا فيه . أكان

أيام النبى - ﷺ - أم أنه كان باجتهاد من أصحابه بعده ؟ وذلك على ثلاثة أقوال .

أحدها أن السبع الطوال والحواميم كانت مرتبة على وضعها قبل وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم . .

الثانى أن ترتيب السور على ماهو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبى ﷺ - وإنما باجتهاد من أصحابه .

الثالث : أن ترتيب السور كلها توقيفى بتعليم الرسول ﷺ -لهم، كترتيب الآيات ، وأنه لم توضع سورة فى مكانها إلا بأمر منه ﷺ - بدليل أن الصحابة أجمعوا على هذا الترتيب فى المصحف الذى كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه ، ولم يخالف منهم أحد فى ذلك ، واجماعهم هذا لايتم إلا إذا كان الترتيب الذى أجمعوا عليه عن توقيف لا عن اجتهاد .

والشيء الذى لاخلاف فيه على الإطلاق أن النبى - ﷺ - توفى والقرآن كله مكتوب ومحفوظ فى صدور أصحابه ، ولكنه لم يكن مجموعا فى مكان واحد .

وقد عارض جبريل عليه السلام - النبى - ﷺ - بالقرآن فى العام الذى توفى فيه مرتين (٢٧٣) .

فلما تولى أبوبكر الخلافة ، وجاءت حروب الردة ، وكثر القتلى من حفظة القرآن اتفقت كلمة المسلمين على جمعه .

وعهد أبوبكر إلى زيد بن ثابت بهذه المهمة التى شمر لها عن ساعد الجد وفرغ لها وقته وجهده وقلبه .

---

(٢٧٣) عارضه به - أى قابله به - والمعنى قرأه عليه

قال زيد : قال لى أبوبكر : إنك شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله - ﷺ - فتتبع القرآن فاجمعه قال : فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن .

قال زيد - لأبى بكر وعمر » وكانا معا . . كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ - ؟ قالا : هو والله خير . فلم يزل أبوبكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح به صدر أبى بكر وعمر .

قال : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف (٢٧٤) وصدور الرجال ، ووجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره وهى

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٢٧٥)

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله .

ثم عند عمر حياته .

ثم عند حفصة بنت عمر - زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم .

وسمى أبوبكر ماجمعه مصحفا .

وفى أيام عثمان - رضى الله عنه - كثرت الفتوح واتسعت الأمصار ، وتباعدت المواطن ، واختلفت القراءات فخاف عثمان أن تحدث فتنة من تخطئة القراء بعضهم لبعض . فرأى أن يكتب عدة نسخ من المصحف .

---

(٢٧٤) الحجارة البيض الرقاق

(٢٧٥) التوبة ١٢٨ ، ١٢٩

ووكل هذه المهمة إلى أربعة من الصحابة وهم : عبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ، وزيد بن ثابت الذى يقال إنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن قبل وفاة النبى - صلى اله عليه وسلم - وهو الذى وكل إليه أبوبكر جمع القرآن أولا .

وكتب عثمان ستة مصاحف ، أرسل أربعة منها إلى الكوفة ، والبصرة ، ومكة والشام . وأبقى واحدا لأهل المدينة وآخر لنفسه ، وهو الذى كان يقرأ فيه حين استشهد - رضي الله عنه .

وسمى عثمان مصحفه إماما . لأنه قام خطيبا فقال : أنتم عندى تختلفون وتلحنون فمن نأى من الأمصار كان أشد اختلافا وأشد لحنا ، فاجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماما .

ثم أمر عثمان بجمع ماكان قبل ذلك فى الصحف وإحراقه ، وقد اقتصر فى كتابة المصاحف على لغة قريش لنزول القرآن بها .

والناس يسمون عمل عثمان هذا جمعا للقرآن ، وعلى ذلك فيكون للقرآن جمعان . . أحدهما على يد أبي بكر ، والآخر على يد عثمان - رضى الله عنهما - هذا بخلاف الجمع الأول الذى كان على أيام النبى - ﷺ .

والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان يقرره السيوطى فى قوله : إن جمع أبي بكر كان خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد . فجمعه فى صحائف مرتبا لآيات سوره على ماوقفهم عليه رسول الله - ﷺ .

وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءات حين قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضا ، فخشى من تفاقم

الأمر فى ذلك . فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش [٢٧٦] .

معنى نزل القرآن على سبعة أحرف

روى مسلم عن إبى بكر بن كعب أن النبى - ﷺ - كان عند أضاة [٢٧٧] بمى غفار فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان امتى لاتطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : ان الله يأمرك ان تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته ، وان أمتى لاتطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : اسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتى لاتطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا [٢٧٨] .

وقد اختلف العلماء حول تفسير ذلك اختلافا كبيرا .

فمنهم من قال : إن المراد بها سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو : أقبل ، وتعال ، وهلم .

ومنهم من قال : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها - يمنها ونزارها ، لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئاً منها وقد أوتى جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون فى الحرف سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، فمعظمه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن .. الخ .

---

(٢٧٦) الأدب العربى وتاريخه - الأستاذ محمود مصطفى جـ١ ص ١٣

(٢٧٧) اضاة كحصاة : غدير صغير

(٢٧٨) تفسير القرطبى جـ١ ص ٤١

ومنهم من قال : إن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مضر ، وقد احتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر .

ومنهم من قال : المراد بالأحرف السبعة المعانى التى اشتمل عليها كتاب الله تعالى ، وهى أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . .

لقد عد السيوطى : أربعين رأياً فى معنى كلمة أحرف . . وقد رجح فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى فيما يحكيه عنه الأستاذ محمود مصطفى : أن المراد من الأحرف السبعة أنها أوجه سبعة ترجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وتختلف بسببها تأدية تلك الألفاظ ، وقد بنى ترجيحه لهذا المراد على مارواه من الأسباب التى دعت إلى نطق رسول الله ﷺ بهذا الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » فهى لاشك تحدد معنى كل حرف ، وقد روى تلك الأسباب من طرق عدة ، منها أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فإذا هو يقرأ على حروف لم يتلقنها عمر من رسول الله ﷺ - قال عمر : فكدت أساوره فى الصلاة ، وتصبرت حتى سلم - فلببته بردائه، وانطلقت به إلى رسول ﷺ فسمع منى وسمع منه ، وقال لكل منا : كذلك أنزلت « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه »

وقد عدد ابن قتيبة هذه الأخرى السبعة فقال :

١ - ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته نحو « ولا يضارُّ كاتب » بفتح الراء وضمها .

٢ - ما يتغير بالنقط مثل : « ننشرها ، ننشزها »

٣ - ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل : « طلح ، طلع » .

٤ - ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، وسكرة الحق بالموت » . .

٥ - ما يتغير فيه الفعل مثل : « بعُد ، وباعِدْ » بلفظ الماضى والطلب .

٦ - ما يتغير بزيادة ونقصان مثل : « والذكر والأنثى ، وما خلق الذكر والأنثى »

ومن ذلك ما ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ (٢٧٩)

فقد قرأ سعد بن أبى وقاص « وله أخ او أخت من أم »

بزيادة لفظ « من أم » فتبين بذلك أن المراد بالإخوة فى هذا الحكم الإخوة للأم دون غيرهم من الإخوة .

٧ - ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل « كالعهن المنفوش ، وكالصوف المنفوش » وقد ذكر ذلك أيضاً الإمام أبو الفضل الرازى مع اختلاف بسيط قال : إن الوجوه السبعة التى لا تخرج القراءات عنها هى

« الأول » اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث

«الثانى» اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر

« الثالث » الاختلاف بالنقص والزيادة « فى لفظة أو حرف »

« الرابع » الاختلاف بالتقديم والتأخير

« الخامس » الاختلاف بإبدال حرف من حرف

« السادس » اختلاف اللغات - أى اللهجات » كالفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم ، والإظهار والإدغام ، ونحو ذلك .

« السابع » اختلاف وجوه الإعراب كقوله تعالى فى بيان الوضوء :

---

(٢٧٩) سورة النساء ١٢

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦

« يأأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » (٢٨٠)

قرىء بنصب أرجلكم وبجرها ، فالنصب يفيد طلب غسلها لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « وجوهكم » المنصوب ، وهو مغسول ، والجر يفيد طلب مسحها ، لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رءوسكم » المجرور ، وهو ممسوح وقد بين الرسول ﷺ أن المسح يكون للابس الخف ، وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف .

وقد حكى مثل تلك الوجوه أيضاً صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب فيما رواه القرطبي في مقدمة تفسيره .

فلما كثرت وجوه الاختلاف هذه في القراءة أيام عثمان رضي الله عنه وخشي الفتنة ، جمع الناس على مصحفه ، ولوحظ في كتابته أن يجمع ما اشتهر من لغات القراءة ، فكتبوا « الصراط » مثلا بالصاد المبدلة من السين التي هي الأصل ، لتكون قراءة السين « السراط » وإن خالفت الرسم ، قد أتت على الأصل اللغوي المعروف فيعتدلان .

---

(٢٨٠) المائدة ٦

وكتبوا الصلاة هكذا : « الصلوة » لتقبل التفخيم للام وهو بعض القراءات .

وكتبوا : « إن رحمت الله قريب من المحسنين » بالتاء المفتوحة ليدلوا على اللغة التى لا تبدل الهاء من تاء التأنيث . .

وقد اشتهر فى تاريخ القراءة قراء عرفوا باسم القراء السبعة وهم :

نافع بن أبى نعيم

عبد الله بن كثير

أبو عمرو بن العلاء

عبدالله بن عامر

عاصم بن بهدلة الأسدى

حمزة بن حبيب الزيات

على بن عمر الكسائى

ولكل واحد من هؤلاء تلاميذ أخذوا عنه وأذاعوا قراءته :

هذا وفى تنوع القراءات ضروب من البلاغة والإعجاز ، ودليل قاطع على أن القرآن كلام الله ، وبرهان ساطع على صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ ـ فإن هذه القراءات على تنوعها لا تؤدى إلى تناقض أو تضاد فى المقروء ولا إلى خلل أو ضعف فى النظم ، بل القرآن كله مهما تعددت قراءة اللفظة أو الحرف منه ـ يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، وكله على نمط واحد فى علو النظم وجمال التركيب وسمو الهدف ودقة المعنى . .

إعجاز القرآن

لكل نبى معجزة ، ولابد أن تكون المعجزة متحدية لأعظم ما برع فيه قوم هذا النبى فقوم موسى برعوا فى السحر فتحداهم موسى بالعصا التى

تحولت إلى ثعبان مبين قهر السحرة . . وقوم عيسى برعوا فى الطب فتحداهم عيسى باحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . .

وقوم محمد ﷺ بلغوا الذروة فى الفصاحة والبلاغة فتحداهم محمد ﷺ بالقرآن الكريم الذى أعجزهم بلاغة وفصاحة .

لقد كانت الأمة العربية أمية ليس لديها تقدم علمى ولا صناعى ، ولكن الله أفاض عليهم موهبة البيان والفصاحة يصرفون الكلام ، ويجيدون الضرب فى نواحيه والتحليق فى سمائه شعراً ونثراً ، فانتجت هذه الأمة شعراء مجيدين ، مازال شعرهم يؤثر ومازالت معلقاتهم تروى وتحفظ .

وكان فيهم خطباء مصاقع وحكماء أثرت عنهم الحكمة ، وذهبت أمثالهم التى تمثلوا بها عبر التاريخ إلى كل مكان .

فجاء القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله ﷺ فكان حجة دامغة وقوة غالبة فبهتوا لبلاغته وأذعنوا له حين سمعوا آياته ، فكان سبباً فى إسلام كثير من المعاندين . . ومن لم يسلم منهم لم يستطع أن يقول فى هذا القرآن شيئاً يعيبه ، بل أقر أمامه بالعجز الكامل .

وهذا هو الوليد بن المغيرة وقد جاء إلى النبى ﷺ يحاول أن يصده عن دعوته فأسمعه النبى ﷺ آيات من القرآن الحكيم ، فعاد مبهوتاً إلى بيته ولزمه .

فخشى الكفار أن يكون قد أسلم ، فذهب إليه أبو جهل يقول له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه حتى لا تذهب لمحمد تسمع ما يقوله .

فرد عليه الوليد قائلاً : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا .

قال له أبو جهل : فقل فى القرآن قولاً يبلغ قومك أنك كاره له .

قال : وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ،وإنه ليحطم ما تحته .

قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر . . أى يأخذه محمد عن غيره . .

وقد نزل فى هذه الواقعة قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٨١)

فمن هذه الأحاديث وغيرها ندرك أن القرآن الكريم قد أعجز القوم وبهرهم وأعشى أبصارهم بنوره ، وقهرهم عن أن يأتوا بمثله .

وقد كان القرآن صريحاً فى تحديه لهم ، فقد قال :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢٨٢)

---

(٢٨١) المدثر ١٨ : ٢٦

(٢٨٢) الاسراء ٨٨

وقال لهم :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢٨٣)

وفضحهم حين قالوا إن محمداً ﷺ افتراه فقال لهم :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢٨٤)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٢٨٥)

لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام تحديه ، بل عجزوا عن ذلك تماماً ، فما السر فى هذا الاعجاز العظيم الذى أوقف هؤلاء البلغاء الفصحاء حيارى مشدوهين ؟

---

(٢٨٣) البقرة ٢٣ : ٢٤
(٢٨٤) هود ١٣ : ١٤
(٢٨٥) يونس ٣٨

إن فى القرآن أسراراً كثيرة وقوى هائلة ، كل شىء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس وتخضع لحكمه ، وقد ألفت فى هذا الموضوع كتب كثيرة ، ونحن نكتفى فى ذلك ببعض الإلماحات حول وجوه الإعجاز التى أسهب العلماء فى توضيحها فى كتبهم :

١ ـ اشتماله على كثير من المغيبات التى عرفت بعد أن أخبر القرآن بها بسنين .

مثل دخول المسجد الحرام ـ وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٨٦)

ومثل انتصار الروم بعد هزيمتها من الفرس وموافقة انتصارهم انتصار المسلمين على عدوهم وقد ورد ذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٨٧)

---

(٢٨٦) الفتح ٢٧

(٢٨٧) الروم ١ : ٦

وغير ذلك من الآيات التى تحمل أخباراً غيبية حققتها الأيام ، وما أكثر هذه الآيات فى القرآن الكريم .

٢ - إنباؤه بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية ، والشرائع المتقدمة ، وقد كان لا يعلم أحد شيئاً عن هذه الأخبار إلا من ندر من أحبار أهل الكتاب الذين قطعوا أعمارهم فى معرفة ذلك وتطلبه ، وبالرغم من ذلك لم يصلوا إليه على حقيقته .. ولكن القرآن أورده على وجهه الصحيح وأنزله على قلب نبيه ﷺ وقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف أحدا من علماء أهل الكتاب وأحبارهم ، وكثيراً ما كان هؤلاء الأحبار يأتون فيسألونه على فجأة منه فيجدون الجواب حاضراً مما ينزل عليه من القرآن فلا يستطيعون محاورة ولا مداورة ، وكثيراً ماكان يؤمن بعضهم لذلك ، لأنهم يجدون صدق ما يخبر به ومطابقته لما عندهم من العلم الذى قرأوه فى كتبهم المنزلة .. ومن باهت منهم وكابر قال القرآن له :

« قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » فكان ذلك أعظم تقريع وتوبيخ له - قال - تعالى -

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ ﴾ (٢٨٨)

---

(٢٨٨) المائدة ١٥

٣ ـ حسن تأليفه والتئام كلمه وتخير ألفاظه ، وحسن مقاطعه ومطابقة هذا النظام لمقتضى الحال مضموناً إلى ذلك جلال الغرض وسمو المعانى وصفاء الحكمة وانطباق المثل .

وأمثلة ذلك فى القرآن كثيرة جداً لا تحصر . . بل إن كل آية من آيات القرآن يمكن أن ينطبق عليها ذلك ، لدرجة أن هذا الأمر هو الذى شغل علماء البلاغة فظلوا أجيالاً طويلة يحاولون الكشف عن هذه الأسرار فما انتهوا فى ذلك إلى غاية ، فما أشبه القرآن ـ ولله المثل الأعلى ـ بالشمس الساطعة التى ينتفع بنورها العالم دون أن ينقص من ضوئها شىء ، أو يصل إلى مكنونها أحد ـ وكل مخلوق يأخذ منها حاجته ، فالمقرور يجد الدفء والسالك يجد النور والزارع يجد نماء زرعه ، والطبيب يجد شفاء مرضاه ، إلى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من الفوائد .

٤ ـ وقد عد القرطبى من وجوه إعجاز القرآن نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر ، كما قال الله فى حق نبيه ﷺ .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢٨٩)

وجاء فى صحيح مسلم أن أنيساً أخا أبى ذر قال لأبى ذر : لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر .

وكان أنيس أحد الشعراء . .

قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله

---

(٢٨٩) يس ٦٩

على نظام الشعر فلم يلتئم ، فعلمت أنه ليس بشاعر . . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . .

وكذا أقر بذلك عتبة بن ربيعة ، وكذا أقر الوليد بن المغيرة - فيما مضى من قصته - فإذا اعترف هؤلاء بأنهم لم يسمعوا مثل هذا القرآن كان قولهم إقرارا بعجزهم وإقراراً بإعجاز القرآن الكريم لهم .

٥ - كما أن القرآن مخالف لنظم الشعر فهو مخالف أيضاً لكل أساليب العرب فى كلامهم . . فهو نمط عجيب من الكلام الذى لا يقدر عليه بشر . ويظهر ذلك فيمايلى :

١ - جزالته التى لا تصح من مخلوق بحال ، تأمل قوله تعالى :

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ (٢٩٠)

إلى آخرها ، وتأمل قوله تعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧ ﴾ (٢٩١)

الى آخر السورة

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ ﴾ (٢٩٢)

---

(٢٩٠) سورة ق ١

(٢٩١) الزمر ٦٧

(٢٩٢) ابراهيم ٤٢

تجد أنه لا يمكن أن يتأتى اطلاقاً من مخلوق بل هو من كلام الحق سبحانه وتعالى

٢ ـ التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستطيعه عربى ، حتى وقع منهم الاتفاق جميعاً على إصابته فى وضع كل كلمة وكل حرف موضعه .

٣ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان فى كل ما وعد الله سبحانه ـ وينقسم ذلك إلى : وعد مطلق ـ كوعده بنصر رسوله ﷺ على الذين أخرجوه من وطنه .

وإلى وعد مقيد بشرط كقوله ـ تعالى ـ :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٢٩٣)

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٢٩٤)

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢٩٥)

٤ ـ تضمنه كثيراً من أبواب العلم الذى هو قوام جميع الأنام فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام

٥ ـ حكمه البالغة التى لا يقدر على مثلها بشر مهما أوتى من الحكمة والعلم .
وقد أصابت حكم القرآن المحز فى كل ماتضمنته ظاهراً وباطناً من غير اختلاف . . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ (٢٩٦)

---

(٢٩٣) الطلاق ٣

(٢٩٤) التغابن ١١

(٢٩٥) الطلاق ٢ : ٣

(٢٩٦) النساء ٨٢

رأى النظام فى إعجاز القرآن :

النظام من شيوخ المعتزلة ، وكان له رأى فى إعجاز القرآن هو « الصرفة » يعنى بذلك أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن ، وأنه كان فى مقدورهم أن يأتوا بمثله ولكن الله صرفهم عن ذلك .

ومعنى ذلك أن الإعجاز ليس فى ذات القرآن ،بل فى صرفهم عنه .

والنظام يرى أن ذلك أدل على تأييد الله لرسوله إذ كان العجز مع القدرة ، واستحالة الممكن أدل على إرادة الله لنصر نبيه .

ولكن العلماء أبطلوا هذا الرأى وجاءوا بالأدلة التى تدل على فساده .

قال الأستاذ محمود مصطفى : إن هذا القول باطل لا يليق الأخذ به ، ففيه اعتراف من قائله بأن القرآن فى ذاته ممكن معارضته ، ولا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ، وأن تقصيرهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته ممكن معارضته ، ولا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ، وأن تقصيرهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذات القرآن ، موقوت بالمدة التى شاءت القدرة الإلهية أن تحد فيها من عزم العرب عن معارضته ، وهذا كله نقص ينزه القرآن عنه . . على أنه لو كان ماادعاه النظام صحيحاً لما استعظم العرب فصاحة القرآن ، ولما تعجبوا من حسن سبكه وعلو كلمه ، ولكان تعجبهم من عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها (٢٩٧)

---

(٢٩٧) رجعنا فى موضوع إعجاز القرآن إلى الاتقان فى علوم القرآن ومقدمة القرطبى ، والأدب العربى وتاريخه جـ ١ لمحمود مصطفى

بلاغة القرآن :

القرآن الكريم أرفع درجات البيان ، وخصائصه البلاغية من الايجاز وضرب المثل وحسن التشبيه وجمال التصوير ودقة النظم والسبك لا تجارى ولا تبارى .

هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتى من جوامع الكلم ، واختص به من غرائب الحكم ، إذا تأملت قوله ﷺ فى صفة الجنة : « فيها مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » تجده كلاما فى غاية الحسن إذا قيس بكلام البشر . . ولكن أين هو من قوله تعالى :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ (٢٩٨)

وقوله :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢٩٩)

إن بين كلام رسول الله ﷺ وهو أفصح البشر وبين القرآن الكريم بون بعيد ، وفرق شاسع ، فكلامه صلى الله عليه وسلم من النوع الذى يمكن أن يطمع فى الإتيان بمثله ، والذى يمكن أن يجارى فى بعض أقواله أو مقاماته ، أما القرآن الكريم فلا يطمع أحد فى مجاراته على الاطلاق فقد خرست الألسنة دونه ، وعجز أبلغ البلغاء عن محاكاته ، فما قرنت آيات القرآن بأى كلام ـ مهما علا قدره ـ إلا كانت أعدل نظماً وأحسن تركيباً ، وأعذب لفظاً وأقل حروفاً ، وأسهل مخرجاً ، وأحسن مطلعاً ، وأروع

---

(٢٩٨) الزخرف ٧١

(٢٩٩) السجدة ١٧

ختاماً ، وأجل غرضاً ، وأوسع معنى ، وأشمل فائدة ، وأكثر إحاطة ، وأدمغ حجة .

ويقول الأستاذ محمود مصطفى : « لا خلاف بين أهل العلم ونقدة الكلام فى أن القرآن لايدانيه فى بلاغته كلام عربى مهما ارتفعت درجته وعلت ذروته .

ولو أن بلغاء العرب شعروا بقرب مرتبته من مرتبة كلامهم لحاولوا معارضته ، ولكنهم لم يفعلوا ، فثبت أن سموه على كلام العرب ليس بقدر معتاد فهو لذلك معجز .

وقد عرف العرب بلاغة القرآن بسليقتهم وطبعهم القوى ومعرفتهم بفنون الكلام وطرقه وأساليبه فهم أهل بيان وفصاحة بطبعهم ، وحسن البيان هو مجال مفاخرتهم . . . ومن هنا أدركوا عظمة القرآن وعلو قدره بالرغم من معارضتهم ومعاداتهم للنبى الذى جاء به . . . فهذا هو الوليد بن المغيرة أشد المعارضين لرسول الله ﷺ يسمع قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ (٣٠٠)

فيتعجب لذلك ويقول : إنه له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وانه يعلو ولا يعلى عليه » وسمع أعرابى قارئاً يقرأ

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ ﴾ (٣٠١)

---

(٣٠٠) النحل ٩٠

(٣٠١) الحجر ٩٤

فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟

وسمع آخر قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ (٣٠٢)

فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ؟ . .

إن كلاماً يستطيع أن يلين قلباً كقلب عمر ويجعله يسلم لهو كلام لا عهد للناس بمثله فى شدة التأثير . .

إن المزية فى القرآن الكريم تكمن فى دقة نظمه ، وحسن نسقه وتخير كلماته وحسن مقاطعه ومراعاته لمقتضيات المقامات والأحوال . .

فإذا أضيف إلى ذلك كله جلال الغرض وسمو المعانى وصفاء الحكمة ، وتمام مطابقة المثل ، علمنا أن القرآن الكريم جمع الحسن من أقطاره فصار نسيجا وحده فى البلاغة والفصاحة (٣٠٣)

(ا) من أسباب النزول :

سبقت الإشارة إلى أن القرآن الكريم كان ينزل منجماً على حسب الحوادث ، والمناسبات التى تقتضى نزول آية أو آيات ، ولكن هناك آيات نزلت ابتداء بدون أسباب .

ولذلك قسم العلماء نزول القرآن إلى قسمين : قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال .

ولمعرفة أسباب النزول فوائد جليلة تحدث عنها العلماء وأفاضوا فيها .

ومن هذه الفوائد : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع حكم من

---

(٣٠٢) يوسف ٨٠

(٣٠٣) انظر الأدب العربى وتاريخه جـ ١ ص ١٨

الأحكام .. ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب .

ومنها أن اللفظ قد يكون عاماً ولكن الدليل يخصصه .

ومنها الوقوف على المعنى الدقيق للآية ، حتى قال الواحدى لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها ، وكذلك قال ابن دقيق العيد وابن تيمية .

ومن أمثلة ذلك ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم معنى قوله تعالى :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨ ﴾ (٣٠٤)

فقد قال : لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن جميعاً ، حتى بين له ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، وأرادوا أن يحمدوا لذلك (٣٠٥)

وحكى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٠٦)

---

(٣٠٤) آل عمران ١٨٨

(٣٠٥) أخرجه الشيخان

(٣٠٦) المائدة ٩٣

ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك . . . أما سبب نزولها فهو أن أناساً قالوا لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا ، وكانوا يشربون الخمر وهى رجس ؟ فنزلت (٣٠٧)

وهذه بعض الأمثلة فى أسباب نزول بعض الآيات :

أ ـ أخرج الواحدى والثعلبى من طريق محمد بن مروان والسدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : نزلت آية :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣٠٨)

فى عبد الله بن أبى وأصحابه ، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ.

فقال عبدالله بن أبى : انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء ؟

فذهب فأخذ بيد أبى بكر ، فقال : مرحباً بالصدِّيق سيد بنى تيم ، والسابق إلى الإسلام ، وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب ، الفاروق القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد علىّ فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه ، سيد بنى هاشم ، ماخلا رسول الله .

ثم افترقوا فقال عبدالله لأصحابه ، كيف رأيتمونى فعلت ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت ، فأثنوا عليه خيراً .

---

(٣٠٧) أخرجه أحمد والنسائى وغيرهما .. أسباب النزول للواحدى ص ١٥٦

(٣٠٨) البقرة ١٤

فرجع المسلمون إلى النبى ﷺ وأخبروه بذلك فنزلت هذه الآية (٣٠٩)

ب - فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧ ﴾ (٣١٠)

أخرج الحارث بن أبى أسامه فى مسنده وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجراً إلى النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش يريدون منعه ، فنزل عن راحلته واستل مافى كنانته ، ثم قال : يامعشر قريش ، لقد علمتم أنى أجيد الرمى ، وأيم الله لا تصلون إلىَّ حتى أرمى كل سهم معى فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شىء ، ثم افعلوا ماشئتم .

وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى ، قالوا : نعم - فدلهم على ماله وتركوه . . فلما قدم على النبى ﷺ المدينة قص عليه ماحدث ، فقال صلى الله عليه وسلم ، ربح البيع أبا يحيى فنزلت هذه الآية (٣١١)

جـ - فى آية

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ ﴾ (٣١٢)

---

(٣٠٩) هذا ما ذكره الواحدى ص ١٣ ولكن السيوطى فى أسباب النزول يقول : هذا الإسناد واد جداً .

(٣١٠) البقرة ٢٠٧

(٣١١) أسباب النزول للسيوطى ص ٢٨

(٣١٢) الأنعام ٥٢

ذكر أنه لما سبق إلى الاسلام رجال من الموالى والمستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ مثل صهيب وعمار و المقداد ، وبلال ، قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم حتى نؤمن بدينك فأنزل الله تعالى هذه الآية .

هذا ولا يشترط أن يكون للآية سبب واحد، فقد يكون هناك أكثر من سبب وعلينا فى هذه الحالة أن نأخذ فى سبب النزول بالرواية الصحيحة أو الرواية الراجحة فإن استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما حمل ذلك على تعدد سبب النزول .

وتختلف عبارات القوم فى التعبير عن سبب النزول فتارة يصرح فيها بلفظ السبب . . فيقال : « سبب نزول الآية كذا » وهذه العبارة نص فى السببية لا تحتمل غيرها . .

وتارة لا يصرح بلفظ السبب ، ولكن يؤتى بفاء داخلة على لفظ « أنزل أو نزلت » وذلك بأن يذكر الراوى حادثة ما ثم يقول عقب ذكره لهذه الحادثة فأنزل الله تلك الآية ، أو فنزلت تلك الآية ». ـ أى التى تبين تلك الحادثة ـ وهذه العبارة مثل السابقة فى الدلالة السببية أيضاً .

ومرة يُسْأل الرسول ﷺ فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه ، ولا يكون تعبير بلفظ سبب النزول ، ولا تعبير بتلك الفاء ، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام ، وحكم ذلك أيضا حكم ماهو نص فى السببية .

ومرة أخرى لا يصرح بلفظ السبب ، ولا يؤتى بتلك الفاء ، ولا يكون هناك سؤال يدل على سبب النزول ، وإنما يقال : نزلت هذه الآية فى كذا « مثلاً » وهذه العبارة ليست نصاً فى السببية ، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمنته الآية من أحكام، والقرائن وحدهاهى التى تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد : إحداهما نص فى السببية لنزول آية أو آيات والثانية ليست نصاً فى السببية لنزول تلك الآيات فإننا فى هذه الحالة نأخذ فى سبب نزول الآية بما هو نص فى السببية ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية ، لأن النص أقوى فى الدلالة .

مثال ذلك ما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول : من أتى امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله :

« نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (٣١٣)

وقد أخرج البخارى عن ابن عمر قال : أنزلت آية « نساؤكم حرث لكم » الخ

فى إتيان النساء فى أدبارهن . .

فالمعول عليه فى بيان سبب نزول هذه الآية هو رواية جابر لأنه قال بعد أن ذكر مقولة اليهود « فأنزل الله » فأتى بالفاء التى هى نص فى السببية ، أما ابن عمر رضى الله عنهما فقد قال : أنزلت الآية فى كذا ؟ ولم يأت بالفاء ولم يصرح بلفظ السبب فيقول مثلاً : سبب نزول الآية كذا . . ولذا فإن كلامه قد يحمل على أنه بيان لمدلول الآية ، وقد يحمل على السبب أما قول جابر فنص فى السببية لمجيئه بالفاء الدالة عليها .

(٢) آيات نزلت موافقة لرأى بعض أصحابه

وهذا الأمر لايتعدى أسباب النزول ،ولكنه يدل على شفافية معينة لدى بعض صحابة رسول الله ﷺ من أمثال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

---

(٣١٣) البقرة ٢٢٣

الذى قال النبى ﷺ فى حقه : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »

ذكر ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : مانزل بالناس أمر قط فقالوا وقال عمر إلا نزل القرآن على نحو ماقال عمر .

من أمثلة ذلك . . .

(أ) أخرج البخارى وغيره عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث ، قلت : يارسول االله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزل قوله تعالى :

« وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » (٣١٤)

وقلت : يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ؟ فنزلت آية الحجاب .

واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : لو طلقكن لأبدله الله خيراًمنكن : فنزل قوله ـ تعالى ـ

« عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ » (٣١٥)

وكان رأى عمر فى أسرى بدر أن يقتلوا فنزل القرآن الكريم موافقاً لرأيه فى قوله تعالى :

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ » (٣١٦)

---

(٣١٤) البقرة ١٢٥

(٣١٥) التحريم ٥

(٣١٦) الأنفال ٦٧

ب ـ وجاء على لسان سعد بن معاذ قوله حين سمع حادث الإفك : « هذا بهتان عظيم » فنزل قوله تعالى موافقاً لما جاء على لسان سعد ، قال تعالى :

« ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » (٣١٧)

هل نزل من القرآن شيء يوافق فى لفظه لما نزل على الرسل السابقين ؟

القرآن كلام الله أنزله على نبيه ﷺ وقد تقدمت القرآن كتب نزلت على الأنبياء السابقين ، ومايتزله الله على رسله لايتناقض ، فهو إما دعوة إلى توحيد أو تذكير بالآخرة أو دعوة إلى الفضائل أو وعد بإثابة أو إنذار بعقوبة وغير ذلك مما تتضمنه الآيات البينات .

ومتى كان المنزل من مصدر واحد لايبعد أن يكون المعنى متكررا فى بعض الأحكام . . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣١٨)

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما : لما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى » قال ـ ﷺ : كلها فى صحف إبراهيم وموسى .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا خالد بن عبدالله عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى .

---

(٣١٧) النور ١٦

(٣١٨) الأعلى ١٨ ، ١٩

وقد ذكر العلماء أن مما أنزله الله على محمد مما أنزل على إبراهيم ، قوله تعالى :

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾(٣١٩)

وقوله :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٣٢٠)

ومن ذلك مانزل فى شأن النبى ﷺ فى القرآن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ، (٣٢١)

---

(٣١٩) التوبة ١١٢

(٣٢٠) المؤمنين ١ : ١١

(٣٢١) الأحزاب ٤٥ : ٤٦

ذكر أن هذه الآية نزلت فى التوراة مضافا اليها بعض أوصاف أخرى للنبى ﷺ .

وغير ذلك من الآيات . .

وذكر الرواة : أن يوسف حين رأى برهان ربه رأى آيات من القرآن . . هى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (٣٢٢)

وهذا كله يشهد بأن القرآن الكريم قد وجد فى اللوح المحفوظ فى وقت لايعلمه إلا الله . ومن اطلعه ـ عز وجل ـ على غيبه . . قال عز من قائل :

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (٣٢٣)

موقف الكفار من القرآن

غنى عن القول أن الكفار على الرغم من إعجابهم بالقرآن وانبهارهم به لم يؤمنوا به ، ووقفوا منه موقف المعارضة . ذلك لأنه جاء يزلزل عقائدهم ، ويسفه أحلامهم ، ويسخر من آلهتهم التى يصنعونها بأيديهم .

لقد هالهم هذا البيان الرائع والقول الفصل والمنطق القوى وتحداهم بقوة لم يستطيعوا ردها ، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا عنادا واستكبارا . وهذا هو شأن الكفار فى كل زمان ومكان .

انهم يقفون دائماً من رسلهم موقف المكذب المستهزىء ، وقد جاء هؤلاء الرسل ليهدوهم إلى سواء السبيل ويخرجوهم من الظلمات إلى النور . وإذا طلب الكفار من الرسل آية وتحققت كذبوا بها .

وقد مر بنا كيف كان موقف الوليد بن المغيرة من القرآن الكريم حين

---

(٣١٢) الأنفطار ١٠ : ١٢

(٣٢) سورة الزخرف ٤

سمعه فلم يملك نفسه إلا أن يقول : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه » .

وكانوا أحيانا يتسللون خفية ليسمعوا القرآن والنبى - ﷺ - يتلوه . .

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا الى القرآن من رسول الله - ﷺ - وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لايعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا - ثم قال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسهم شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أباسفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد .

فقال : ياأباثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولامايراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به - كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل ، فدخل عليه فى بيته . فقال : ياأبا الحكم ، مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ .

فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه (٣٢٤)

إن اجتماع هؤلاء الثلاثة بهذه الصورة المتكررة لسماع القرآن دليل على إعجابهم به ، ولكن عدم إيمانهم مرده إلى ماركب فى طباعهم من كبر وحسد ظهر أثره واضحا فى كلمة أبى جهل .

إذ كيف يسلِّمون لمحمد بالنبوة ؟ .

ولكنهم فى مناوأتهم للحق كانوا كمن ينفخ رماد . .

وقد حاول بعضهم أن يصد سمعه عن القرآن ، ولكن دون جدوى .

وفضح القرآن ماكانوا يصنعونه ويتكلفونه حين كان النبى ﷺ - يتلو القرآن ، من وضع أصابعهم فى آذانهم ، أو ادعائهم عدم سماع ماأنزل على النبى - ﷺ - بسبب ماكانوا يصدرونه من تصايح وتصفيق . . أثناء تلاوة القرآن قال تعالى :

(٣٢٥)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قال ابن عباس - فيما يرويه القرطبى : قال أبوجهل للمشركين : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لانسمع مايقول .

---

(٣٢٤) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦٩

(٣٢٥) فصلت ٢٦

وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن .

وقال مجاهد : والغوا فيه» بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى لايسمعه أحد [٣٢٦]

وقد ختم الله على قلوب هؤلاء وحال بينهم وبين فهم مايراد من القرآن الكريم ووصف حالهم بقوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣٢٧)

إنه حين أذهلهم بفصاحته وبلاغته ، وأفحمهم بحججه وبراهينه ، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا . فروا إلى المكابرة والعناد ، ولجأوا إلى المغالطة والافتراء ، فادعوا كذبا وزورا أن هذا القرآن من أساطير الأولين :

﴿ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [٣٢٨]

ومن الذي يمليها ؟ إنه كما يزعمون عبد أعجمى لايكاد يبين . .

ولكن الله يرد على افتراءاتهم بقوله :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [٣٢٩] .

(٣٢٦) انظر تفسير القرطبى ـ سورة فصلت ـ المكاء ـ الصغير

(٣٢٧) الأنعام ٢٥

(٣٢٨) الفرقان ٥

(٣٢٩) النحل ١٠٣

﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾ ٦ (٣٣٠) .

لقد حاولوا أن يصدوا أنفسهم عن سماع القرآن وأن يصموا آذانهم عنه . فوضع الله حجابا على قلوبهم أن يفقهوه .. وقال تعالى فى ذلك

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣٣١)

وكما قال بعضهم عن القرآن : إنه أساطير الأولين ، قال بعضهم : إنه سحر يؤثر .. وقد كذبوا فى قولهم وخسروا .. إنه قول الحق جل وعلا ، الذى ليس فى طوق بشر أن يأتى بمثله . وما قولهم هذا إلا أضاليل حاولوا أن يستروا بها عجزهم أمام جلال هذا القرآن وبيانه الرائع ومنطقه الفصل . لقد آمن كثير منهم بسبب تأثرهم بعظمة القرآن وصولته ـ وفى مقدمة هؤلاء كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

---

(٣٣٠) الفرقان ٦

(٣٣١) الاسراء ٤٥ : ٤٧

القرآن وأهل الكتاب

وإذا كان المشركون قد أدركوا عظمة القرآن ولم يؤمنوا به كبرا وعنادا، فإن أهل الكتاب وقفوا نفس الموقف .

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى مواضع :

قال تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٣٣٢)

قال صاحب تفسير المنار : إن الذين أعطاهم الله علم الكتب المنزلة قبل القرآن كأحبار اليهود والنصارى وعلمائهم كانوا يعلمون أن هذا الكتاب منزل على محمد ـ ﷺ ـ بالحق . . . وبيان ذلك من وجهين :

أحدهما أن العالم بالشيء يميز بين ماكان منه ومالم يكن ، فمن ألف كتابا فى علم الطب كان الأطباء أعلم الناس بكونه طبيبا ، ومن ألف كتابا فى النحو كان النحاة أعلم الناس بكونه نحويا ، كذلك المؤمنون بالوحى العاملون بما أنزل الله على أنبيائهم منه يعلمون أن هذا القرآن من جنس ذلك الوحى وفى أعلى مراتب الكمال ، وإن أوسع البشر علما لايستطيع أن

---

(٣٣٢) الانعام ١١٤ : ١١٥

يأتى بمثله ، فكيف يستطيعه رجل أمىّ لم يقرأ ولم يكتب قبله شيئا قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٣٣)

ثانيهما : أن فى الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل بشارات بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن تخفى على علماء اليهود والنصارى فى زمنه ـ ﷺ ـ وقد سبقت الإشارات إلى ذلك فيما أوردنا من أحاديث حول البشارات والإرهاصات . وقد أشار الحق سبحانه وتعالى إلى معرفة أهل الكتاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾(٣٣٤)

وقد آمن المنصفون منهم به . . وأما غير المنصفين فقد كتموا الحق وعاندوا بغيا وحسدا وكبرا كما فعل المشركون تماما .

بل إن هؤلاء كانوا أشد مكرا من المشركين ، لما أدركوا من علوم سابقة يجهلها المشركون . ولهذا كانوا يحاولون التقدم إلى النبى ـ ﷺ ـ بأسئلة بغية إحراجه أو تعجيزه ، وقد يلقنون هذه الأسئلة للمشركين ، ويطلبون منهم أن يسألوا النبى عنها . . وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يلهم نبيه الإجابة ويمده بالوحى الذى ينزل عليه بما يرد على أسئلتهم .

---

(٣٣٣) العنكبوت ٤٨

(٣٣٤) البقرة ١٤٦

وعلى نمط المعاندين من أهل الكتاب الذين عاصروا النبى - ﷺ - سار المستشرقون فى العصور المتأخرة فحاولوا النيل من القرآن بغية النيل من الإسلام ورسوله . وقالوا فى شأن القرآن ماقاله أئمة الكفر السابقين . ولكن علماء الإسلام كانوا لهم بالمرصاد فردوا عليهم مفترياتهم ودحضوا أباطيلهم فجزاهم الله عن الإسلام وكتابه ورسوله خير الجزاء ..

وبقيت كلمة هى أن الله عز وجل قد تعهد بحفظ القرآن فقال ..

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣٣٥)

وبناء على هذا فقد باءت

محاولات أهل الكتاب قديما وحديثا بالفشل ، وكم من مرة حاول فيها أعداء القرآن أن يحرفوا شيئا من آى القرآن الكريم ، ولكن سرعان ماتنكشف محاولاتهم وتنفضح أساليبهم على أيديهم هم أنفسهم وربما قبل أن تنكشف على أيدى المسلمين .

لقد ظهر صدق كفالة الله بحفظ القرآن بتسخير الألوف الكثيرة فى كل عصر بحفظه عن ظهر قلب ، وبكتابة النسخ التى لاتحصى منه فى كل عصر من زمن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - حتى هذا العصر الذى نحن فيه (٣٣٦) .

انظر إلى ملايين النسخ ومئات الطبعات المختلفة الأشكال والأحجام ، وملايين الأشرطة التى تذاع بأصوات مشاهير القراء عبر موجات إذاعات العالم كله بما فيها إذاعات الأعداء أنفسهم ، ويقتنيها الناس فى مختلف أنحاء المعمورة ..

---

(٣٣٥) الحجر ٩

(٣٣٦) راجع تفسير المنار جـ ٨ ص ٩ وما بعدها

هذه خصيصة للقرآن الكريم لم تتوفر لغيره من الكتب السابقة التي تناولتها أيدي أصحابها والقائمين عليها بالتغيير والتحريف والتبديل .

خاتمة : في آداب حفظ القرآن وتلاوته

لقد جعل الله القرآن معجزة باقية خالدة أبد الدهر ، لاتفنى آياته ، ولاتبلى عجائبه ، ولاتمحى بركته ، ولاتطفأ أنواره ، ولاتنقضي أسراره . . لأنه حبل الله المتين وصراطه المستقيم ومعجزة خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد دعانا الله إلى تلاوته وتدبره ، فقال ـ جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾(٣٣٧)

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٣٣٨)

ولقد يسر الله القرآن للذكر والتلاوة ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾(٣٣٩)

وهذه خصيصة أخرى من خصائصه . حتى إن الطفل الصغير يستطيع أن يحفظه وهو دون العاشرة ، بل إن هناك من يحفظه في سن الخامسة أو السادسة . .

---

(٣٣٧) فاطر ٢٩ : ٣٠

(٣٣٨) ص ٢٩

(٣٣٩) القمر ١٧

لقد أمرنا الله بقراءته فقال تعالى :

﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (٣٤٠)

ثم حبب الينا قراءته فى وقت السحر فقال :

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣٤١)

وأمرنا بتعهده وحفظه وعدم تضييعه بالغفلة والنسيان :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣٤٢)

وقد روى عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ ـ قال : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها » .

ويستحب الاجتماع على تلاوة القرآن ، فقد روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « ماجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

---

(٣٤٠) المزمل ٢٠

(٣٤١) الاسراء ٧٨ : ٧٩

(٣٤٢) طه ١٢٤ : ١٢٦

وقد وضع سادتنا العلماء الأفاضل ـ رضوان الله عليهم ـ آدابا لتلاوة القرآن الكريم مشتقة من منطوقه ومن الآثار الشريفة الواردة فى ذلك .

● فمن هذه الآداب التطهر قال ـ تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾(٣٤٣)

● ولأن تلاوة القرآن عبادة فينبغى للقارىء أن يستقبل القبلة ما أمكنه ويجلس كجلسته فى الصلاة فى أدب وخشوع .

● وعليه أن يستعيذ قبل التلاوة لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ ﴾(٣٤٤)

● وعليه أن يرتله كما أمر الله بذلك :

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾(٣٤٥) مراعيا فى ذلك أحكام القراءة وشروطها .

● وعلى القارىء أن يستحضر عظمة القرآن وعلو قدره وعظمة المنزل عليه ـ ﷺ ـ وعظمة من أنزله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن توجيهات والد الشاعر الاسلامى محمد إقبال لابنه فى ذلك .. « يابنى اقرأ القرآن بأدب وخشوع وتدبر معانيه » .

---

(٣٤٣) الواقعة ٧٥ : ٨٠

(٣٤٤) النحل ٩٨ : ٩٩

(٣٤٥) المزمل ٤

ويقول الشاعر الإسلامى محمد إقبال فى ذلك ..

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره مانظمت . ولم يزل محمد إقبال - فيما يحكيه العلامة أبوالحسن الندوى - إلى آخر عهده بالدنيا يغوص فى بحر القرآن ، ويطير فى اجوائه ويجوب فى آفاقه ، فيخرج بعلم جديد واشراق جديد وقوة جديدة ، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق أفكاره ازداد إيمانا بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدى ، وأساس السعادة ومفتاح الأقفال المعقدة وجواب الأسئلة المحيرة إنه دستور الحياة ونبراس الظلام (٣٤٦) .

هذا مع العلم بأن لسان إقبال لم يكن عربى الأصل ، ولكنه تعلم العربية وأتقنها من أجل الإسلام والقرآن .

فما بالك لو كان القارىء للقرآن عربى الأصل والبيان ؟

● ومن الأداب عند قراءة القرآن ترك الشواغل ، وحضور القلب ، وتدبر المعانى ، وتفهم الأحكام ، والتأثر بالقراءة ، بمعنى أن القارىء إذا مر بآية تسبيح سبح ، وبآية دعاء دعا ، وبآية استغفار استغفر ، وبآية سجود سجد سجدة التلاوة ، وإذا مر بذكر الجنة تشوق إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار استعاذ منها ، وأن تكون غايته من التلاوة طلب ثواب الله ، لاطلب السمعة أو الرياء أو الأجر من الناس .

● وسامع القرآن شأنه شأن القارىء فى وجوب التدبر فيما يسمع وحسن الإنصات له استجابة لأمر الله فى قوله :

---

(٣٤٦) روائع إقبال - أبو الحسن الندوى ص ٤٥

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾(٣٤٧)

وإلا كان شأنه شأن الكافرين الذين ورد فى حقهم قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣٤٨)

وورد فى حقهم :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾(٣٤٩)

إن كل مسلم يسمع القرآن ينبغى أن يكون شانه شأن الذين وصفهم الله بقوله :

﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾(٣٥٠)

وبقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾(٣٥١)

---

(٣٤٧) الأعراف ٢٠٤
(٣٤٨) فصلت ٢٦
(٣٤٩) الاسراء ٤٧
(٣٥٠) الحج ٣٤ : ٣٥
(٣٥١) الأنفال ٢

لقد أحسن أسلافنا - رضوان الله عليهم - حينما وعوا ذلك تماما ، وأدركوا قيمة هذا القرآن العزيز الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين منجما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الظروف والأحوال والمناسبات ، ليتدبره المسلمون ، وتعيه الآذان الواعية ، وليسهل حفظه ومعرفة مراميه ، وليقطع ألسنة المعاندين والمعارضين .

واجب المسلمين

لقد قال الله - تعالى : فى شأن هذا الكتاب وأهله :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(٣٥٢)

وهذا يدعو المسلمين إلى التنبه إلى واجبهم نحو هذا الكتاب الذى رفع الله به شأنهم بين الأمم ، فلا عز لهم إلا به ، ولا مجد لهم إلا إذا انتهجوا طريقة ، وساروا على تعاليمه ، مصداقا لقوله - صلى الله عليه وسلم : تركت ، فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » .

وقد حفظ الله كتابه بنفسه ليظل منهج المسلمين محفوظا محروسا بعناية الله من التحريف والتبديل . .

ولذلك فقد آن للمسلمين أن يفتحوا مع القرآن الكريم صفحة جديدة ، يجددون فيها عهدهم معه ، ويقرءونه قراءة واعية مستنيرة ، ليستخرجوا منه مايصلح حياتهم ويبنى مستقبلهم ويسعد شعوبهم ويذهب الفرقة من بينهم ، ويزيل عنهم الغربة التى يشعرون بها الآن ، فلن يصلح حالهم إلا بهذا الكتاب المبين قال تعالى :

---

(٣٥٢) الأنبياء ١٠

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ (٣٥٣)

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ (٣٥٤)

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ (٣٥٥)

وبعد ، فد تحدثنا فى إيجاز شديد عن القرآن الكريم معجزة الرسالة الخالدة الذى يحتاج الحديث عنه إلى مجلدات . وقد هدفنا من ذلك إلى التعريف بهذا السلاح القوى الذى وضعه الله فى يد نبيه - ﷺ - ليمضى به فى دعوته التى كلف تبليغها إلى أمته .

فمضى على هدى من الله . . فى قلبه الإيمان ، وفى يده القرآن . . قائلا بلسان الحق الذى أنزله عليه :

قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

والآن مع النبى - ﷺ - فى تبليغ دعوته .

---

(٣٥٣) فصلت ٤٤

(٣٥٤) الاسراء ٨٢

(٣٥٥) الاسراء ٩ : ١٠

(٣٥٦) يوسف ١٠٨

بدء الدعوة

- فتور الوحي .
- الأمر بالتبليغ .
- الدعوة سرًا .
- من أسلم أولاً ؟
- السابقون الأولون .
- مدرسة دار الأرقم .
- فاصدع بما تؤمر .
- لم خص الله قرابة النبي بالإنذار أولاً ؟

- الإيذاء .
- لماذا قاومت قريش الدعوة ؟
- الإيذاء لم يثن محمدًا عن تبليغ الدعوة .
- وسائله في تبليغ الدعوة .
- وسائلهم في إعاقة الدعوة .



عرفنا فيما سبق أن القرآن الكريم هو معجزة الرسالة الإسلامية الخالدة ، وأنه قد نزل على الرسول ﷺ منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة . . وهى الفترة الزمنية منذ أن نبىء محمد ﷺ فى الأربعين من عمره إلى أن لحق بالرفيق الأعلى وهو فى الثالثة والستين من العمر . . وطوال هذه الفترة صاحب القرآن رسول الله ﷺ مؤيداً له ومعيناً له على مصاعب الدعوة ومشاقها .

وقد عرف محمد ﷺ أنه نبى هذه الأمة ، ورسول آخر الزمان منذ أن نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالآيات الأولى من سورة « اقرأ » وبعد أن ذهب إلى ورقة بن نوفل وقص عليه مارآه وطمأنه ورقة بأن هذا هو الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام ، وبشره بأنه نبى آخر الزمان الذى أخبرت به الكتب السماوية السابقة . . اطمأن قلب النبى ﷺ بما نزل عليه من قرآن وبما شاهده من رؤية جبريل ـ عليه السلام ـ

وتأمّل فى معنى ما نزل عليه ، فوجده يفيض بالمعانى النيرات ، ويزخر بكثير من الإشراقات ويحمله الكثير من التبعات والعديد من المسئوليات . .

إنها دعوة إلى العلم فى بيئة لا تعرف عن العلم شيئاً ، ودعوة إلى التأمل والتفكير فى قوم ألغوا عقولهم ، وأهملوا فكرهم ، وغضوا عن التأمل أبصارهم . .

ولكنه على الرغم من شعوره بثقل هذه التبعة التى ألقيت عليه كان يشعر بجمالها وجلالها ويأنس إليها لأنها تصله بالملأ الأعلى ، وتقربه من عالم المثل العليا ، وتطلعه على عالم الغيب وتملأ قلبه سكينة وأمنا واطمئناناً

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يربطه تماماً بهذا الأمر ويشغله به ليفرغ كل همه إليه ، فجعل يشوقه ، إليه وإلى انتظار الملك الذى يجىء بالوحى :

فتـــور الوحـــى [358]

ولكن الوحى يفتر ، وينتظر النبى ﷺ مجىء جبريل فلا يجىء فيشتد الأسى به ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد حزن النبى ﷺ حزناً شديداً وعانى الكثير من التعب فى تلك الفترة وانتابته الوساوس والأشجان الكثيرة إلى الدرجة التى كان يشعر معها أن الحزن يكاد يقضى عليه .

إن هذا يعنى تعلق النبى ﷺ الشديد بالوحى ، وبما رآه فى مصاحبته من أنس ملأ كيانه وملك وجدانه حتى لقد خشى أن يفوته ذلك الأنس الذى ملأ روحه يقيناً وسعادة واطمئناناً .. إنها السعادة الحقة التى لا تعد الحياة بدونها حياة .

ويختلف الرواة فى تقدير هذه المدة التى فتر فيها الوحى ..

فمنهم من يقول : إنها ثلاث سنوات ، ومنهم من يقول : إنها سنتان ونصف ، ومنهم من يقول : إنها ستة أشهر ، ومنهم من يقول إنها أقل من ذلك ..

وقد أشار ابن حجر ـ فى فتح البارى ـ إلى الحكمة من فتور الوحى فقال : وفتور الوحى عبارة عن تأخره مدة من الزمان ، وكان ذلك ليذهب عن النبى ﷺ ماكان قد وجده من الروع والخوف عندما نزل عليه الملك بالوحى أول مرة ، وليحصل له التشوق إلى العود .

وقد حددت هذه المدة فى حديث مرسل رواه أحمد عن الشعبى بأنها كانت سنتين ونصف .. فإذا ضمت مدة فتور الوحى هذه إلى مدة الوحى بالرؤيا

---

(٣٥٨) معنى فتور الوحى انقطاعه عن النبى ﷺ فترة من الزمن

الصادقة وهى ستة أشهر كما ذكر قبل ذلك ، كان المجموع ثلاث سنين ، وهى مدة النبوة التى لم يؤمر فيها النبى ﷺ بالتبليغ .. ثم نزل بعد تلك الفترة قوله تعالى : « ياأيها المدثر قم فأنذر » فكان هذا أمراً من الله تعالى ببدء مهمة التبليغ والرسالة بالفعل .. وليس المراد بفتور الوحى فى تلك المدة أن جبريل عليه السلام لم يكن ينزل على الرسول ﷺ بل المراد تأخر نزول القرآن فقط .

أما نزول الملك فكان يحدث فى تلك المدة بين الحين والحين خصوصاً عندما يشتد الحزن بالنبى ﷺ بسبب توقف الوحى - فكان جبريل ينزل لطمأنته ... يؤيد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن الفترات التى كان يسكن جاش الرسول إنما كانت أياماً ، ثم يعاوده الحزن ، فلعل تلك الفترات التى كان يسكن فيها جأشه هى عندما ينزل عليه الملك ويطمئنه ويخبره أنه رسول الله ، ثم يعاوده الحزن بعد ذلك إذا تأخر عليه الملك .

ثم أذن الحق سبحانه وتعالى - بنزول الوحى بعد فتوره .. فمكث صلى الله عليه وسلم أياماً لايرى جبريل ، لا بوحى ، ولا بدونه ، فحزن حزناً شديداً ، وصعد إلى حراء فبينما هو كذلك إذ سمع صوتاً فوقف فزعاً ثم رفع رأسه ، فإذا جبريل على كرسى بين السماء والأرض متربعاً يقول ، يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل ، فانصرف وقد أقر الله عينه وانبسط جأشه .. ثم تتابع الوحى (٣٥٩)

لقد علل بعض العلماء هذا الحزن الشديد الذى أصابه ﷺ بسبب فتور الوحى بخشيته ﷺ من ذهاب الأمر الذى بشر به وهو النبوة ، وهذا أعظم

---

(٣٥٩) انظر فتح البارى جـ١٣ كتاب التعبير

ما يطمح إليه بشر . . فإذا كان قد بُشِّر بها وجاءه الملك بها وأنس فؤاده إليها ، فما باله لا يعاوده الملك بما كان يجيئه به ؟ أتراه قد صرف الأمر عنه ؟

هذه أحاسيس لا يبعد أن تكون قد راودته ﷺ وهى التى أصابته بذلك الغم الشديد الذى كاد يسلمه إلى اليأس . . ولكن الله كان يثبت فؤاده بإظهار جبريل ـ عليه السلام ـ أمامه يقول له : أنت رسول الله حقاً . . فيطمئن . .

الأمر بالتبليغ

ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦٠) : عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ثم فتر الوحى عنى ، فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى إلى السماء ،فإذا الملك الذى كان يجيئنى قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، ففزعت حتى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلى ، فقلت لهم : دثرونى دثرونى ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ (٣٦١)

وأبلغ النبى ﷺ الدعوة إلى أهل بيته . .

فكان أول من آمن به خديجة ـ رضي الله عنها ـ

وقد رأى كثير من العلماء أن فترة انقطاع الوحى هى الفترة ما بين نزول « اقرأ » إلى نزول سورة المدثر

---

(٣٦٠) دلائل النبوة جـ ٢ ص ١٤٠

(٣٦١) المدثر ١ : ٥

وذكر ابن هشام فى سيرته : أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحى لتطمئن النبى ﷺ بأن ربه لم يودعه ولم يتركه .

قال ابن هشام راوياً عن ابن إسحاق : ثم فتر الوحى عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك ، حتى شق ذلك عليه ، فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى :

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾ (٣٦٢)

قال بن هشام : يقسم له ربه ـ وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ـ أنه ما ودعه وما قلاه ، فقال : تعالى :

﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى ﴾ يقول ما قطعك قطع المودع وماكرهك . ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ اى مالك فى الآخرة أعظم وأجل من كل ماق الدنيا من متع ونعيم ، فلك السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمتك على سائر الأمم . ولك الشفاعة العظمى . ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وهذا شامل لعطاء الدنيا والآخرة فقد أعطاه

---

(٣٦٢) سورة الضحى

فى الدنيا النصر والظفر بأعدائه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشرت دعوة الإسلام ووصلت إلى كل مكان .. كما ادخر له فى الآخرة من الثواب والنعيم مالايعلم كنهه إلا الله .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

يعرفه الحق سبحانه وتعالى ماأكرمه به فى عاجل أمره ، فقد ولد يتيماً فرعاه الحق سبحانه وتعالى وحفظه ، وكان حائراً يبحث عن طريق الحق والصواب فهداه الله إلى الطريق الصحيح ، وأكرمه بالنبوة والرسالة ، ورضاه بما أنعم عليه من الرزق فأصبح غنياً ، لأن الرضا هو الغنى الكامل . ويذكر القرطبى رواية أخرى لنزول تلك السورة فيقول :

سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف قال : « سأخبركم غداً » ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه الوحى . إلى أن نزل جبريل بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾(٣٦٣)

ثم أخبره الله عما سئل عنه ، وفى هذه القصة نزلت :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

وقد ذكرنا ما أورده القرطبى (٣٦٤) حول هذه السورة لتوضيح أن آيات المدثر هى التى نزلت عقب فتور الوحى . وفيه أمر له ﷺ بالتبليغ ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى ـ له : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ .

أما سورة الضحى فلا أمر له فيها بالتبليغ .

---

(٣٦٣) الكهف ٢٣، ٢٤

(٣٦٤) تفسر القرطبى ـ سورة الضحى ـ ص ٧١٨٢

أما الحكمة فى مخاطبته ﷺ - بوصف المدثر فقد أشار إليها السهيلى فقال : إن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التى هو عليها ، فلاطفه الحق - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فبذلك علم رضاه الذى هو غاية مطلوبه ، وبه كان يهون عليه تحمل الشدائد .

قال : ومن هذه الملاطفة قول النبى ﷺ - لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه : قم ياأباتراب - وكان قد نام وترب جنبه ، وقوله - ﷺ - لحذيفة فى غزوة أحد : قم يانومان .

الدعــوة ســراً

ويبدأ النبى - ﷺ يدعو سرا إلى الإيمان بالله واتباع دينه الحق . . فكان أول من آمن به - كما سبقت الاشارة - زوجه - خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها .

وقد كوفئت لهذه المبادرة الطيبة من الحق - سبحانه وتعالى - روى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ - أمر أن يبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولانصب (٣٦٥) .

وروى مسلم هذا الحديث متصلا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماغرت على أحد ماغرت على خديجة ، ولقد ماتت قبل أن يتزوجنى رسول الله - ﷺ - بثلاث سنين ، ولقد أمر أن يبشرها ببيت من قصب فى الجنة . وقد وصف هذا البيت بأنه لاصخب فيه ولانصب .

وهذا البيت قد بشرت به خديجة - رضى الله عنها - حين سالت النبى ﷺ قائلة : هل فى الجنة قصب ؟ فقال : إنه قصب من لؤلؤ مُجَبّى - أى مقطع .

---

(٣٦٥) القصب هنا : الدر والزبرجد المرصع بالياقوت

وهذا العطاء قد خصص لها ثوابا لإيمانها وعملها وسبقها إلى الإسلام . .

وروى ابن هشام فى سيرته قال : حدثنى من أثق به أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى رسول الله ـ ﷺ فقال اقرىء خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله ﷺ : ياخديجةهذا جبريل يقرئك السلام من ربك . فقالت خديجة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

لقد علمت خديجة ـ رضى الله عنها ـ بتفقيه الله لها وإلهامه إياها أن الله لايرد عليه السلام ، كما يرد على المخلوق ، لأن السلام دعاء بالسلامة ، فكان معنى قولها ـ كما ذكر السهيلى : الله السلام ، فكيف أقول عليه السلام والسلام منه يسأل ومنه يأتى ؟ ولكن على جبريل السلام [٣٦٦] إنه الأدب الذى اكتسبته من مصاحبتها للنبوة ، وهو توفيق من الله . . .. . هذا الأدب دلها على أن تجعل رد التحية ثناء على الله . وتمجيداً له وتعظيما لجلاله ـ سبحانه .

من أسلم أولاً ؟

ليس من المبالغة إذا قلنا إن خديجة آمنت بالنبى ﷺ ـ قبل بعثته ، فقد آمنت به حين رأته عائداً من تجارتها وقد أظله الملكان ، وآمنت به حين عاشرته وخبرت أخلاقه فأدركت أنه ليس من هؤلاء الناس الذين رأتهم وعرفتهم ولكنه نسيج وحده . . إنه محل عناية الله فى الأرض ، فجدير به أن يكون هو نبى آخر الزمن الذى وعد الله به عباده وجاء خبره فى الكتب السابقة ، وورد ذكره على ألسنة الكهان والأحبار .

وصدّق لسانها هذا الإيمان الذى انطبع فى قلبها حين عاد إليهاالنبى ـ ﷺ ـ

---

(٣٦٦) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ ص ٢٨٠

ترجف بوادره بعد أن تلقى أول وحى ، فقالت له : والله لن يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتعين على نوائب الدهر . . وأسرعت إلى ورقة تستخبره فما زادها قول ورقة إلا يقينا . .

وتبع خديجة فى الإيمان على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وكان فى كنف الرسول ـ ﷺ .

ذلك أن أبا طالب كان ذا عيال كثيرة فقال النبى ـ ﷺ ـ لعمه العباس وكان من أيسر بنى هاشم : إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ماترى من جهد وبلاء ، بسبب أزمة كانت قد طرأت فى قريش ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنكلهما عنه . فاستجاب العباس رضى الله عنه ـ لهذا الرأى المستنير من رسول الله ﷺ ـ وأسرعا حتى أتيا أبا طالب ، فعرضا عليه مااتفقا عليه . فقال أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ماشئتما . فأخذ النبى ـ ﷺ ـ عليا فضمه إليه .

وأخذ العباس جعفرا فضمه اليه .

فلم يزل على فى كفالة النبى ـ ﷺ ـ حتى كبر ، وكان بمثابة ولده وأحبه حبا شديداً وزوجه ابنته فاطمة التى كانت أحب بناته إليه .

وهذا من سعادة على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ثم أسلم زيد بن حارثة ، وكان مولى للنبى ـ ﷺ .

ثم أسلم أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ واسمه عبدالله بن عثمان .

كانت سن على بن أبى طالب حين أسلم عشر سنين . . وصحب النبى ـ ﷺ ـ فى عبادته حين أمر الله نبيه بالعبادة .

ذلك أنه لادين بدون عبادة . .

فرضيــة الصلاة

وأساس العبادة الصلاة . . وقد فرضت مبكرة قبل أن تفرض بصورتها مالتى

هى عليها الآن فى ليلة الاسراء والمعراج . . كانت الصلاة ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشى . . أورد ابن هشام فى سيرته قال : قال ابن إسحاق :

حدثنى بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ - أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فضرب بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل - عليه السلام - ورسول الله - ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله - ﷺ - كما رأى جبريل توضأ ،ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله - ﷺ - بصلاته .

ثم انصرف جبريل - عليه السلام . . . وروى عن عائشة - رضى الله عنها - قولها : افترضت الصلاة على رسول الله - ﷺ - أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين ، ثم إن الله - تعالى - أتمها فى الحضر أربعا وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين [٣٦٧] .

وذكر العلامة ابن حجر فى كتابه الإصابة فى ترجمة عزيزة العبدرية أنها قالت : كانت قريش لاتنكر صلاة الضحى ، وكان المسلمون قبل أن تفرض الصلوات الخمس يصلون الضحى والعصر ، وكان النبى - ﷺ - وأصحابه إذا صلوا آخر النهار تفرقوا فى الشعاب فصلوها فرادى [٣٦٨] .

لقد أشارت المصادر إلى أن فرضية الصلاة كانت مصاحبة للبعثة ، وأداها النبى - صلى الله عليه وسلم - جماعة مع من آمن به أولا ، وكان من آمن به أولا خديجة وعلى بن أبى طالب ذكر ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة فى ترجمة عفيف الكندى أنه قال :

---

(٣٦٧) سيرة ابن هشام حـ١ ص ٢٦٢

(٣٦٨) الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٨ ص ٢٦

جئت فى الجاهلية إلى مكة ، وأنا أريد أن أبتاع لأهلى من ثيابها وعطرها ، فأتيت العباس بن عبدالمطلب ـ وكان رجلا تاجراً ـ فأنا عنده جالس حيث أنظر إلى الكعبة ، وقد حلقت الشمس فى السماء فارتفعت وذهبت ، إذ جاء شاب . فرمى ببصره إلى السماء ، ثم قام فاستقبل الكعبة ، ثم لم ألبث إلا يسيرا حتى جاء غلام فقام على يمينه ، ثم لم ألبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة ، فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة .

فقلت : ياعباس ، أمر عظيم . قال العباس : أمر عظيم ، تدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا . قال : هذا محمد ابن أخى عبد الله

أتدرى من هذا الغلام ؟ هذا على ابن أخى .

أتدرى من هذه المرأة ؟ هذه خديجة بنت خويلد ـ زوجة محمد ـ إن ابن أخى هذا أخبرنا أن ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذى هو عليه ، ولا والله ما على الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة (٣٦٩)

كان ذلك ـ كما يشير هذا الخبر ـ قبل ان يفشو أمر الدين ، فلم يكن زيد قد اسلم ـ ولاأبوبكر ـ رضى الله عنهما .

ويؤكد ذلك الخبر مايرويه ابن هشام قال :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حضرت الصلاة خرج إلى الكعبة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا ، ثم إن أباطالب عثر عليهما يوما يصليان ، فقال لرسول الله ـ ﷺ ـ يابن أخى ، ماهذا الدين الذى أراك تدين به ؟ .

---

(٣٦٩) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٩

قال : أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم أو كما قال ﷺ - بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه . فقال أبوطالب : أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لايخلص أحد إليك بشىء تكرهه ماحييت .

وقال لابنه على : أما إنه - أى النبى - ﷺ - لم يدعك إلا إلى خير فالزمه (٣٧٠) .

هذه الأخبار ترشدنا إلى أن علياً كان أسبق الناس بعد خديجة - رضى الله عنها - إلى الإيمان . .

وبعده أسلم زيد بن حارثة . .

من زيد ؟

وزيد : هو بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبدالعزى بن امرىء القيس الكلبى . . الوحيد الذى ورد اسمه صريحا فى القرآن الكريم من بين الصحابة الأجلاء ، وذلك فى قوله - تعالى -

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(٣٧٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٥ .

﴿ حَرَجٌ فِي أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

وكان زيد قد اختطفته عصابة وهو صغير ، ذلك أن أمه خرجت به لتزور قومها فى بنى معن فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جسر ، فأخذوا زيداً وبيع على أنه رقيق فى بعض أسواق الشام أو الحجاز ، واشتراه حكيم بن حزام ووهبه إلى عمته خديجة بنت خويلد - زوج النبى - ﷺ - ووهبته بدورها إلى النبى - ﷺ - فأصبح زيد مولى لرسول الله - ﷺ وتوسم فيه النجابة والاخلاص فأحبه .

وكانت سن زيد إذ ذاك ثمانى سنين .

وكان حارثة والد زيد لا يكف عن السؤال عن ابنه ويبحث عنه ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، وأخذ يبث فى شعره شوقه إليه ووجده عليه ، ومن ذلك قوله :

بكيت على زيد ولم أدر مافعل	أحىٌّ يُرَجَّى أم أتى دون الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائل	أغا لك سهل الأرض أم أغا لك الجبل
فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة	فحسبى من الدنيا روجوعك لى بجل (٣٧٢)

---

(٣٧١) الأحزاب ٣٧

(٣٧٢) بجل بمعنى حسب

تذكرنيه الشمس عند طلوعها وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل [٣٧٣]

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره فيا طول ما حزنى عليه ويا وجل [٣٧٤]

سأعمل نص العيش فى الأرض جاهدا ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل [٣٧٥]

حياتى أو تأتى على منيتى وكل امرىء فانٍ وإن غره الأمل

سأوصى به قيسا وعمراً كليهما وأوصى يزيدا ثم من بعده جبل

يعنى أنه سيوصى إخوته عليه للبحث عنه بعده ..

ثم إن قوماً من كلب قبيلة زيد حجوا ، فرأوا زيدا فعرفوه وعرفهم ، فقال لهم : أبلغوا عنى أهلى هذه الأبيات ، فإنى أعلم أنهم جزعوا علىَّ :

أحن إلى قومى وان كنت نائيا فإنى قعيد البيت عند المشاعر

فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر

فإنى بحمد الله فى خير أسرة كرام معد كابرا بعد كابر

وعاد هؤلاء القوم يبشرون أباه بالعثور عليه ، ويصفون له موضعه ومكانه ، فخرج حارثة ومعه أخوه كعب لفداء زيد ، فقدما مكة ، والتقيا بالنبى - ﷺ - وقالا له : يابن عبدالمطلب ، يابن هاشم ، يابن سيد قومه جئناك فى ابننا عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه .

---

(٣٧٣) الطفل : الغروب

(٣٧٤) الأرواح : الرياح ، والوجل : الخوف

(٣٧٥) العيس : الإبل - ونصها : حثها على بذل أقصى سرعتها

فقـــال النبى - ﷺ - : من هو؟

قالوا : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله - ﷺ : فهلا غير ذلك ؟

قالوا : ماهو؟

قال : ادعوه وخيِّروه ، فإن اختاركم فهو لكم - يعنى بغير فداء - وإن اختارنى فوالله مأأنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا .

قالا : قد زدتنا على النَّصَف ، وأحسنت . أى قد أنصفتنا وزدت وأحسنت إلينا فدعاه رسول الله - ﷺ - فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبى ، وهذا عمى .

قال النبى - ﷺ - فأنا من عرفت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما . قال زيد : ما أريدهما ، وما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم .

قالا : ويحك يازيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا . أجل لقد رأى زيد من رسول الله - ﷺ - جمال الأخلاق ، وحسن الشيم ، وسماحة المعاملة ، وأنس المعشر ، وصدق الحديث ، رأى البر والوفاء والمروءة ، ورأى كيف تتجسم معالى الأمور والمثل العليا فى رجل يمشى على الأرض . . فكيف يؤثر زيد غيره عليه ؟ أيتركه لرحمة الأبوة ؟ فلقد رأى زيد من رحمة النبى - ﷺ - به وعطفه عليه وبره به مالايجده ابن أبداً من أبيه ، ولقد صدق الشاعر فى وصفه - ﷺ حين قال :

وإذا رحمت فأنـــت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء

أيتركه لآصرة القرابة وصلة الرحم ؟ فلقد وجد زيد فى علاقته بالنبى - ﷺ - أوثق علاقة وأقوى رابطة وأجل رعاية وأصدق معاملة . .

ولما رأى النبى - ﷺ - من زيد هذا التعلق به والإيثار منه ، خرج إلى الحِجْر ، ومعه زيد وحوله أبوه وعمه ، ونادى قائلا : « يامن حضر . . اشهدوا أن زيدا ابنى »[٣٧٦] .

هنيئا لك يازيد هذه الأبوة الحانية ، والرحمة الشاملة التى وسعتك بل وسعت الناس جميعا . . ألم يقل الله فى حقها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣٧٧] وألم يقل هو فى حق نفسه : « إنما أنا رحمة مهداة » ؟ .

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما ، وانصرفا مسرورين سعيدين . . لقد أحزنهما أولا ماسمعاه من أن ابنهما عبد يسام سوم الرقيق ، ولكنهما أدركا الآن أنه حر يعيش فى كنف أعظم أسرة عرفتها البشرية ، وفى ظل أعظم أب يعرفه الناس .

هذا زيد بن حارثة الذى أسلم بعد علىّ ، فكان ثالث ثلاثة فى الإسلام وسنعرض لبقية قصة زيد الحافلة بالمعانى الطيبة فى حينها إن شاء الله تعالى .

إسلام أبى بكر

وأبوبكر اسمه عتيق ، واسمه عبدالله ، واسم أبيه عثمان وكنيته أبوقحافة . .

---

(٣٧٦) راجع أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٨٢ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٦
(٣٧٧) الأنبياء ١٠٧

وسمى بعتيق لحسن وجهه ، فهى صفة غلبت حتى صارت علما . . وكان اسمه عبدالكعبة فسماه النبى - ﷺ - عبدالله .

كان صديقا للنبى - ﷺ - منذ نشأته ، قال النبى - ﷺ - « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه - صورة نادرة للإخلاص والوفاء ، وقد لقب بالصديق لصدقه ، وتصديقه للنبى ﷺ - كل كل قول وأمر . .

ولم يتردد أبوبكر فى الإسلام حين عرضه النبى - ﷺ - عليه ويذكر الرواة فى سرعة استجابة أبى بكر للاسلام أسبابا . . منها أنه رأى رؤيا . رأى القمر ينزل إلى مكة ، ثم رآه قد تفرق على جميع منازل مكة وبيوتها ، فدخل فى كل بيت منه شعبة ، وكان لأبى بكر من ذلك نصيب أكبر من غيره . .

فقص هذه الرؤيا على بعض أهل الكتاب فعبرها له : بأن النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه تتبعه وتكون أسعد الناس به ، فلما دعاه رسول الله - ﷺ - إلى الإسلام لم يتوقف .

ومنها ماسبق أن أشرنا إليه من أنه كان مع النبى - ﷺ - فى رحلة تجارية ، وتوسم الرهبان فى النبى - ﷺ - علامات النبوة فأخبروا بها وسمع أبوبكر منهم ذلك .

ومنها ما أورده ابن الأثير فى كتابه من قصة - سبق أن أوردناها أيضا فى البشارات - فحواها أن أبابكر - رضى الله عنه - كان فى رحلة إلى اليمن والتقى هناك بشيخ يمنى معمر لديه من علم أهل الكتاب . رأى فيه بعض العلامات التى

ذكرت فى أتباع الرسول الأمى فتحقق منها فيه ، فلما وجدها أخبره بمبعث النبى - ﷺ - وحمله رسالة له .

ولما عاد أبوبكر إلى مكة ، أخبره قومه بمبعث النبى ﷺ - فانطلق إليه .
فأخبره النبى - ﷺ - برسالته ، ودعاه إلى الإسلام ، فقال أبوبكر - ليس على سبيل الإنكار ، بل على سبيل التثبت . . ومادليلك على ماتقول ؟ قال النبى - ﷺ - الدليل ما أخبرك به الشيخ اليمنى الذى أرسل معك الأبيات .
فأسلم أبوبكر دون تردد (٣٧٨)
وكان إسلام أبى بكر خيرا وبركة ، فقد أسلم بإسلامه كثير من أصحابه . .

من السابقين إلى الإسلام

قال - تعالى -

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٠٠ ﴾ (٣٧٩)

وحديثنا ينصرف إلى السابقين الأولين من المهاجرين ، هؤلاء الذين اتبعوا النبى - ﷺ - فى أول بعثته ونصروه فى دعوته ، فقد أخذ الإسلام يسرى سرا كما

---

(٣٧٨) راجع القصة فى هذه السلسلة جـ ٦ ص ١٠٧ وفى اسد الغابة جـ ٢ ص ٣٠٩
(٣٧٩) التوبة ١٠٠

يسرى الماء فى العود والنور فى الآفاق ، فتتلقفه نفوس حائرة تطمئن به ، وقلوب خائفة تأمن فى ظله ، وأرواح هائمة تستقر فى أحضانه ، وعقول قلقة تشعر فى حماه بالهدى واليقين والاقتناع . .

وبهؤلاء انتقل الاسلام إلى أماكن متعددة ، فشرق وغرب ، وعرفه الناس فى كل مكان ، ولكنهم أوذوا فى سبيل ذلك ، وذاقوا من ويلات العذاب والاضطهاد والعنف مالا قبل لأحد به . .

حين أسلم أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ كان الساعد اليمنى للنبى ـ ﷺ ـ وكانت له سن وشرف ومنزلة فى قريش ، يحبونه ويعظمونه ـ فأخذ يدعو أصدقاءه إلى هذا الدين الذى جاء به محمد ـ ﷺ .

فأسلم على يديه عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ الملقب بذى النورين لتزوجه بنتين من بنات الرسول ـ ﷺ ـ هما رقية وأم كلثوم . الواحدة تلو الأخرى . .

وكان عثمان شريفا فى أهله وقومه ولكنهم لم يعتدوا بشرفه حين آمن فقد أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه كتافا ، وقال له : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ؟ والله لا أحل وثاقك أبداً حتى تدع ماأنت عليه .

ولكن عثمان أصر على إسلامه ، وأبى أن يستجيب لتهديد عمه .

وأسلم على يدى أبى بكر أيضا الزبير بن العوام الملقب بحوارىّ رسول الله ـ ﷺ ـ أسلم صغيرا ـ قيل كانت سنه ثمانى سنين ـ وهى تقارب سن على ـ رضى الله عنه .

وأسلم أيضا عبدالرحمن بن عوف ، وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبدالكعبة فسماه النبى ـ ﷺ ـ عبدالرحمن .

قـال الحلبى : وكان عبدالرحمن بن عوف صديقا لأمية بن خلف وهو من قادة الكفر والشقاق، فحاول أن يثنى عبدالرحمن عن قبول الاسم الجديد ، وقال له : أترغب عن اسم سماك به أبوك ؟ .

فقال عبدالرحمن : نعم

ولكن أمية قال له : ولكنى لا أرغب فى ذلك ، وسوف أناديك باسمك القديم وظل يناديه به . .

أما سبب إسلام عبدالرحمن بن عوف فيحدث هو عنه قائلا :

سافرت إلى اليمن غير مرة ، وكنت إذا قدمت إليها نزلت بعسكلان بن عواكف الحميرى ، فكان يسألنى هل ظهر فيكم رجل له نبأ وله ذكر ؟ هل خالف عليكم أحد منكم فى دينكم ؟ فأقول لا . . حتى كانت السنة التى بعث رسول الله - ﷺ - قدمت اليمن فنزلت عليه [٣٨٠] فأخذ يكرر علىّ قوله وأسئلته التى فهمت منها صدق النبى - ﷺ - فلما عدت إلى مكة أسلمت-وأم عبدالرحمن بن عوف هى الشفاء التى حضرت إلى آمنة بنت وهب ليلة ولد النبى - ﷺ - ورأت من أنواره الباهرة واشراقاته العظيمة ماحدثت به .

وأسلم سعد بن أبى وقاص . وأبووقاص اسمه مالك بن أهيب ، وهو ابن عم آمنة بنت وهب أم النبى - ﷺ - فهو خال النبى .

وكان سعد مستجاب الدعوة لأنه كان طيب المطعم ، استجاب فى ذلك لتوجيهات النبى - ﷺ - حين قال له : « أطب مطعمك ياسعد تكن مستجاب الدعوة » .

---

(٣٨٠) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٤٦

وكان عمر « سعد » حين أسلم تسع عشرة سنة . .

وقد ضاقت أم سعد ذرعا بإسلام سعد ، وهددته بالإضراب عن الطعام والشراب . وقالت له : والله لا أكلت طعاما ولاشرابا حتى تكفر بما جاء به محمد . فقال لها : ياأمه تعلمين والله : لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ماتركت دين هذا النبى - ﷺ - فكلى إن شئت أولا تأكلى .

فلما رأت ذلك أكلت .

قــال الرواة : وكانت أم سعد تُعَيِّرُ سعداً بأخيه عامر ، وكان لم يسلم بعد ، فتقول : انظر إلى أخيك عامر كيف بره بأمه ؟ وكيف لايفارق دينه ؟ فلما أسلم عامر لقيته بما لقيت به سعدا وأشد .

وقد جاء سعد يوما إلى البيت والناس مجتمعون على أمه وأخيه . فقال : ماشأن الناس ؟ .

فقالوا : هذه يأمه ، قد أخذت أخاك عامرا ، وقد أخذت على نفسها عهداً . . لايظلها نخل ولاتأكل طعاما ولاتشرب شرابا حتى يترك دين محمد . . فقال لها سعد : يأمة لاتستظلين ولاتأكلين ولاتشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار .

ولم ينج عامر من شرها إلا بهجرته إلى الحبشة (٣٨١) .

وأسلم أيضا طلحة بن عبدالله التيمى . . وكان أبوبكر سببا فى إسلامه .وقد رويت له فى ذلك قصة :

---

(٣٨١) راجع السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٤٧

قال طلحة : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم هل بينكم من أهل الحرم أحد ؟

فقلت : نعم أنا

قال : هل ظهر أحمد بعد ؟

قلت : ومن أحمد ؟ .

قال : ابن عبدالله بن عبدالمطلب . هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء . يخرج من الحرم ، ويهاجر إلى أرض ذات نخل ، فإياك أن تسبق إليه .

قال طلحة : فوقع فى قلبى ماقال ، فخرجت سريعا حتى قدمت مكة ، فقلت : هل كان من حدث ؟ .

قالوا : نعم ، محمد بن عبدالله الأمين يدعو إلى الله ، وقد تبعه ابن أبى قحافة . فخرجت حتى دخلت على أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فأخبرته بما قال الراهب .

فخرج أبوبكر حتى دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بذلك فسر بذلك وأسلم طلحة . .

وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وكنيته أبومحمد ، ولقبه القرشى التيمى .

وأمه : الصعبة بنت عبدالله بن مالك الحضرمية .

ويطلق عليه : طلحة الخير وطلحة الفياض .

ولما أسلم طلحة والزبير آخى النبى ـ ﷺ ـ بينهما فى مكة قبل الهجرة ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة ، آخى النبى ـ ﷺ ـ بن طلحة وبين أبى أيوب الأنصارى .

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، ولم يشهد بدرا لأنه كان غائبا بالشام ، ولكن رسول الله ﷺ ـ جعل له سهما منها ،

وشهد أُحُداً ومابعدها من المشاهد كلها . .

وفى حياته مواقف جليلة سيأتى الحديث عنها فى حينها إن شاء الله تعالى .

وهؤلاء الذين أسلموا سابقا من العشرة المبشرين بالجنة : على ، وأبوبكر ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . . ويضاف إليهم زيد بن حارثة ، وهو من غير العشرة ، ولكن وردت فيه آثار كثيرة طيبة ويكفى أن يكون هو الوحيد الذى ذكر اسمه فى القرآن ، فى الآية التى سبق أن أوردناها . . فهو الوحيد ـ من بين الصحابة الذى صرح القرآن الكريم بذكر اسمه .

أما بقية العشرة المبشرين بالجنة فهم : أبو عبيدة بن عامر الجراح ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعبدالله بن مسعود بن الحارث وعمرو بن الخطاب .

كما يعد من السابقين ايضا أبو سلمة وهو عبدالله بن عبد الأسد بن هلال من بنى مخزوم .

والأرقم بن أبى الأرقم ، الذى كانت داره ملتقى النبى ـ ﷺ ـ بأصحابه .

وعثمان بن مظعون وأخويه ، وسعيد بن زيد وزوجته أخت عمر بن الخطاب وهى التى كانت سببا فى اسلامه .

وعمير بن أبى وقاص أخو سعد وعبدالله بن مسعود . . وغيرهم . . وغيرهم . . لقد كان الإسلام على الرغم من تخفيه ينمو ويسرع صوته إلى القلوب . لأنه نداء الفطرة الصادقة

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

---

(٣٨٢) البقرة ١٣٨

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣٨٣)

وهناك سابقون كثيرون وردت الأخبار بهم ومن ذلك ، ما رواه ابن الأثير فى ترجمة صهيب بن سنان عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : السُّباق أربعة ، أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق فارس ، وبلال سابق الحبش .

ولكن هذا الخبر يفيد الأسبقية بالنسبة للأمم ، باستثناء النبى - ﷺ - لأنه المبعوث بهذه الرسالة الخاتمة التى سبق إليها هؤلاء . . فهو بطبيعة الحال الأول .
وبذلك شهد القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٣٨٤)

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٣٨٥)

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣٨٦)

وأورد ابن الأثير أيضا فى الترجمة نفسها مايرويه عن مجاهد : أول من أظهر اسلامه بعد النبى - ﷺ - ستة أبوبكر وبلال وصهيب وخباب وعمار بن ياسر وسمية أم عمار - رضى الله عنهم أجمعين - فأما النبى - ﷺ - فمنعه الله ، وأما

---

(٣٨٣) الروم ٣٠
(٣٨٤) الأنعام ١٦٣
(٣٨٥) الزخرف ٨١
(٣٨٦) الزمر ١٢

أبوبكر فمنعه قومه ، وأما الآخرون فأخذوا وألبسوا أدراع الحديد ، ثم أصهروا فى الشمس [٣٨٧] .

ولكن هذه الأولية تعنى إظهار الإسلام لا الإسلام نفسه فقد كان هناك مسلمون سابقون ولكنهم لم يظهروا إسلامهم ، أو أظهروه ولم يتعرض لهم الكفار . . وقد يكون هؤلاء هم السابقون فى التعرض للأذى من قريش ـ لأنه لم يذكر فيهم خديجة وزيد بن حارثة وعلىّ وغيرهم ممن سبق إلى الإسلام . .

وقد ورد هذا النص نفسه فى الاستيعاب [٣٨٨] فى ترجمة بلال بن رباح رضى الله عنه ـ وذكر فيهم المقداد بن الأسود ، ولم يذكر فيهم خباب بن الأرث . .

ومن السابقين إلى الإسلام أبو ذر الغفاري . واسمه جندب بن جنادة بن سفيان .

أسلم والنبى ـ ﷺ ـ بمكة أول الإسلام ، فكان رابع أربعة ، وقيل خامس خمسة ، وهو أول من حيا النبى ـ ﷺ بتحية الإسلام .

ولما أسلم عاد إلى بلاده فأقام بها حتى هاجر النبى ـ ﷺ ـ فأتاه بالمدينة بعد موقعة بدر وأحد والخندق .

وكان يعبد الله تعالى قبل مبعث النبى ـ ﷺ ـ بثلاث سنين ، وبايع النبى ـ ﷺ ـ على الا تأخذه فى الحق لومة لائم وعلى أن يقول الحق ولو كان مرا ، وقال عنه ﷺ ـ ابوذر يمشى على الأرض فى زهد عيسى بن مريم [٣٨٩] .

---

(٣٨٧) اسد الغابة جـ ٣ ص ٣٧

(٣٨٨) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر جـ١ ص ١٧٨

(٣٨٩) اسد الغابة جـ ١ ص ٣٥٧

ويروى أبوذر قصة إسلامه فيقول :

صليت (٣٩٠) قبل أن ألقى النبى - ﷺ - ثلاث سنين لله ، أتوجه حيث يوجهنى ربى ، فبلغنا أن رجلا خرج بمكة يقول إنه نبى ، فقلت لأخى أنيس : انطلق إلى هذا الرجل فكلمه واتنى بخبره .

فلما جاء أنيس قلت له : ماعندك ؟

فقال : والله رأيت رجلا يأمر بخير وينهى عن الشر .

قلت : فما يقول الناس فيه ؟

قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر - والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

فقلت : اكفنى حتى أذهب فأنظر .

قال : نعم ، وكن على حذر من أهل مكة .

فحملت جرابا وعصا ، ثم أقبلت حتى أتيت مكة ، وكنت لا أعرفه وخفت أن أسأل عنه .

فكنت فى المسجد ثلاثين ليلة ويوما نفد فيها زادى واشتد بى الجوع . وفى ليلة لم يطف فيها بالبيت أحد . إذا رسول الله ﷺ - وصاحبه جاءا فطافا بالبيت ، ثم صلى رسول الله ﷺ - فلما قضى صلاته أتيته ، فقلت : السلام عليك يارسول الله . أشهد ألا إلا إلا الله وأن محمدا رسول الله .

فرأيت الاستبشار فى وجهه .

ثم قال : من الرجل ؟

قلت : من غفار - بكسر الغين المعجمة .

قال : متى كنت ؟

قلت : كنت من ثلاثين ليلة ويوما هاهنا .

---

(٣٩٠) المقصود من الصلاة هنا عبادة الله والتوجه اليه والتفكير فى كونه

قال : فمن كان يطعمك ؟ .

قلت : نفد زادى ، وعشت أياما على ماء زمزم .

قال : مبارك ، إنها طعام طعم وشفاء سقم [٣٩١] .

ويقال : إن الذى دل أباذر على النبى - ﷺ - هو على بن أبى طالب .

لقد هدت الفطرة أباذر إلى الإسلام ، ودله صدق طاعته لله على النبى - ﷺ - .

لقد كان صادقا فى طلبه - ووصفه النبى - ﷺ - بالصدق .

ولأن الهدى هدى الله ، وليس باجتهاد بشر ، فإن الله يهدى لدينه من يشاء ، وصدق الحق فى قوله

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [٣٩٢]

فقد هدى الله قوم أبى ذر بأبى ذر .

ذلك أن النبى - ﷺ - قال له : ياأباذر اكتم هذا الأمر وارجع الى قومك فأخبرهم يأتون - فإذا بلغك ظهورنا فاقبل .

وهكذا أسلمت غفار قبيلة أبى ذر .

الله يهدى المسلمين إلى الإسلام بالرؤيا الصالحة

وقد مر فى حديثنا عن الوحى ، بأن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وأن الرؤيا الصالحة من المبشرات ولذلك فقد اهتدى بعض المسلمين إلى النبى بواسطة رؤاهم .

---

(٣٩١) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٥١

(٣٩٢) الكهف ١٧

فقد أسلم خالد بن سعيد بن العاص ـ رضى الله عنه ـ لأنه رأى فى النوم النار وفظاعتها ، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها والنبى ـ ﷺ ـ يمنعه من الوقوع فيها . .

فقصها على أبى بكر فعبرها له بالإسلام على يدى النبى ـ ﷺ ـ فأسلم ، وكان إسلامه مبكرا .

ورأى أخوه عمرو بن سعيد ليلة أنه خرج من زمزم نور أضاءت له نخل المدينة حتى رأى البسر فيها .

فقصها على من يعرف التعبير . فقال له : هذه بئر بنى عبدالمطلب ، وهذا النور منهم .

فكان ذلك سبب إسلامه .

مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم

وكان لابد للمسلمين من مكان يلتقون فيه بالنبى ـ ﷺ ـ يعلمهم مبادىء دينهم ، ويعرفهم طريق ربهم ـ فتبرع الأرقم بداره . وهى فى أصل الصفا .

والأرقم : هو الأرقم بن أبى الأرقم ، واسم أبى الأرقم عبدمناف بن أسد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشى .

وكان الأرقم من السابقين إلى الإسلام ، وكان من المهاجرين الأولين ، وممن شهد بدراً .

قال ابن الأثير : وهو الذى استخفى رسول الله ـ ﷺ ـ فى داره ، والمسلمون معه بمكة لما خافوا المشركين ، فلم يزالوا بها حتى كملوا أربعين رجلا ، وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب ، فلما كملوا أربعين رجلا خرجوا .

وكانت دار الأرقم المدرسة الأولى فى الإسلام ، أستاذها الأول والوحيد هو رسول الله - ﷺ .

يذهب إليها المسلمون الأوائل خفية حيث يجدون الرسول - ﷺ - فيقرأ عليهم القرآن ، ويلقنهم تعاليم الإسلام ، ومازال ينضم إليها الواحد إثر الواحد حتى كثر عددهم ، وكان المسلمون يفرحون حين ينضم إليهم طالب جديد ، يجيء راغبا فيها عند الله .

وفى هذه المدرسة أسلم صهيب بن سنان وعمار بن ياسر والحصين أبوعمران وعمر بن الخطاب .

ومما يروى عن صهيب أن أباه كان عاملا لكسرى ، وأسر الروم صهيبا فى إغارة لهم على الفرس ، فنشأ فى الروم حتى كبر ، ثم ابتاعه بعض العرب التجار وحملوه إلى سوق عكاظ فاشتراه عبدالله بن جدعان .

فلما بعث رسول الله - ﷺ - التقى صهيب بعمار بن ياسر ، فقال له : إلى أين ياصهيب ؟ .

قال : أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه ومايدعو إليه .
فقال عمار : وأنا أريد ذلك . .

فالتقيا برسول الله - ﷺ - وأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام ، وتلا عليهما مانزل من القرآن فأسلما ، ثم مكثا عنده يومهما ذلك ، حتى أمسيا ثم خرجا وقد تخفيا .

ولما دخل عمار على أمه وأبيه سألاه أين كان ؟ فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام فأسلما . .

وفى إسلام الحصين دارت محاورة بين النبى - ﷺ - وبينه أسلم على أثرها .
وكان الحصين قد ذهب إلى النبى - ﷺ - متحديا بعد أن أثاره قومه على النبى - ﷺ - وكان الحصين عظيما فى قومه له شرف ومكانة .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن محمد بن عمران بن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت إلى حصين ، وكانت تعظمه - فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم .

فجاءوا حتى جلسوا قريبا من باب النبى - ﷺ .
فقالوا : أوسعوا للشيخ - وعمران وأصحابه متوافرون .
فقال حصين : ماهذا الذى بلغنا عنك ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم بسوء .

فقال له النبى - ﷺ : ياحصين ، كم تعبد من إله ؟
قال : سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء .
قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟
قال : الذى فى السماء .
قال : فإذا هلك المال من تدعو ؟
قال : الذى فى السماء .

قال : ﷺ - فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟
قال : لا واحدة من هاتين . . وقال : وعلمت أنى لم أُكَلَّم مثله - يعنى أنه لم يواجه بحجة مثل هذه من قبل .
قال النبى - ﷺ - : ياحصين أسلم تسلم .
قال : إن لى قوما وعشيرة . فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك فأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى .
فقالها الحصين ، فلم يقم حتى أسلم . .
فقام إليه عمران . ابنه - فقبل رأسه ويديه ورجليه .
فلما رأى النبى - ﷺ - ذلك بكى وقال :

بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلنى من ذلك رقة .
فلما أراد حصين أن يخرج قال النبى - ﷺ - لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله . فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ ، وتفرقوا عنه (٣٩٣) .

وقدم الحصين بعد ذلك على النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله ، كنت أتيتك فعلمتنى كذا وكذا ، فما أقول الآن وقد أسلمت ؟

قال : قل اللهم قنى شر نفسى واعزم لى على أرشد أمرى ، اللهم اغفر لى ما أسررت وما أعلنت ، وما أخطأت وماعمدت وماجهلت (٣٩٤)
وكان الذى دعا المسلمين إلى الاستخفاء فى دار الأرقم مارأوه من إيذاء المشركين لهم .

ذلك أنه بعد أن نزل قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ ياأيها المدثر .قم فأنذر ﴾ خرج النبى - ﷺ - يدعوا الناس إلى ربه .
وبينما كان سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر نفر من المشركين وكان سعد وأصحابه يصلون فأنكر المشركون عليهم مايفعلون وعابوا عليهم مايصنعون ، وجرى بينهم كلام أدى إلى

---

(٣٩٣) الرسول لسعيد حوا ١١٩ - نقلا عن الاصابة جـ ١ ص ٣٣٧
(٣٩٤) أسد الغابة جـ٢ ص ٢٦

قتال ، فضرب سعد رجلا منهم بلحى بعير فشجُّه . فهذا أول دم أريق فى الإسلام .

منذ ذلك الوقت تعصب المشركون ضد المسلمين . وكان لابد أن يلتقى المسلمون بالنبى - ﷺ - فكيف يلتقون والكفار يترصدون الطريق المؤدى لبيت رسول الله يقطعونه على المسلمين ؟ .

فوضع الأرقم داره تحت تصرف النبى - ﷺ - وهى فى معزل عن بيوت مكة . .

فكان النبى - ﷺ - بدار الأرقم مع أصحاب يقيمون الصلاة فيها إلى أن أمره الله بإظهار الدين .

وتقدر مدة الاستخفاء هذه بأربع سنين حتى نزل قوله تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(٣٩٥)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾(٣٩٦) .

لقد كانت دار الأرقم مدرسة روحية بمعنى الكلمة صحب فيها الرعيل الأول من السابقين إلى الإسلام رسول الله - ﷺ - فترة طويلة من الزمن ، فرأوا روحه العالية ، وأخلاقه الكريمة ، ومعاملته الرفيعة ، وأنسوا بطلعته النورية وتربيته

---

(٣٩٥) الحجر ٩٤

(٣٩٦) الشعراء ٢١٤ - ٢١٥

الربانية . . لقد صقل النبى - ﷺ - فى هذه الفترة أرواحهم ، ودربهم على مقاومة نفوسهم وقهر الدواعى النفسية والنوازع الأرضية ، وأخرج منهم رجالا روحانيين كالملائكة يمشون على الأرض . .

كان بين المسلمين ضعفاء وفقراء وصغار وكبار ، ومن علية القوم ومن الأرقاء ولكنهم كانوا فى هذه المدرسة إخوة متحابين متآلفين محيت من بينهم الفوارق الاجتماعية التى تعيش فى خارج هذه الدار وتستعلى حتى تصنع فارقاً كبيراً بين الفقير والغنى وبين العبد والسيد وبين الضعيف والقوى .

كان التواضع هو شعار الجميع الذى حطم الكبر فى النفوس ، وجعلهم يشعرون بأن هذا الكون ليس له إلا سيد واحد هو الله الواحد الذى لاشريك له .. وبهذا التواضع العظيم بنى المسلمون فيها بعد أمتهم القوية العزيزة الغالبة . .

وكان أستاذهم الأول فى التواضع هو رسول الله - ﷺ - وهو سيد الخلق وأشرف الناس . لقد علمه ربه ذلك حين قال له :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [٣٩٧] .

---

(٣٩٧) الكهف ٢٨

الجهر بالدعوة

وجاء الأمر الإلهي للنبي - ﷺ - قائلا :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٣٩٨)

ونهض

النبي لهذا الأمر . ملبيا . ولكنه كان يخشى تكذيب أهله وتخليهم عن دعوته ، وكان يقدر أنه إن تخلى قومه عنه فغيرهم من العرب أولى بالتخلي والإعراض . وكأنه أخذ يجيل في نفسه كيف يبدؤهم بالدعوة وقد أهمه ذلك . حتى ظنت عماته - فيما يرويه برهان الدين الحلبي في سيرته [٣٩٩] أنه يشتكي من مرض فدخلن عليه عائدات .

فقال - ﷺ - ما اشتكيت شيئا لكن الله أمرني بقوله : وأنذر عشيرتك الأقربين .

فقلن له : ادعهم ولاتجعل عبدالعزى - وهو أبولهب - بينهم فإنه لن يجيبك إلى ماتدعوه إليه .

وروى البيهقي في دلائل النبوة ذلك قائلا : عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب :

لما نزلت هذه الآية على رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - عرفت أني إن بادأت بها قومي رأيت منهم ما أكره ، فسكت عليها بعض الوقت فجاءني جبريل - عليه السلام - فقال لي : يامحمد افعل ما أمرك به ربك . .

---

(٣٩٨) الشعراء ٢١٤

(٣٩٩) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٥٧

فنفذ ﷺ ـ أمر به . .

وقد ذكر البيهقى [400] وغيره ما فعله ـ ﷺ ـ لتنفيذ هذا الأمر فقال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج ـ ﷺ ـ حتى صعد الصفا ، فهتف قائلا : يابنى عبدالمطلب ، يابنى هاشم ، يابنى عبدمناف .

فقالوا : من هذا الذى يهتف ؟ .

قالوا : محمد .

فاجتمعوا إليه ـ فقال : أرأيتم لو أخبركم أن وراء هذا الوادى خيلا تريد أن تغير عليكم ـ أكنتم مصدقى ؟

قالوا : ماجربنا عليك كذبا .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

فقال أبولهب : تبالك ، أما جمعتنا إلا لهذا ؟

ثم انصرف فنزلت هذه السورة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾

لقد رد الله على أبى لهب قولته بما هو أشد وأنكى ، وفضحه على رءوس الأشهاد إلى يوم التناد .

ثم إن النبى ـ ﷺ ـ لم يقتصر على هذا ، ولكنه لم يأل جهدا فى دعوة قومه وغيرهم ، لقد خص بالدعوة وعمم .

---

(٤٠٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ ص ١٧٨ .

ومما يؤثر فى ذلك قوله لقبائل قريش :

يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى عبدشمس أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى عبدمناف أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى زهرة أنقذوا أنفسكم من النار .

ياصفية عمة محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لكم من الله شيئا . . ثم مكث رسول الله ـ ﷺ ـ بعد ذلك أياما ثم جمعهم ثانيا وخطبهم قائلا لهم :

أيها الناس إن الرائد لايكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ماكذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ، والله يابنى عبدالمطلب ما أعلم أحدا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى جئتكم بأمر الدنيا والأخرة .

وقد تكلم بنو عبدالمطلب بكلام لين مع الرسول ﷺ ـ إلا أبا لهب ، فقد أغلظ القول وهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وأخذ يحرض قومه على رسول الله ـ ﷺ ـ وكان مما قاله :

يابنى عبدالمطلب هذه والله هى السوأة ـ خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم .

فقالت أخته صفية ـ عمة رسول الله ـ ﷺ ـ أى أخى أيحسن بك خذلان ابن

أخيك ، فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من بنى عبدالمطلب نبى فهو هو .

قال أبولهب : هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال . إذا قامت بطون قريش ، وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله مانحن عندهم إلا أكلة رأس (٤٠١) .

فقال أبوطالب : والله لنمنعنه مابقينا (٤٠٢) .

لماذا خص الله قرابة النبى بالانذار ؟

وقد خص الله قرابة نبيه - ﷺ - بالإنذار لأنهم أحق الناس أولا باتباعه وأدناهم إلى مؤازرته فى دعوته . . . ولكن كثيرا منهم أعرضوا عنه وكذبوه وآذوه ولم يؤمن به من قرابته إلا القليل ، وكانت قبائل قريش أكثر الناس عداء لدعوته . .

وصدق ما تنبأ به ورقة حين قال له : لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن . ماجاء أحد بمثل ماجئت به إلا أوذى .

والحكمة تقول : لا كرامة لنبى فى وطنه . . وهذا مثل توارثته الأجيال . فلم يستقم لنوح فى قومه أمر وقد مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

ولم ينج هود من أذى قومه ، ولا صالح صدقه قومه . وشعيب قال له قومه كما حكى القرآن الكريم

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا

---

(٤٠١) أكلة رأس - مثل يضرب فى قلة الشىء وعدم غنائه .
(٤٠٢) السيرة الحلبية جـ١ ص ٤٥٨

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ (٤٠٣)

وغير هؤلاء من الأنبياء لقوا ما لقوا من أقوامهم ..

هذه سنة الله فى خلقه..

لقد كان الهدف من إنذار قومه ﷺ - إلزامهم الحجة - حتى لايكون لهم عذر حين يحيق بهم العذاب . أو حين يكون لغيرهم من الذين ناصروا النبى - ﷺ - الفضل عليهم .

وقد اعترف النبى - ﷺ - بفضل الأنصار وقال فى ذلك : **والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ..** (٤٠٤) .

وفى هجران القوم صاحب الفضل فيهم أورد ابن كثير هذه القصة : قال : عن عبدالواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء - رضى الله عنه يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون . فقيل له : مابال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لايسمعون ؟ .

فقال : لأنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون .

وذلك فيما أنزل الله - عز وجل -

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

ثم قال : إن أزهد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم - ولهذا قال تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين .

(٤٠٣) هود ٩١

(٤٠٤) تفسير بن كثير جـ ٦ ص ١٨١ سورة الشعراء ط دار الشعب

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (٤٠٥) .

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين

ولقى النبى - ﷺ - من المشركين الأذى ، وتتبعوا من آمن به بالتنكيل فصدر الأمر الكريم يقول له

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٤٠٦) .

لقد طلب الله منه الإعراض عن هؤلاء الرافضين لدين الله ، وأن يمضى فى دعوته إلى التوحيد ولايهتم بما يقول هؤلاء . . وسوف تمضى الدعوة فى طريقها ولن يستطيع هؤلاء إيقافها . .

لقد كان هذا إيذانا بأن يخرج المسلمون من استخفائهم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم وأن يعلنوا عن أنفسهم .

قال عبدالله بن عبيد - فيما يرويه القرطبى فى تفسيره - مازال النبى ﷺ - مستخفيا حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه .

والإعراض عن المشركين معناه عدم المبالاة بهم .

---

(٤٠٥) الشعراء ٢١٤ - ٢١٦

(٤٠٦) الحجر ٩٤ - ٩٨

وروى القرطبى ماذكره ابن إسحاق قال :

لما تمادى المشركون فى الشر ، وأكثروا من الاستهزاء برسول الله ـ ﷺ ـ أنزل الله ـ تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون ﴾ومعناه اصدع بما تؤمر ولاتخف غير الله فإن الله كافيك شرهم واستهزاءهم . .

قال : وكان هؤلاء المستهزئون خمسة من رؤساء مكة ، وهم . . الوليد بن المغيرة ، وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة ، والأسود بن عبديغوث ، والحارث بن الطلاطلة . أهلكهم الله جميعا . لاستهزائهم برسول الله ـ ﷺ .

وكفى الله نبيه ـ ﷺ ـ أذى هؤلاء الذين كانوا قد تمادوا فى الكفر والشقاق ، وأمعنوا فى إيذاء المسلمين والاستهزاء بهم حتى لاقى المسلمون منهم عنتا كبيرا وأذى كثيرا . .

إيذاء الكفار للنبى والمسلمين

ونزل على النبى ـ ﷺ ـ قوله ـ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٤٠٧) .

ذكر بعض المفسرين فى أسباب نزول هذه الآية مايلى : روى عكرمة عن ابن عباس ـ رضى عنهما ـ قال : كان رسول الله ﷺ ـ يحرس ، وكان أبوطالب يرسل

---

(٤٠٧) المائدة ٦٧

معه رجالا من بنى هاشم يحرسونه ، حتى نزلت عليه هذه الآية :

﴿ **يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك . . الى قوله : والله يعصمك من الناس . .** ﴾ قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال : ياعم إن الله ـ تعالى ـ قد عصمنى من الجن والإنس(٤٠٨) .

ولايمنع أن يكون لها مناسبة أخرى هى ماروى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سهر رسول الله ـ ﷺ ـ ذات ليلة ، فقلت : يارسول الله ماشأنك ؟ قال : ألا رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ فقالت : بينما نحن فى ذلك سمعت صوت السلاح . فقال : من هذا ؟ قال : سعد وحذيفة : جئنا نحرسك . فنام رسول الله ـ ﷺ ـ هادئا مطمئنا . . ثم نزلت هذه الآية : فأخرج رسول الله ـ ﷺ ـ رأسه من قبة آدم ، وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعلى ذلك أخذ النبى ـ ﷺ ـ يبلغ رسالة ربه ـ وواجه المشركين بما لاعهد لهم به ، فقد جاءهم بعقيدة جديدة تدعوهم إلى الإيمان بالله وحده ، وترك هذه الأصنام التى لاتضر ولاتنفع ولاتغنى عنهم من الله شيئا ـ كما دعاهم إلى الإيمان بالبعث والحساب والجزاء .

لماذا قاومت قريش الدعوة ؟

وكبر على المشركين مايدعوهم إليه النبى ـ ﷺ ـ كيف يتركون أوثانهم وقد تعودوا أن يلجأوا إليها ضارعين ، وأن يطوفوا بها خاشعين . . وإن مبلغ من أوق العقل منهم يقول

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾(٤٠٩) .

---

(٤٠٨) اسباب النزول للواحدى ص ١٥١

(٤٠٩) الزمر ٣

ولم تقاوم قريش النبي - ﷺ - في أول الأمر . ذلك أن الدعوة كانت محدودة في نطاق ضيق ، وكادت تكون محصورة في نطاق الأهل والأقارب والضعفاء والموالي ، وكان بنو عبدالمطلب يحظون بمكانة سامية في قريش . .

ولكن بعد أن أعلنت الدعوة وبدأت تزحف في طريقها . ارتاعت قريش ، وبدأت تقاوم هذه الدعوة التي سوف تقوض سلطانها وتقضي على نفوذها - في زعمها - لأنها كانت تظن أن هذه الهيبة التي لها . إنما هي من تلك الأصنام التي يتقربون إليها . فمتى تقوضت هذه الأصنام تقوضوا . ثم إنها مصدر رزق وفير لهم فإذا ذهبت ذهب ما يجنونه من رزق ويجمعونه من كسب .

ولذلك اشتدت مقاومة قريش للدعوة حين أخذ النبي - ﷺ - يمس هذه الأصنام ويسخر منها ويسفه أحلام من يتخذونها آلهة من دون الله - تعالى .

ويمكن إجمال أسباب مقاومة قريش الشرسة للدعوة الإسلامية فيما يأتي :

١ - من المعلوم عن العرب أنهم كانوا يتنازعون دائما على السيادة والسلطان ، وقد ظنوا أن محمدا - ﷺ - بهذه الدعوة يريد أن يسود قريشا ، أو على الأقل ستكون السيادة من وراء هذه الدعوة الجديدة لبني عبدالمطلب وبني هاشم وهناك بطون أخرى قرشية ترى نفسها أحق بهذه الرئاسة .

٢ - الدعوة الإسلامية الجديدة من أسسها الأولى أنها تساوي بين الجميع ، لافرق بين غني وفقير ، ولابين سيد وعبد ، ولابين عربي وعجمي ، ولافضل لأحد من هؤلاء على الآخر إلا بمقدار الطاعة والعبادة ، كما أخبر القرآن الكريم بذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾(٤١٠) .

---

(٤١٠) الحجرات ١٣

وقد أكد ذلك النبى - ﷺ - بقوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

فإذا كان محمد - ﷺ حرا فى أن يدعو قومه إلى هذا الدين الجديد ، فليس حرا فى أن يضم إليه هؤلاء العبيد ، الذين كان ينظر إليهم القرشيون على أنهم جزء من متاعهم وبضاعتهم . . ومن جهة أخرى كيف يسوى محمد - ﷺ - هؤلاء الموالى بغيرهم من سادة القوم ، ومعاييرهم الاجتماعية يومئذ لاتسمح بهذه المساواة .

٣ - يرى بعض المؤرخين أن من أسباب مقاومة قريش للدعوة الاسلامية ، أنهم رأوا فيها مايسمى بيوم الحساب ، وأن هناك عقابا لهؤلاء الظالمين ، ولما كان الظلم غالبا فى طباعهم فلم يتقبلوا هذه الدعوة التى تتوعدهم بالحساب يوم القيامة على ماقاموا به من ظلم الغير : قال تعالى :

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾(٤١١) .

وقال - تعالى :

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾(٤١٢) .

---

(٤١١) سورة القارعة

(٤١٢) عبس ٣٣ - ٣٧

٤ ـ كان القرشيون يعارضون الدعوة الجديدة بسبب تمسكهم بتقاليد الآباء والأجداد . . فقد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم تلك الأصنام التى أقاموها حول الكعبة وداخلها ، وقد وجدوا آباءهم يتقربون الى تلك الأصنام ، ويسجدون لها . . والدعوة الجديدة تدعوهم الى نبذ عبادة الأصنام ، وتسفيه عقول من يلجأون اليها ، ويعتقدون فى ضرها أو نفعها لهم . والحال أنها لاتستطيع أن تنفع نفسها بخير أو تدفع عن نفسها شرا . وفاقد الشيء لايعطيه كما هو معلوم . . .

٥ ـ لقد تأثرت بطبيعة الحال اقتصاديات قريش بالنسبة لهذه الدعوة الجديدة . أو بدأت تتأثر ، وبخاصة عند هؤلاء الذين كانوا يقومون بصناعة نماذج للآلهة ويبيعونها للوافدين من الحجاج كل عام ، كما أن سدنة الكعبة الذين كانوا يحصلون على الثراء الفاحش من وراء خدمة الكعبة وحجاجها سيتأثرون بمرور الأيام نتيجة لدخول الناس فى هذا الدين الجديد »[٤١٣] .

قد مرت مقاومة قريش للدعوة بمرحلتين :

المرحلة الأولى كانت تستهدف الضعاف من المسلمين ـ العبيد والمستضعفين ـ من أمثال خباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وبلال وغيرهم ممن لم يكن لهم قبيلة ، ينتمون إليها تمنع عنهم العذاب ، ويخشى من غضبها .

والمرحلة الثانية كانت ضد هؤلاء الذين كانت لهم منزلة فى قومهم من أمثال أبى بكر ، وعثمان ، والزبير وغيرهم . وكان فى إمكان هؤلاء أن يردوا العنف بالعنف ولكن الله لم يأذن بعد فى قتال .

لقد كانت مهمة التربية النبوية فى مكة بناء النفوس وإعدادها ، وتكوين

---

(٤١٣) انظر حول السيرة وآدابها د . محمد كمال شبانة ص ٥٠ .

الشخصية الإسلامية القوية التى سوف تواجه المحن والصراع فى المستقبل . وقد كان كبح جماح النفس والتحكم فيها والسيطرة عليها من أهم مناهج هذه التربية .

وكان أبوطالب يذود عن النبى ﷺ - ويمنعه من قريش ، فلما مات أبوطالب امتد الأذى إلى النبى - ﷺ - نفسه ، وعنفت به قريش عنفا شديداً حتى أذن الله له بالهجرة هو وأصحابه . .

الإيذاء لم يثن محمداً عن تبليغ رسالة ربه

كان النبى ﷺ - مثالا رائعا للصمود والإصرار على تبليغ رسالة ربه التى كلف تبليغها . ولم تثنه المقاومة الشرسة من قريش ، والإيذاء الشديد الذى تعرض له أصحابه من الاستمرار فى الدعوة إلى الله . .

ولقد سلك كافة الطرق فى أداء هذه الرسالة .

« اتصل بالأفراد اتصالا شخصيا ، وعرض نفسه على القبائل ، ورحل من أجل تبليغ الدعوة ، وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم ، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة ، واستقبل الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين ، وراسل الأمراء والملوك داعيا لهم إلى الله ، وكلف أصحابه أن يتعلموا ويعلموا ، وأمر المسلمين ألا يقاتلوا قبل أن يأمرهم الدين بذلك ثم حمّل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم دعوة الله ، حتى لايبقى أحد من البشر إلا وقد بُلِّغ بالدين الخالص . . وفى المقابل ماترك الآخرون طريقا إلا سلكوه لإنهاء الدعوة الإسلامية والقضاء عليها » (٤١٤) .

---

(٤١٤) الرسول لسعيد حوا ص ٨٥

ويهمنا فى هذا المكان أن نوضح ما قام به النبى - ﷺ - من تبليغ للدعوة فى مرحلتها الأولى . فى مكة . . وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ،وتتخذ الدعوة منهجاً جديداً فى مسيرتها . .

فقد كانت طريقته ﷺ فى الإبلاغ فى مكة لها وسائل مختلفة .

فقد دعا الناس إلى الاجتماع لإبلاغهم ، وقد رأينا كيف هتف بهم حين صعد إلى الصفا وناداهم فاجتمعوا وأبلغهم . .

وكان يتجه إلى الناس فى أماكن اجتماعهم - وكان يعرف أنهم يجتمعون فى أسواق لهم يبيعون ويشترون ويتناشدون الأشعار ويتبادلون الخطب .

أخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بنى الدبل - وكان جاهليا فأسلم - قال : رأيت رسول الله - ﷺ - فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز ، وهو يقول : ياأيها . . الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل يقول : إنه صابىء كاذب . . يتبعه حيث ذهب . فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وعن ابن إسحاق عن الزهرى أن رسول الله - ﷺ - أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم .

فقال رجل منهم - يقال له بحيرة بن فراس -: والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال لرسول الله : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ .

قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟

لا حاجة لنا بأمرك وامتنعوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن ، حتى لايقدر أن يوافى معهم الموسم . فكانوا إذا رجعوا حدثوه بما يكون فى الموسم .

فلما قدموا عليه ذلك العام أخبروه ـ قالوا : جاءنا فتى من قريش من أبناء بنى عبدالمطلب ـ يزعم أنه نبى ـ يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

فوضع الشيخ يديه على رأسه . ثم قال :

يابنى عامر ، هل لها من تلاف ؟ هل لِذُنَابَاهَا من مطلب ؟

والذى نفسى بيده ماتقوّلها إسماعيلى قط ، وإنها الحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟ [415] فلامهم الشيخ على عدم استجابتهم للنبى ـ ﷺ .

وقد كان ﷺ يرحل فى سبيل التبليغ ، وقد رحل إلى الطائف لتبليغ قبائل ثقيف ، ولكنهم لم يحسنوا استقباله . وتلقوه بالأذى ، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه .. وسيأتى ذكر ذلك .

● وكان يكلف من أسلم تبليغ من لم يسلم ..

ومن الأدلة على ذلك ما أخرجه أبونعيم [416] فى ترجمة . « أبى ذر الغفارى »

---

(٤١٥) المرجع السابق ص ١٠٩ والذنابى ذنب الطائر ، وهو مثل يضرب فى عدم إمكان تدارك الأمر .

(٤١٦) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٦٠

من أن النبى - ﷺ - أمره أن يلحق بقومه بعد أن أسلم - وكان إسلامه مبكرا ، فعاد إلى قومه وأبلغهم رسالة الإسلام حتى أسلموا ، وعاد بهم إلى النبى - ﷺ - بعد الهجرة . وأسلم كذلك الطفيل بن عمرو الدوسى فأرسله إلى قومه يبلغهم ، ومازال بهم حتى أسلموا (٤١٧) .

ولم يثنه الأذى عن تبليغ دعوة ربه . فقد كان مثلا أعلى فى التضحية والجهاد ، وقد عرف عظمة الله وعظمة الدين الحق ، فأراد أن يبصر الناس إلى مايأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة . .

لقد أراد أن يذيقهم طعم السعادة الخالدة الباقية التى تتجلى فى الإيمان بالله الواحد الأحد ، واتباع تعاليم الإسلام السامية . .

ولكن أنى لهذه القلوب الجامدة ، والعقول المتحجرة ، والعيون المغلقة أن تبصر طريق النور؟ ولقد صدق الله فى تصويرهم إذ يقول :

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٤١٨) .

وقد تنوع إيذاء قريش للنبى - ﷺ - وصحبه . . ولكن ذلك لم يفت فى عضد أحد من المسلمين - فضلا عن النبى - ﷺ - ومن ذلك مايرويه هذا الخبر :

---

(٤١٧) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣١ .
(٤١٨) الأعراف ١٧٨ ، ١٧٩ .

● اخرج البيهقى عن عبدالله بن جعفر - رضى الله عنهما - قال : لما مات أبوطالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش ، فألقى عليه ترابا ، فرجع إلى بيته ، فأتت إحدى بناته تمسح عن وجهه التراب ، وتبكى فجعل يقول : أى بنية ، لاتبكين فإن الله مانع أباك وناصره .

لقد كان فى حياة أبى طالب لايجرؤ أحد من سفهاء قريش على التعرض له . ولكنه بعد وفاته تعرض لأذى كثير . حتى ورد عنه أنه قال : « مانالت منى قريش مارجت أن تنال حتى مات أبوطالب » .

وروى البيهقى (٤١٩) أيضا عن عروة بن الزبير ، قال : سألت عبدالله بن عمرو بن العاص قلت : حدثنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله - ﷺ - قال : أقبل عقبة بن أبى معيط ، ورسول الله - ﷺ - يصلى عند الكعبة - فلوى ثوبه فى عنقه فخنقه شديداً فاقبل أبوبكر رضى الله عنه ، فأخذ بمنكبيه فدفعه عن رسول الله ﷺ - ، ثم قال : « اتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله » .

والأخبار فى ذلك كثيرة روتها كتب السيرة والسنن . وقد أمر الله سبحانه وتعالى - نبيه - ﷺ - بالصبر على الأذى فى قوله - تعالى :

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥ ﴾ (٤٢٠) .

---

(٤١٩) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٧٤
(٤٢٠) الاحقاف ٣٥

وقوله تعالى :

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ (٤٢١) إلى غير ذلك من الايات التى تحثه على الصبر .

لقد طلب منه ربه أن يستعين على دفع الأذى بالعبادة والتسبيح والصبر والأناة . .

محاولة إغرائه . ولما وجد الكفار أن سلاح الإيذاء للنبى - ﷺ - لم يجد شيئا . . فقد جربوا معه وسائل الإيذاء المختلفة مثل : الاستهزاء به والسخرية منه . . إلقاء الأشواك فى طريقه وإلقاء التراب عليه ، وإلقاء القاذورات فوقه وهو ساجد ، وغير ذلك . فلما لم تجد هذه الوسائل - حاولوا أن يُغروه . .

ذكر ابن إسحاق : أن عقبة بن ربيعة وكان سيدا من سادات قريش قال يوما وهو جالس فى نادى قومه - ورسول الله - ﷺ جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ . . وكان ذلك حين أسلم حمزة بن عبدالمطلب ، ورأى القرشيون أصحاب رسول - ﷺ - يزيدون ويكثرون .

فقالوا : بلى ياأبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يابن أخى ، إنك منا حيث علمت من الحسب والشرف والفضل ، والمكان فى النسب . . وإنك قد

(٤٢١) الطور ٤٨ ، ٤٩

أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وسفهت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له رسول الله - ﷺ - قل ياأبا الوليد .

قال : يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاجمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع (٤٢٢) على الرجل حتى يداوى منه . .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - ﷺ - يسمع منه . قال رسول الله . أقد فرغت ياأبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : أفعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ④ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ

---

(٤٢٢) يقصد الجنى الذى يأتيه .

حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ (٤٢٣)

. ثم مضى رسول الله - ﷺ - فى هذه السورة يقرؤها عليه .

فلما سمعها عتبة أنصت إليها وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله - ﷺ - إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت ماسمعت ياأبا الوليد ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك ياأبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط . والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولابالكهانة . يامعشر قريش . أطيعونى واسمعوا قولى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه . . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بكلامه .

قال : هذا رأيى فيه ، فأصنعوا مابدا لكم (٤٢٤) .

محاولة أخرى للضغط : لقد رأت قريش أن أباطالب يحمى النبى ﷺ - ويدفع عنه . . فإن هم استطاعوا أن يؤلبوه عليه فقد أفلحوا إذن . . فحاولوا ذلك .

---

(٤٢٣) فصلت ١ : ٥

(٤٢٤) الرسول لسعيد حوا ص ٩٣

ذكر البيهقى : عن موسى بن طلحة قال : أخبرنى عقيل بن أبى طالب قال : جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذانا فى نادينا ومسجدنا فامنعه عنا أو اتركه لنا .

فقال : ياعقيل : انطلق فأتنى بمحمد .

قال عقيل : فانطلقت إليه فأخبرته . فجاء معى وكنا وقت الظهيرة فى شدة الحر . فلما أتاهم قال أبوطالب :

يابن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا : كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالاأطيق أنا ولاأنت ، فاكفف عن قومك مايكرهون من قولك .

فظن رسول الله - ﷺ - أن عمه خاذله ومُسْلِمه ، وأنه قد ضعف عن القيام معه .

فقال رسول الله - ﷺ - ياعم والله لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله - تعالى - أو أهلك دونه ثم بكى رسول الله - ﷺ - .

فلما ولى قال له عمه حين رأى مابلغ الأمر به : يابن أخى .

فأقبل عليه . فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت وقل ماشئت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا .

قال ابن إسحاق : ثم قال أبوطالب فى شعر قاله حين صمم على حماية رسول الله - ﷺ - والدفاع عنه :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد فى التراب دفينا
فامضى لأمرك ماعليك غضاضة   أبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى   فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه   من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة   لوجدتنى سمحا بذاك مبينا (٤٢٥)

ثم استعملوا سلاح الضغط على أبى طالب نفسه : ذهبوا إليه ـ بعد أن عرفوا أنه لن يسلم ابن أخيه ـ وسيظل مناصرا له ـ فقالوا له : ياأبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه ، واتخذه ولدا فهو لك ، وسلم لنا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

وما كان أحمق قريش فى هذا العرض .

ولذلك كان رد أبى طالب عليهم لاذعا ، فقد قال لهم : والله لبئس ماتسومونى أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله مالايكون أبدا . والأعجب من ذلك أن يقول المطعم بن عدى : والله ياأباطالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فأى إنصاف ذلك ؟ إنه إنصاف الذى ينظر من جهة واحدة ، هو إنصاف الظالم الذى يريد أن يملى شروطه على المظلوم ، والقاتل الذى يريد أن يمثل

---

(٤٢٥) دلائل النبوة للبيهقى ج ٢ ص ١٨٦ .

بالمقتول . . والا فأى عقل يقضى بأن يُسلِّم رجلٌ ليكرَّم مكان رجل ليُقتل ؟ ؟
واستعملوا سلاح البطش بالمسلمين فساموا من أسلم أشد العذاب ، وعدا القرشيون على المستضعفين يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويلقونهم فى رمضاء مكة إذا اشتد الحر ، يحاولون فتنة المسلمين عن دينهم . فمنهم من يظهر الرجوع عن الإسلام من شدة البلاء الذى يصيبه ومنهم من يصبر . .

ولقد ذاق بلال على يد أمية بن خلف العذاب الشديد فكان يطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول بلال : أحد أحد . وظل كذلك حتى اشتراه أبوبكر فحرره .

ومن الذين ذاقوا العذاب الشديد آل ياسر ـ وكانوا فى بنى مخزوم ـ كانوا يعذبونهم أشد العذاب ، ويطرحونهم إذا حميت الظهيرة فى الرمضاء ، وكان النبى ـ ﷺ ـ يمر بهم وهم يعذبون فيأسى لهم ويقول : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة . وقتلوا أم عمار « سمية » وهى تأبى إلا الإسلام . .

ولم يجد المسلمون بدا من الهجرة إلى الحبشة فرارا بدينهم ، قال لهم النبى ﷺ ـ : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكا لايظلم عنده أحد ـ يجعل الله لكم فرَجا مما أنتم فيه .

واستعملوا سلاح المقاطعة : فقد رأى القرشيون أن الإسلام على الرغم من هذا التعذيب الشديد الذى يذيقونه للمسلمين ينتشر ، ويزداد ذيوعا ويتضاعف

عدد المسلمين . فلجأوا إلى أسلوب آخر ظنوا أنه يقضى على المسلمين .

فاجتمعوا على أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبدالمطلب . . . على ألا ينكحوا إليهم ولاينكحوهم وألا يبيعوهم ولايبتاعوا منهم حتى يسلموا لهم محمدا . . وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ووضعوا هذه الصحيفة الظالمة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم . . . وقد دعا النبى - ﷺ - على كاتب هذه الصحيفة فشلت أصابعه . قيل : هو منصور بن عكرمة بن عامر ، وقيل : هو النضر بن الحارث .

وعُزِل المسلمون فى شعب أبى طالب ، وانحازت بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى أبى طالب مناصرين له ماعدا أبالهب الذى خرج على إجماع عشيرته فظاهر بقية قريش ضد أهله وعشيرته .

واشتد الحصار حول المسلمين حتى جهدوا جهدا شديدا. وظلت المقاطعة زهاء ثلاث سنوات . حتى أذن الله بالفرج . . وقيض الله من بين القرشيين أنفسهم من ثار على هذا الظلم الواقع على ذوى رحمهم وقرباهم ، وفزعوا إلى الصحيفة فاستخرجوهامن جوف الكعبة ويمزقوها ، فوجدوها قد أكلتها الأرضة كلها إلا موضع « باسمك اللهم » وكان النبى - ﷺ قد أخبر عمه أبا طالب بذلك قبل وقوعه . .

واستعملوا سلاح المحاجة : لقد لج القرشيون فى العناد ولم يصيخوا إلى دعوة الحق ، وقد جربوا كل وسائل العنف ضد النبى - ﷺ - وضد هذه الدعوة التى جاء بها . ولكن هذه الدعوة تزداد انتشارا ، ويتسامع بها الناس فى كل مكان ، والذى ساعد على ذلك أن مكة تستقبل كل يوم وفودا تأتى لزيادة البيت الحرام ،

ويزداد الإقبال عليها فى موسم الحج . وكان النبى - ﷺ - يتعرض لهذه الوفود ، معلنا دعوته بينهم . . وكان لايعدم أن يجد سامعا أو مجيبا ، وكان الصادرون من الحج يحملون نبأ هذه الدعوة إلى من وراءهم ، فتعود وفود جديدة ولديها أخبار هذه الدعوة .

عند ذلك أراد القرشيون أن يجربوا سلاحا آخر . هو سلاح المحاجة والتحدى . قالوا له فيما حكاه لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤٢٦) .

وقد حاولوا معارضة القرآن الكريم ففشلوا . . . وذلك أن النضر بن الحارث - وكان من شياطين قريش ، وممن يؤذون رسول الله - ﷺ - أذى شديدا ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث القصاص ورواة الأخبار ، فكان إذا جلس رسول الله - ﷺ - مجلسا فذكّر فيه بالله وحذر من العذاب ، خلفه النضر فى مجلسه ، وقال : أنا أحدثكم بأحسن مما حدثكم به محمد . ثم يظل يحدثهم بأحاديث ملوك فارس وغير ذلك من القصص والأخبار وقد نزل فى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا

---

(٤٢٦) الاسراء ٩٠ ، ٩٤

﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾[427].

وسلكوا طريقا آخر فى المجادلة .. فقد أرسل القرشيون النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما : سلا اليهود عن محمد، وصفا لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء ... فخرجا حتى قدما المدينة، والتقيا بهؤلاء الأحبار، ووصفا لهم أمر الرسول ﷺ .

فقال لهم أحبار اليهود : عودوا إليه وسلوه عن هذه الأمور الثلاثة :

- عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب .
- وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ماذا كان من أمره ؟
- وعن الروح ماهى ؟

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا به مابدا لكم ..

فعاد النضر وعقبة، وسألا النبى - ﷺ - عن هذه الأمور .. فنزل القرآن مجيبا لهم عما سألوه ..

نزل بقصة أهل الكهف .. وقد سبق أن تحدثنا عنها حديثا خاصا .

ونزل بقصة ذى القرنين . وسبق ايضا ان تحدثنا عنها حديثا خاصا .

ونزل فى شأن الروح قوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾[428]

ويستدعى ذلك التحدث عن الروح حديثا خاصا نوضحه فيما يأتى :

---

(٤٢٧) لقمان ٦، ٧

(٤٢٨) الاسراء ٨٥

فهرس القصص القرآنى